خطوات على الشلال
سلطان الزمان

بقلم : محمود تيمور

السماء صحو ، والجو رائق ، والرياح تؤثر الهوادة واللين ، والنيل تتلألأ مويجاته تحت أضواء الشمس المتالقة .

هذا يوم فريد ، جدير أن نقضيه فى ضيافة « سلطان الزمان » .

ولعلك لم تسمع بهذا اللقب بعد ، ولكنه لقب لرجل معروف الاسم ، طائر الصيت ... « أغاخان » زعيم الاسماعيلية الأوحد ، ومرقده هنالك على ضفة النيل اليمنى المقابلة لمدينة « أسوان » : ضريح فخم على رأس الجبل ، اختار موضعه بنفسه فى حياته ، ورضى به مثوى لجثمانه بعد رحيله عن الدنيا .

هبطنا الى المرسى ، نأخذ على الماء طريقنا الى الضريح ، فاستقبلنا زورق شراعى أنيق يحمل اسم « غزال » فامتطينا ظهره على بركة الله .

وكان ربان « الغزال » غلاما أسوانيا أشرف على الثانية عشرة ، حسن الطلعة يدير على رأسه عمامة خفيفة ، ويحزم خصره بنطاق ، متخذا فى شارته ولهجته سمت النواتى الأصلاء .

والنهر فى هذه البقعة متاهة مائية ، حافلة بطرائف المشاهد : خلجان ومنعرجات ، وجزر خضر كأنها نفحات من الجنة ، وصخور سود كأنها زبانية من الجحيم .

وتراءت لنا عن اليمين ، على مطرح النظر ، رابية يشرف منها ضريح متواضع هو ضريح الشيخ « على ابن الهوى » ، وعلى الطرف الآخر من اليسار يلوح ضريح لايقل تواضعا عن صنوه ، هو قبر « الشيخ عثمان » ، وبين هذين يتربع فى عظمة وزهو ضريح « سلطان الزمان » ... ثلاثة من أهل الله اتخذوا من راس الجبل مقاما أبديا ، ونعم الاختيار ، ففى مثل هذا الهدوء الشامل ، والجو الساجى يطيب للأرواح أن تتناجى .

ومضى الربان الفلام يثرثر ، فقال :

ان « أغاخان » قد اختار هذا المكان مقاما له ابان حياته ، لأن داء المفاصل أعياه ، ولم يكن يجد شفاءه الا فى تلك البقعة ، وكثيرا ما كان يدفن جسده فى أغوار الرمال ساعات وساعات ، فتزول آلامه ...

وقلت لنفسى :

لعل الرجل آثر أن يكون مثواه بعد مماته ، فى المكان الذى أتاح له الراحة فى حياته ، أو لعله خشى أن تصاحبه العلة فى الدار الأخرى ، فتقض مضجعه ، وتنغص عليه عيش الخلود ، ومن ثم الزم جسده ذلك المكان حتى ينعم بنومة هانئة بين حنايا الرمال الدافئة ، ويمرح فى بحبوحة من احلام عذاب .

وانتهينا الى المرسى ، على الشاطىء الآخر ، وشرعنا نصعد : هذا درج سامق بديع التنسيق ، على جانبيه تصطف الأزاهير .

واعترضنا فى الطريق لافتة مكتوب فيها : ((مقبرة نور السلام)) .

وواصلنا الصعود ، والخضرة النضرة تحيط بنا وسط تلك الرقعة الجبلية القاحلة ، بما فيها من رمال محرقة ، وجنادل موحشة .

وتابعنا صعودنا ، وقد خلا الطريق من الرياحين ، وقبيل أن نبلغ القمة مثلنا فى مكان ينظر النيل .... هو مستشرف طبيعى سوته يد الانسان ، فتجلت امامنا منه صفحة النيل تخترقها الجزر والخلجان والصخور وأشرعة القوارب ، ومن وراء ذلك صفوف النخيل وأبنية الفنادق : مزاج رفيع من طبيعة فطرية ، ومظاهر حضرية ، لوح مصور اختلط فيه المعقول واللامعقول ، والواقع وما فوق الواقع ، الوعى واللاوعى ، الرمز الخفى والحقيقة العارية ، وأنت حيال هذا اللوح المبدع مبهور العين بفتنة ، مملوء النفس من اعجاب .

وقاربنا المبنى العظيم ، وواجهتنا لافتة ثانية قرأنا فيها : « مقبرة الأغا خان الثالث » : بناء مربع فى جانب منه قبة عالية ، وعلى عتبة الباب خلعنا احذيتنا ، ودخلنا المزار خاشعين ، فكل ما هنالك يشعر بالمهابة والاكبار ، بما له من قدسية وبما فيه من روعة فن اسلامى عريق ، يزيده ترف حضارى بهيج .

المرمر الأصيل يتألق حواليك ، فى كل ما يقع عليه نظرك ، لكأنك داخل قوقعة بلورية بيضاء تسبح فيها الأضواء هادئة آمنة .

وتقف تجاه القبر المظلل بالقبة العلياء ذات الوشى الدقيق ، تعجب للبساطة البالغة كيف تنطوى فى حقيقتها على عظمة شامخة .

النصوع والصفاء والسكون يحمل الى الزائر لهذا المكان اشراق الروح وطمانينة النفس ، ولا غرو فنحن فى المكان الذى سمى بحق : «نور السلام».

يا للانسان السرمدى فى كل مكان وزمان ...لقد حيره لغز الوجود ، ومصير الجسد بعد انطلاق الروح ، وما عسى أن يكون أمره بعد حياته الدنيا طال عليها الأمد أو قسر ...

ولم تستطع الاحقاب على ترادفها ان تحل اللغز ، ولا أن تهدى الحيارى وان هذه الحيرة ازاء المصير المجهول هى التى اذكت الرغبة فى خلود الذكر وبقاء الأثر .... ما اشبه الأهرام وما اليها من معابد ومقابر خلال عديد من القرون ، بذلك الضريح الجديد ، ضريح

الزعيم الهندى الكبير ، فى ذلك الوادى الذى تهيم فيه ارواح الفراعين .

هبطنا الى زورقنا الرشيق « الغزال » ، وتلقانا الربان الفلام ببسمة ترحاب كشفت عن أسنانه المنسقة الناصعة .

الى أين يا «غزال » ؟

– الى جزيرة النباتات .

وانطلق الزورق على الماء ، واضواء الشمس تترقرق لامعة كانها صفائحمن الفضة طافية على المويجات ، وجزنا فى طريقنا بجزيرة « الغنتين » – واسمها العصرى جزيرة اسوان – وهى حافلة بالآثار ، اذ كانت فى البدء موطن الأهلين ، ثم امتد منها العمران الى الضفة الأخرى ، حيث تقوم المدينة المتيدة ، وانها لجزيرة شاعرية تعمرها غابات النخيل ، وفى طرفها يقام اليوم فندق عظيم ، سوف يكون له شان فى تعصير الجزيرة ووصلها بالحياة الحضرية الرفيعة ، بعد ان عاشت عصورا متطاولة وهى قطعة من الماضى السحيق .

وانتهى بنا الزورق الى جزيرة النباتات ، فصعدنا اليها ، ولم نكد نخطو فيها حتى هلت علينا جوقة موسيقية شعبية قوامها اثنان من أهل الفن : ضارب دف ، وعازف ربابة • وانبعثت الأنغام تحيى الزوار ، وبدانا جولة ممتعة فى الحديقة الساحرة ، وانغام الدف والربابة ترق خلفنا ، اذ تمتصها الرياحين والأفنان.

درب طويل ممدود ، تتفرع منه دروب ، وعلى الجانبين حياض تربو فيها غرائب النبات •

وتدفع بخطاك وئيدا يغمرك الظل الوارف ، ويسرى فى الجو حولك أنسام هفهافة مضمخة بالعطور ، مختلفة الأريج ، وتنظر هنا وهنالك ، وعلى سمعك يهب صوت الدليل وهو يعدد لك أصناف ما تنبت الأرض ، ويذكرلك أسماءها فى دقة عارف عليم ، انها حقا لمجموعة ضمت الطرائف والعجائب من ازهار وأشجار تباينت مواطنها الأصيلة فى أرجاء الشرق والغرب ، منها نباتات ملساء رهيفة كأنها أطفال رقاق يتناغون بأصوات لطاف ، ومنها نباتات صلبة تعلو بهاماتها وتبسط سواعدها كأنها أحراس عتاة •

احضر فى ذهنك اسم نبات أى نبات واصطنع الرغبة فى أن تراه •• فانك لا تلبث حين تطلبه أن تجده على مقربك منك •• لكأن فى أصبعك « خاتم سليمان » ، متى هجست فى نفسك حاجة ، هتف الخاتم لك : لبيك ، واذا الحاجة نصب عينيك !

وتبلغ آخر المطاف ، وكأنك فىطراز جديد من « سفينة نوح » ، سكانه من عالم النبات لا من عالم الحيوان ، ولكأن الجزيرة طيف من أطياف الجنان فيها من كل ما تنبت الأرض زوجان •

وفى طرف الحديقة مثلث معشوشب، يظلله من الهند شجر جوز ، ومن « كوبا » نخيل ، وعلى مد البصر يترامى النيل ، وقد بسط أذرعا له ، على شواطئها جبال حمر هى موطن الحديد • وهنالك على الضفة الأخرى تتبوأ « أسوان » عرشها كأنه الهة من الاهات الفراعنة يحفها جلال •

وسالت دليلى :

أثمة جديد ؟

— لم يبق الا « كلبشة » ٠٠٠

— وما « كلبشة » هذه ؟

— معبد عتيق شيد فى العهد الاغريقى الرومانى قبل ألفين من السنين ، للاله «مندوريس بن» ايزيس «و«أوزوريس»٠



واعتدل الدليل فى وقفته ، وعقد ما بين حاجبيه ، واكسب وجهه سمات الوقار العلمى ، وانطلق يتحدث كانه محاضر يعتلى منصة الدرس فى أحد معاهد الآثار ٠

هذا المعبد أول أثر قديم ضخم يخضع لتجربة النقل من مكان الى مكان، تمهيدا لنقل المعبد العظيم فى « أبى سنبل » ٠٠ لقد قصوا « كلبشة » فى دقة واحكام قطعا بلغت خمسة عشر ألف قطعة ، ونقلت القطع على مراكب الى مكان يبعد عن مكانها الأصلى خمسين كيلو مترا ٠٠٠ ولبثوا فى اجراء ذلك عامين ، برعاية « اليونسكو » وباشراف جماعة من مهندسى الألمان ٠ وأما النفقات فقد تكفلت بها « ألمانيا الغربية » هدية منها « للجمهورية العربية المتحدة » ٠ وان هذا العمل يا سيدى ليعد من أكبر الأعمال الهندسية التى تخصص بها العلماء فى عصرنا الراهن ، وهو ٠٠٠

— حسبك أيها المحاضر الغزير المادة، وشكرا لك على ما قدمت من معلومات ٠٠٠والآن أخبرنى : كم تستغرق الرحلة الى « كلبشة » من الوقت ؟

فبسط ساعده بحركة مسرحية رائعة ، واستخبر ساعة يده الذهبية المتوهجة ، ثم قال :

سنتأخر عن موعد الغداء حتما ٠٠٠

— اذن ٠٠٠ فلنرجىء ٠٠٠

فلاحقني مقاطعا :

الأثر بالغ الشـــأن ٠٠٠ لزام أن تزوره ، وان فاتك فى سبيله طعام يوم بأكمله ٠٠

فاطرقت هينهة ، أقول مفكرا :

ولكن هذا مرهق ٠٠٠

ثم رفعت راسى ، وتلفت حــولى ، فلم أجد للدليل من شبح ٠٠٠

وما هى الا أن أقبلت علينا سيارة أجرة، وهو فيها ، وصاح بى متهلل الوجه :

أنت محظوظ ٠٠٠ عثرت لك على سيارة فاخرة ٠٠٠

وقفز منها يفسح لنا أن نركب ٠

ومضت بنا السيارة تسابق الريح ٠

وتبدى لنا معبد « كلبشــة » يتربع على هضبــة عالية مشرفة من بعيد على « السد » ٠٠٠ انه يواجهــه ، وكانه يحييه ويسامره ٠

وصعدنا الى رأس الهضبــة ، فتجلى لنا المعبد كامل المعالم ، ولكانه منارة ترشــد الزوار الى مكان الســد ، أو لكانه ديدبان الماضى يحرس منشــآتنا العصرية الجديدة ٠

وطوفنــا بأرجائه وقتــا ، نقتحم ساحاته ، ونجوز بقــاعاته ، ونمر بين عمــده ، ونتطلع الى نقوش جدرانه ، مفتــونين ببــدائع الفن الفرعـــونى الباهر ٠٠٠

معبد « كلبشــة » كسائر المعابد العتيقة فى ضخامته وروعة هندسته ، ولكنه يمتاز عنها بشىء ، هو أنه انتقل بكل عناصره من موطن الى موطن ٠٠ انه أول مهاجر من معابدنا ، يتخذ له مقاما جديدا بعد طول ثواء ، لينجو من غمرة الماء ٠٠٠ وانها لخطوة موفقة نرجو أن تتلوها خطوات للمعابد الأثرية ، حين تلجئها الضرورة الى هجرة وارتحال ٠٠

أيها المعبد القديم فى موطنه الحديث :

ان كنت مفخرة الماضى عمارة وفنا ، فانت مفخرة الحاضر فى قدرته على أن ينقلك دون أن يمســك أذى ، لتنعم بمقامك فى جوار السد ، ولتكونارمزين لحضارتين عظيمتين : حضــارة الأمس المجيد ، وحضارة اليوم الجديد !

حديث الشهر

مع السندباد الفنان الدكتور حسين فوزى

يقدمه : محمد عبد الحليم عبد الله

قد يمشى فى الطريق فلا يلفت النظر اليه ٠٠٠٠ رجل عادى يغلب عليه التواضع والصحة ٠٠٠ أناقته كلها فى رأسه من حيث تكوينه « الطبيعى » أو من حيث « محتوياته » ٠

فشعره المجعد المقسوم بين اللون الأصلى والشيب وجبينه الواسع ولونه المصرى وفمه الصغير وعيناه القلقتان الساهمتان شيئا ما ـ كل هذا يؤكد ما قلته من أن اناقته كلها فى رأسه ٠٠٠

كان فى جريدة الاهرام فى مكتبه فى الميعاد قبل أن أصل اليه ٠ وكان اليوم حارا والجو فى مجموعه لايبعث على التفكير لأن الوقت كان ظهرا ٠

وعندما جلست معه فطنت الى أننى ارتدى بذلة كاملة لأنه كان يرتدى قميصا بسيطا مفتوحا قصير الكمين ، ويرحب فى سرور ومودة ٠ وجلس لايكاد يشعر بحرارة الجو وطلب قدحين من « التمر هندى » فتأملت « السندباد » فى قميصه البسيط بعدما نطق بكلمة « هندى » وتصورت البلاد التى قطعها والبحار التى ركبها من الغابات الاستوائية الى ثلوج الشمال ٠

ذلك (السندباد) الذى بعث الى زميله وصديقه توفيق الحكيم برسالة ٠ كتبها السندباد وهو فى تونس فى احدى رحلاته العلمية وتناول وصف مدينة القيروان فكتب اليه الحكيم مداعبا يقول له : أنظر الى دراستك الاحياء وما فعلت بك ؟ لقد وصلتك حتى للصحراء !!

وربما كانت أكثر أسفاره من أهم أسباب بساطته ومن أهم أسباب عمق ثقافته٠٠

لا يحب الاشياء الخفيفة ٠٠٠ منطقه « علمى » وأسلوبه « معملى » ولفظه « أدبى » ٠٠٠ يبحث عن التوافق الموسيقى والانسجام السمفونى فى كل ما يؤلف ٠٠٠

وقد كنت حريصا على أن أعرف سر ذلك عندما القاه لاننى ما كنت أعلم شيئا عن نشاته الأولى ٠ فقلت له :

ـ هل من الممكن أن أعرف شيئا عن نشاتك الاولى يادكتور ؟

ـ نشاتى الأولى ؟!

رددها وكأنه يريد أن يكشف سر ما وراء السؤال .

فقلت له بسرعة :

- حقيقة ... هناك كثيرون لايعرفون الكثير عن نشأتك وأنا شخصيا تكمل صورة الأديب عندى حتى تصبح لوحة فى برواز حين أعرف نقطة البدء فى حياته . فالمسألة اذن دراسة وليست اشباع فضول .

فابتسم الدكتور حسين فوزى وهو يقول :

- لعلى أنا شخصيا لا أجد فى حياة الطفولة شيئا غريبا . لكن الذى يجب أن أذكره هو أننى نشأت فى قاهرة العصور الوسطى واقصد بذلك هندسة البناء والمناظر العامة التى تفتحت عليها عيناى .

فعلى بعد عشرين خطوة من مسجد الحسين ولأب مهندس فى وزارة الاوقاف ... ولدت .

ولما تركنا هذا الحى انتقلنا الى حى مشابه هو باب الشعرية .

سكنا أحد بيوت المماليك وكان يطل على شارع الخليج وعلى مقربة من باب مسجد الشعرانى ... أيضا !!

فقلت :

- من باب الحسين لباب الشعرانى !!

- الى البغالة ... الى فم الخليج .

مواطن الفلكلورية المصرية حتى اليوم . وكنت أتبع أبى وأنا صغير . تأملت المساجد والآثار التى كان يدخلها واحدا بعد واحدا . كنت أمسك بالشريط وأتابع علمه فى صمت . وأستطيع أن أدعى اننى كنت اتفاهم فى حب مع فن المعمار . كان يبدو فى انسجام استاتر بلبى ...

وشردت أنا قليلا والدكتور حسين يتكلم عن فن العمارة وحاولت أن اربط بين التناسق الموسيقى والانسجام السمفونى بين تأمله للعمارة وحبه للموسيقى فذكرت قول القائل :

« ليس فن العمارة الا موسيقى متجمدة » .

ثم ما لبثت أن عدت بذهنى اليه وهو يكمل تاريخ نشأته :

- حتى الكتاب الذى حفظت فيه القرآن كان صيغة للفن المعمارى الذى بدت فيه القاهرة فى تلك الفترة ، نعم وحفظت ثلث القرآن فى هذا الكتاب ... حتى سورة (طه) وموسيقى القرآن ملأت نفسى وحركت وجدانى ... أحببته أدبا وموسيقى . ثم دخلت المدرسة الابتدائية ككل أبناء جيلى وأحببت الرسم والأدب

والموسيقى • قرأت الأدب العربى كله فى كل عصوره ••• ثم تركز كل حبى واهتمامى حول الأدب والموسيقى •

وسكت الدكتور حسين بانتظار سؤال آخر لكننى كنت فى هذه المرة أتخيله فى مكان آخر غير جريدة الاهرام ••• كانت صورته أمامى وكأنه على ظهر سفينة اسمها « النورس » فى يوم عاصف والبحر شديد الهياج • وهذا الاديب الرقيق ينظر الى ثورة عناصر الطبيعة حوله •

ثم ما لبثت أن تذكرت أن هذه الصورة ليست خيالا • انها حقيقة حقيقة ••• عاشها ووصفها السندباد فى كتابه « سندباد الى الغرب » •••

وهذه اللحظات التى سوف نعرف تفاصيلها كتبت تحت عنوان « كونترا بونتى » فى كتاب « سندباد الى الغرب » وهى من أجمل ما قرأته فى أدب الرحلات ••• القصة المتحركة البسيطة الحية ••• هذا هو أدب الرحلات فى نظرى •

أما كلمة « كوانترابونتى » فقد شرحها السندباد لأنها كلمة غير مألوفة عند الناس • وهى تعبير موسيقى فنى معناه « تأليف ألحان مختلفة كل منها مستقل موضوعا ولكنها فى مجموعها تؤلف هارمونية » •

هذا هو العنوان الذى اختاره القصاص الرحالة الموسيقى الأديب العالم الطبيب

وفى هذه القطعة يمكن جدا أن نرى القصاص الرحالة الموسيقى فى طيف واحد • مثل صورة مركبة من ثلاثة وجوه تبين فيها ملامح كل فرد •• أراد الدكتور أن يؤلف قطعة أدبية تتحقق فيها الهارمونية • فآلف بين أسطورة الاسكندر الاكبر ذى القرنين الذى يجوب الآفاق بحثا عن روح الخلود وبين ••• سفينة الصيد الفرنسية « النورس » ••• سفينة الصيد ••• التى لقيت الأهوال من أمواج البحر •

وفى هذه القصة « عصب » يربط أجزاءها المتفرقة • عصب من صنع المؤلف • كلمات ؟ ••• لا ••• بل أصوات ••• أشبه بما يردده (الكورس) من كلمات بين مقاطع الاغنية • أصوات كأنها تقوم بعملية « التقفيل » على ما فات ثم « التمهيد » لما هو آت • فى جو قصصى كحولى ••• أو أثيرى ••• أو فى شحوب ضوء القمر •

اقرأ جزءا من القصة:

« زن •• زن •• زين • اسكندر ذو القرنين • زن •• زن •• زين . اسكندر ذو القرنين .

أساطير الاسكندرية تتطاير هنا وهناك • مبعثرة بين الشهنامة والمسعودى • قد يكون مصدرها ذلك المؤلف المزعوم (كللستينس) ومنها أسطورة ذى القرنين يجوب الآفاق بحثا عن روح الخلود • تصورها موسيقى بول دوكا فى معزوفته السمفونية (البيرى) • وهذه الموسيقى تتردد فى أذنى منذ غادرت قاعة (بليل) عصر يوم أحد واتخذت سمتى الى ميدان سانت اوجستيان •••• فشارع الاوبرا • طريق طويل

تحدونى فيه أنغـام البيرى الغنية ايقـاعا وألحانا وهرمونية واذا بالايقاع يتطور ويتحول :

تك ••• تك ••• تك تم تم تين •

ما هذا الايقاع ؟ ليس من موسيقى بول دوكا ولا من هذه الناحية من العالم • انه صدى لحن جاءنى من بعيد جدا • فى الزمان والمكان • انه ايقاع السـاقية فى ريف بلادى الذى لايشبه ريفا رأيته منذ سافرت شرقا وغربا • أو هو صوت حنـون كاد يقص على طفولتى أسطورة الاسكندر ••••

قصـة حلاق الاسكندر الوحيد بين رجاله يعرف سر الملك العظيم حين يذهب الى مخدعه يصفف له شعره فيكشف بين خصلاته عن قرنين ••• اسكندر ••• لـه قرنين • اسكند ••• لـه • لو قرنين •

ثم يذهب ليبوح بسره فى الفضاء والاركان الخربة يسرى عن نفســه بالغناء : « اسكندر ذو القرنين اسكندر ذو القرنين » •

وتتحول الأنغام هكذا ••• تلك التى سمعها السندباد فى قاعة الموسيقى من لحن الى لحن • لحن يقص ـ قصة الاسكندر فلا يلبث أن يتطور الى لحن السـاقية الذى يعود فيقص قصة الاسكندر ثم يتطور اللحن الى شئ جديد •

تك •• تك •• بوم تك •• تك •• بوم

ويقص علينا هذا الذى هو ترجمة موسيقية لصوت الونش الكبير على السفينة ـ قصة سفينة الصيد « النورس » الى أن يستطرد السندباد قائلا :

وكان الطفل قد انتقـل الى عالم الأحلام فى هذا الايقـاع الساحر واذا به يرى نفسه فى مستقبل الزمان شابا يلبس كازاكة الصيادين وينتعل حذاء من المطاط طويل الرقبة ويمشى على ممشى السفينة الى جانب الريس (بوابيه) يشاهد الشباك تغيب فى مياه خليج غسقونية وطبلتى الونش الكبير تدوران لترسلا أسلاك الصلب للشباك تسحبها معها الى الأعماق وتغنى فى دورانها :

تك •• تك •• بوم تك •• تك •• بوم

جبال من الماء • جبال من الماء •• من الماء كل شئ حى •• جبال من الماء الحى •

وفى اللحظات التالية ترتفع (النورس) الطائر الأصم الأعمى • الجارية المنشأة من صلب وخشب ـ الى قنة جبال الموج فيرتد البصر وهو بصير وتبدو أسنة الموج على خط الأفق كأن صفحة البحر هناك أسنة المناشير الحداد •

وأتامل وجوه الصيادين المجاهدين وسط العاصفة • العاصفة التى تتحـول الى أعصار لو صدق راديو الريس بوابيه •

أبناء الحضارة يتابعون حرفة الانسان الأول •

٠٠٠٠٠٠ الشاطىء يبدو على بعد والكل سعيد بالاياب كأنه يقطع أول غربة بين أهله ووطنه • فالاعتياد لم يقتل فى نفوس هؤلاء الأشداء حنينهم الى الليالى يقضونها فى دفء الاسرة أو فى جو الحانة تعبق بالدخان الرخيص وتختنق باصوات العراك والضحكات العالية •

أما نهارهم فهو نهار رجال البحر فى كل مكان • يتريضون على الشاطىء فى مواجهة البحر • يرسلون دخان غلايينهم فى غلالات يحملها نسيم البر والبحر ويتفرسون البحر الممتد الواسع كأنهم لا يشبعون منه حبا ٠٠٠٠

وعندما ينتهى السندباد الفنان من كتابة قصة السفينة نراه يختم القصة باللحن الأول لحن اسكندر ذى القرنين •

كنت قد قرأت هذه القصة بتأمل عندما استوقفنى عنوانها وحين جلست مع الدكتور حسين فوزى ووجهت اليه سؤالا عن العلاقة بين الموسيقى والأدب فى فنه الكتابى ـ اذا به يذكر لى هذه القصة « كونترابونتى » وأخذ يكشف لى عن طريقته فى كتابتها ٠٠٠ قصتان فى قصة ٠٠٠ يربط بينهما لحن ٠٠٠ يتطور من حال الى حال • والقصتان ذاتا هرمونية ولو أن كلا منهما تختلف عن الاخرى ٠٠٠ كل قصة من واد •

وقال لى الدكتور حسين فوزى وهو يحدثنى عن العلاقة بين الأدب والموسيقى •

نحن لانستطيع ان ننقل الموسيقى الى الأدب ولكنى كتبت قصة على الأسلوب الموسيقى • وبستطيع من يدرس الموسيقى ان يمتع دون ان يشعر بفائدة نادرة • وهذه الفائدة هى التأثير الموسيقى على طريقة كتابته • ويكون هذا التأثير ـ فى الأدب ـ داخليا مستخفيا • فأثر « الايقاع » يظهر فى بناء الجملة وكذلك أثر الرين وأيضا وهذا هو الأهم ـ فان موسيقى الآلات مؤلفة من مجرد نغمات وهذه النغمات لاتعنى شيئا بذاتها المجردة • لكنها عندما (تبنى) تصبح شيئا آخر ٠٠٠ جديدا يعبر عن انفعالات مؤلفها •

ان البناء فى التأليف الموسيقى مثل البناء فى فن العمارة فالنغمات اذا لم توضع فى اطار مرتب مرسوم فلا تكون الا (تنغيما) وليست هى الموسيقى بالمعنى العظيم •

واهمية البناء فى الموسيقى هى التى تؤثر فى أدب الكاتب ولكى أوضح ذلك سأضرب مثلين •

الكاتب عندما يؤلف مسرحية والكاتب عندما يؤلف قصة طويلة •

فالذى يؤلف مسرحية لن يقوم عمله ولا توجد مسرحيته بدون البناء المسرحى • فاذا وجدت فمعنى ذلك أنها بنيت وهذا الكاتب ليس فى حاجة الى بناء موسيقى •

أما الروائى فعنده تكمن الصعوبة •

فقد تسرد القصة على شكل (حدوته) وقد تسرد سردا فنيا •

والسرد الفنى هو (البناء)

ولكى يكون البناء اصيلا ومتينا فليس ضرورة أن تظهر اسياخه الحديدية . فالتأثير الموسيقى يستخفى فى بناء القصة كما تستخفى الأسياخ فى البناء .

سألت الدكتور حسين فوزى :

ـ هل فن الرواية وحده هو الذى ينتفع صاحبه بالبناء الموسيقى وهو يبنى عمله الادبى ؟

ـ مؤكد . لكن ... أنا شخصيا أحس تلقائيا بانتفاعى من الموسيقى حتى فى الكتاب ذى الفصول المختلفة ففى كتاب « سندباد مصرى » فصول كثيرة عن فتح مصر وعن رفاعة وعن الجبرتى والثورات وكليوبترة لكن مجموعة هذه الفصول منتمية الى ..سل لانراه وهو البناء الموسيقى .

وقد بدأ الكتاب بقسم مثل جحيم دانتى أى الحالة التى وصل فيها المصريون الى الضعة من بدء الفتح العثمانى الى عصر فاروق .

وهذا القسم سميته « الظلام » .

وسميت وسط الكتاب : « ما بين الخيط الاسود والابيض » .

وسميت القسم الأخير : « الضياء » .

قلت للدكتور حسين

ـ وعلى ذكر الأدب والموسيقى هل تذكر بعض فصول من كتابك (سندباد الى الغرب) وصفت فيها الموسيقى بالكلمات ؟ يعنى وصفت فيها الموسيقى بالأدب ؟!

عندئذ شرد السندباد قليلا وبدأ يتذكر لكن ابتسامة معتذرة ولدت على فمه وهز رأسه قائلا :

ـ هل تذكر أنت ؟

ـ قلت : نعم . أذكر قولك :

« كانت أول مقطوعة سمعتها هى السمفونية السابعة لبيتهوفن وما زلت أذكر نوعا من الخشوع استولى على والمايسترو يستعد بعصاه . ثم تنطلق كل هذه الآلات فى « زحمة » فجائية يتبعها لحن بطىء . ثم تنهمر السمفونية نغمات راقصة تشيع فى الجو دفئا وفى النفس جذلا . وكانت تلك القاعة المستطيلة الحسيسة يعبق جوها بالألحان التى جعلت تنعقد هنا وهناك صورا صوتية تختلط فيها حرارة الآلات الوترية بلهيب الآلات النحاسية يطفئها خرير من النايات الفضية ثم تضفى عليهـا الآلات الخشبية أشعة زرقاء أو خضراء مائعة ناعمة »

أليس هذا جميلا يادكتور ؟

فابتسم فى تواضع . فقلت له :

ـ لقد رفعت ثلاثة من العباقرة الى مسابح الخلود . موسيقى ورسام وشـاعر ... بتهوفن وأنجيلو وشكسبير . ثم قلت :

« أما من عدا هؤلاء ففيهم الفنان الصناع • وفنان المشاعر وفنان الادراك الفلسفي • وفنان الايقاع • والفنان الصوفي • والفنان الدنيوى • وغيرهم ممن سبروا غور الانسانية وصوروا أشخاصهم من صميم الحياة فى واقعيتها أو فيما وراء النفس البشرية بسيكلوجيتها المعقدة • أما بتهوفن وانجيلو وشكسبير فكانوا كل هؤلاء فيما خلفوه لنا من تراث فنى رفيع جعل الارتقاء الى مقامهم شاقا يأخذ على المرء حياته كلها درسا وجهادا وحبا »

وقد احسست حبك لبيتهوفن فيما كتبت عنه يوم ذهبت تبحث عن قبره فرايته منزويا خلف قبر باشمهندس بلدية فينا ••• لكن كيف حبك لفن القصة ولماذا لم تكتب لنا قصصا كثيرة اننى قرأت لك قصة « الدوتشى الصغير » فاعجبت بدقة الوصف ولمحات السخرية وقصة (مرثية) فكنت أبتسم وأدمع ••• قصة صديقك الفرنسى الذى غرق فى بحار الشمال الباردة والذى كان يعمل معك فى المعمل) زميلا فقيرا ساخرا ••• يعلق جاكتته ليس على شماعة بل يضعها فوق كتفى هيكل عظمى هناك حتى يخلص من عمله فى المعمل •••

لماذا اذن لم تكتب لنا قصصا كثيرة ؟

احسست عندئذ أن الدكتور حسين فوزى يتأهب لنفى تهمة لا يحبها لنفسه ثم قال بكل وداعته وكل حماسته وكل انطلاقه :

ـ هل أنت لاتعرف أننى زميل محمود تيمور ؟!

سارعت مجيبا :

ـ أعرف ذلك •

فاستطرد :

ـ كنا ثلاثة ••• أكبرنا سنا وفنا محمد تيمور ثم محمود تيمور وأنا • وكان محمد تيمور فى فن القصة بمثابة المرشد لنا وكنا لا نكاد نفترق • وكثيرا ما سافرنا لعزبة احمد تيمور أنا ومحمود • ولعله يذكر حتى الآن ـ ودعنا نتفكه قليلا ـ قصة وزن القطن •

حدث أن ذهب محمود تيمور ليحضر بالنيابة عن والده بيع القطن وكنت معه • وجلسنا فى ساحة كبيرة وحولنا الأكياس فى كل مكان وكان هناك « قبانى » يزن الأكياس • وكان محمود تيمور جالسا يتأمل الرمانة النحاسية التى يزحلقها الوزان بأصابعه حتى تتوازن مع الكيس على الحبل ثم يهتف الوزان بعدد أرطال كل كيس •

وأخذ محمود تيمور يتأمل هذه العملية مدة طويلة وأنا معه • وفجأة وجدت محمود تيمور قد نهض من على كرسيه والرجل يزحلق الرمانة ويمشى محمود حتى يقف الى جوار الرجل ويحملق فى الميزان • فما كان من الوزان الا أنه ارتبك وارتعش وأخذ يتبرأ من ذنب لم يرتكبه وهو السرقة • فقد اعتقد أن تيمور يفتش عليه • فى الوقت الذى كان فيه محمود تيمور ذاهبا ليعرف كيف تتم هذه العملية فما كان يعرف عن أرقام (القبانى) شيئا •

ومع محمود تيمور كتبت قصصا عددها خمس وعشرون نشرت ما بين ١٩١٩ ، ١٩٢٤ فى مجلات السفور والفجر ...

وكانت حياتى واعدة بأن تجعلنى أمضى فى هذا الطريق لولا حادثة رئيسية هامة .

ـ هى ؟

ـ هى سفرى الى الخارج . فمجرد ركوبى الباخرة وسفرى الى الخارج لدراسة العلوم تغير كل شىء . وكنت قبل ذلك قد فرغت من دراسة الطب واشتغلت بمستشفيات الرمد سنوات . وكانت دراستى للتاريخ الطبيعى والاحياء المائية سببا فى أننى جبت العالم فى رحلات لاعدد لها .

وقد كنت فى فرنسا وحدها خمس سنوات ....

قلت للدكتور حسين فوزى :

ـ لماذا اذن اتبعدت عن دراسة الأدب فى هذه الفترة ؟

ـ عندما نذهب نحن أبناء القديم ـ وهذا رأيى ـ الى مثل هذه المواطن فهل نؤلف ؟! لا ... بل يجب أن نتلقى . لان مثل هذه البعثة التى تكون بين سن الخامسة والعشرين وسن الثلاثين لن تتكرر ... لن تحدث الا مرة واحدة فى العمر .

كان همى الأول أن امتلىء بكل نافع حقيقى مفيد . أن أعرف لباب الحضارة فى مدرجات السربون وقاعات العزف والمتاحف والمعامل وكتب الفكر والانتقال من بلد الى آخر .

ولم أكن أحس أبدا فى هذه الفترة بحاجة الى الكتابة بل كانت كل رغباتى وطاقاتى وملذاتى المعنوية متجهة الى الشرب من مناهل الحضارة الحقيقية .

وكانت قراءاتى دائما لها خطة معينة ...

ثم عدت الى وطنى وأنا الأول فى دراسة الأحياء المائية وألقى على عاتقى أنا وزميل لى عبء الثروة المائية .

ثم ابتسم الدكتور حسين فى وداعة وتواضع واستطرد :

حتى اذا ما كانت سنة ١٩٣١ غرر بى صديقان هما توفيق الحكيم وأحمد الصاوى فجعلانى أكتب عن رحلاتى فى (مجلتى) ... هذه هى القصة .

كان الوقف يتقدم وحر القاهرة فى ذلك اليوم شديد الرطوبة ولم أر علامات تعب على محدثى . فقد علمته الرحلات طول الصبر كما علمته (المعامل) تحرى الحقيقة والدقة . ولست أدرى لماذا تذكرت كلمة رائعة عن الفن قالها الدكتور حسين فوزى ... تذكرتها وأنا أتأهب للنهوض فألقيتها على مسامعه كأنها تحية منى اليه ـ حييته باقتداره وبجميل كلماته :

« لقد طالب المسيح بالغفران للخاطئة لأنها « أحبت كثيرا » ونحن أحباب الفن قد يغفر لنا التمسح بمقامه والتعلق بجديد نوافذه أننا أحببنا الفن كثيرا »

ثم قلت للدكتور حسين : اننى أحب الموسيقى لكننى أنقم عليها أنها استأثرت بك أكثر من القصة .. لكننا على كل حال نحس جمال الفن فى كل ما تكتب .

صقر الصحراء

قصة

بقلم : محمود البدوي

كنا ثلاثة من الشبان الأشداء .. خرجنا من القاهرة فى سيارة جيب فى وسط النهار الى قلب الصحراء ...

وكان الجو حارا والطريق صعبا ... والسيارة العتيقة تخب بنا خبا فى جو ينذر بالزوابع .

وبدت الرمال من حولنا صفراء تلتمع من وهج الشمس الحامية وكثبان الرمال تسفيها الريح .

وتلفعنا واتقينا الشمس والعاصفة ما وسعنا الجهد ... وكانت البيداء من حولنا لا يحدها الطرف .

وكنا نعرف الطريق الى البئر .. ولكنا نخشى العطب الذى يصيب السيارة

ولذلك أعددنا العدة بقطع الغيار اللازمة لكل الطوارىء .

وكنا نحن الثلاثة نعرف فى ميكانيكا السيارات أكثر من معرفتنا بأمور الحفر فى البئر الذى نقصده ..

وكانت البئر هناك فى أرض رملية على مبعدة ١٦٠ كيلومترا من المدينة ونود أن نطبق على التربة العذراء نظرية علمية معززة بالتجربة العملية..: ونجرى عليها الماء ونزرعها ثمارا وبطيخا ما بلغنا القصد ..

وكان العمال يقومون هناك بأعمال الحفر والمحراث يقلب التربة وكل شىء قد هيىء للزراعة .

وعندما قطعنا مايقرب من ثلاثين كيلومترا فى قلب الصحراء ... كانت الشمس قد التهبت وزادت حرارتها .. وحبات الرمال بدت كجمرات من النار المتقدة ..

وأخذ الما يغلى فى جوف السيارة ويتصاعد منه البخار فاخذنا ... نزوده بالماء البارد بعد كل مرحلة خشية احتراق لمحرك ..

ولم يكن هناك طير يحلق فى السماء ولا وحش فى الارض .. وحوالى الساعة الثالثة بعد الظهر هدأت الريح وسكنت الزوبعة وبدت الرمال .. الساكنة .. هى الشىء الوحيد الذى يتنفس فى هذا التيه .. فلم يكن هناك زرع ولا ظل لزرع ..

وكنا قد رفعنا الغطاء فوق السيارة منذ اشتعال الشمس وهبوب العاصفة .

وجلس أحدنا بجانب السائق ..

وجلست وحدى فى الخلف مسترخياً حالما بالزرع النضير فى تلك البيداء ٠٠ التى بدت كأنها لا تتنفس فيها الحياة ٠

وكانت معنا زوادة كاملة من الطعام والشراب ولكن حتى عندما اقترب ٠٠ العصر لم نكن نحس بجوع ٠٠ وشربنا قليلا من الماء حتى لا نغرق فى طوفان من العرق ٠

وكنا ثلاثتنا ندخن بكثرة وكان السائق أكثرنا شراهة فى اشعال ٠٠ النار ٠

وكانت الطريق خالية من السيارات تماما ولكن صعوبتها جاءت من أنها غير سوية وكثيرة المتعرجات والمرتفعات فكنا نعلو ونهبط بعد كل خمسين ٠٠ ذراعاً ٠

وظهر للعيان أنها أقيمت على سلسلة من التلال التى يأخذ بعضها برقاب بعض وأن الذين اختاروا لها هذا المكان لم يجدوا ما هو أحسن منه ٠

والذى يقطع الصحراء يحس بالوحشة بعد ساعة واحدة من رهبة التيه وفرط السكون المخيم وأحسسنا بالوحشة من خلو الطريق وسكونه ٠

وكان مع أكبرنا سناً بندقية صيد٠٠ ولكنا لم نعثر قط على شىء نطارده ٠٠ ولم يكن الصيد قصدنا ولا مبتغانا فلم نبتئس ٠٠٠

وكنا نحن الثلاثة فى سن متقاربة ٠, لا نتجاوز الخامسة والعشرين من أعمارنا ولم نتزوج بعد ودار فى خلدنا ونحن نمضى فى هذا التيه أنه اذا غمرتنا الرمال فليس هناك من ولد يبكينا ولا زوجة تندبنا ٠٠٠ وان المسالة ستمر بسلام ٠٠ !

وبعد أن اجتزنا نصف المرحلة هبت نسمة من الهواء الرخى أنعشت نفوسنا ورطبت أفئدتنا ولكن بعد دقائق معدودات خنقتها الحرارة ٠٠٠ الخانقة٠٠ وذابت فيها ٠

وسرنا والعرق يسح والارض تتنفس مثل النار ٠

وكان لابد أن تستريح السيارة بعد ثلاث ساعات من السير الجاد ٠ فملنا بهسا عن الطريق ٠٠ ورفعنا غطاء المحرك ٠٠٠

وأكلنا بعض الزاد وشربنا وبعد نصف ساعة تحركنا بمثل الحال الأول ولكن الراحة القليلة أفادتنا كما أفادت السيارة ٠

وكانت الرؤية واضحة والسماء أكثر صفاءاً وزرقة من أى ساعة٠٠ شاهدناها فيها ٠

وعندما مالت الشمس بنا الى المغيب لمحنا من بعيد قافلة من الجمال على الجانب الأيمن من الطريق ٠

ولما اقتربت منا لاح راعيها بعصاه الطويلة وتمهلنا وغيرنا من سرعة السيارة مخافة أن تنفر الجمال على صوت المحرك ٠٠ أو أن تغير وجهتها وتعبر أمامنا الطريق وكنا فى واقع الحال نعود لنملأ عيوننا منها ٠٠٠ كانت بيضاء جميلة وقد لوحت جلودها الشمس ٠

وكان منها ذا السنامين ولكنها كانت كلها مرفوعة الرءوس شامخة تحدث عن سلالة عربية أصيلة ٠

ولما برحتنا أسفنا لفراقها فقد آنستنا بها لحظات هنية :•

وبعد مرحلة طويلة من السير الجاد أدركنا أننا ضللنا الطريق وأننا نسير في غير وجهتنا :•

وتملكنا الهلع وتوقفنا ونحن نرمي بصرنا في كل اتجاه كأننا نتلمس المخرج من هذا التيه :•

وقر قرارنا بعد أن تبينا الملامح والمعالم التي حولنا والتي كانت جديدة علينا أن نستقبل من طريقنا ما استدبر حتى نرجع خمسين كيلومترا الى الوراء ٠٠ ومن متعرج على الدرب نأخذ الطريق الصحيح الى البئر •

وفيما نحن نلف بالسيارة ظهر عند خط الأفق شيء أشبه بكوخ على ربوة ٠٠٠ فعجبنا لوجود مثله في هذه البيداء القاحلة ٠٠

وحسبنا أن أبصارنا خدعتنا في مثل السراب ولكن لما دققنا النظر وجدنا الأمر جليا وظهر الكوخ بوضوح •

ودفعنا الفضول والعجب أن نتجه اليه أولا اذ كان من الحكمة والصواب أن نسترشد بمن فيه على معالم الطريق •

وأخذنا الطريق اليه ولما اقتربنا ظهر بيت من طابق واحد ٠٠ وأمامه بستان من النخيل ولم يكن على الباب أحد ٠٠

***

وترجلنا من السيارة ودرنا حول المكان فلم نعثر على انسان ما ٠٠

ثم تقدم أحدنا وقرع الباب ٠٠ فوثب على صوت القرع كلب يبدو أنه كان نائما في البستان وأخذ علينا الطريق ٠٠ ثم أخذ يتحرش بنا في توحش فتراجعنا الى الخلف مذعورين وصاح أحدنا مرعوبا •

وخرج على الصوت شيخ طعن في السن وأطل من الباب بعينين صقر وكان يلتفت بحرام ويعتمد على عضد الباب ويطل من وجهه المرض :•:

وزجر الكلب ودعانا للدخول ودخلنا على التو ٠٠ لما تبينا أنه مريض وان وقفته على الباب ستؤذيه ٠:٠

واعتذر الشيخ لمرضه ورجع الى فراشه في فناء البيت ٠٠٠ وهو لا يكاد يتماسك

وأبدينا أسفنا لأننا أزعجناه وهو مريض وحكينا له ماحصل من ضلالنا في الطريق فبين لنا كيف أخطأنا ٠٠ وحشي أن نضل أكثر لو سرنا في هذه الساعة ودخل علينا الليل• واستحسن أن نقضي الليل في ضيافته وفي الصباح المبكر ٠٠٠ نستأنف سيرنا ٠٠

ولأن الشيخ كان في حالة شديدة من المرض وهو في هذا المكان رأينا أن نبقى بجانبه هذه الليلة لعلنا نقدم له كل عون ونساعده على الشفاء ٠٠

وأشار بيده الى الشاي والطعام في الداخل فشكرنا بحرارة ٠٠ وقلنا له ان معنا زوادة كافية •

وكان معنا اسبرين وبعض الأدوية التي تقي ضربة الشمس فصنعنا له شايا وقدمنا له الدواء •

وحدثنا عن حياته وكيف يتاجر في البلح والجمال ٠٠٠ وان أولاده متفرقون

فى الصحراء يجرون وراء معاشهم ••
وانه مذ ماتت زوجته يعيش وحده ••

وقد اعتاد على هذه الوحدة وألفها وأصبح يستانس بالحيوان كما يستأنس بالانسان دون أدنى فارق •••

ولما دخل الليل أشعل السراج ولشدة الحرارة نمنا جميعا فى العراء خارج الكوخ •••

وترك الشيخ بابه مفتوحا ونام فى مدخل الباب لمرضه •• وبعد الساعة العاشرة ليلاً أخذنا النوم جميعا ••

وفتحت عينى على شىء أسود وقف على رأسى ولما أمعنت البصر فيه صرخت وعلى آثر الصرخة صحا رفيقى الذى معه البندقية ولكنه من فرط الرعب الذى انتابه وهو ينظر الى الوحش ارتعشت يده ولم يحـــــرك الزناد •• ثم أطلق طلقة طائشة •

وكان الشيخ قد بصر بالضبع فى نفس اللحظة التى رأيته فيها وظل يجاهد ويتحامل على نفسه وهو مريض حتى وصل الى مكا نالبندقية •• ورأيته ينتصب وقد التمعت عيناه ونضح وجهه عرقا •••

ونسى فى غمرة الانفعـــال لما حدث مرضه تماما •

وخرج يشق الطريق فى الظلام الى حيث الوحش •••

وكان كل من يراه وهو يمســـك بالبندقية يدرك أنه رجل من طراز فريد فى رجال الصحراء ••• وطواه الظلام ولم نعد نراه •

وبعد قليلّ سمعنا صرخة وفزعنا ولم ندرى أصرخته هو أم صرخة الوحش ولكن لم تمض لحظات أخرى حتى رأيناه راجعا وكان يمشى بتؤدة ••• ويسحب شيئا أسود ضـخما لايزال يقطر منه الدم ••

وكنا قد سمعنا كثيرا ونحن نتجول بسيارتنا فى هذه البيداء عن صـــقر الصحراء ولكنا لم نكن قد رأيناه عن قرب •••

ولى الله

قصة

بقلم نجيب الكيلانى

كان الشيخ « وهدان » سيد الأتقياء فى القرية بلا منازع ، وكان المثال الأرفع لكل الصالحين ، لحيته السوداء المهذبة والتى تتخللها الشعرات البيضاء تشع طهرا وقداسة ، نصف اغماضة مميزة توحى بأنه رجل يعيش فى عالم آخر ، عالم الكرامات والملائكة والتسابيح ، واذا ماسار فى دروب القرية سبقه أريج فواح يرتبط فى ذهن النسوة والأطفال والرجال برائحة الحنة ، وليس هناك فى القرية من لايعرف الرجل النحيل القصير الوسيم، والذى يقبل على الثرثرة أو الانشغال بامور الدنيا عظيمها وحقيرها فيومه موزع بين الصلاة فى المسجد ، وقراءة الأوراد فيما بين الصلوات ، والخلوة فى البيت أو فى أحد الاضرحة، وفى بعض الليالى يحتشد حوله الدراويش ، ويستمعون الى الأغانى الصوفية العذبة ، أو يشتعلون حماسا وهم يتطوحون يمنة ويسرة ، وأماما وخلفا ، فى حلقة الذكر والمعرفة ٠٠ هذا هو الشيخ وهدان شيخ الطريقة الصوفية٠٠ والرجل الذى تتابعه العيون فى تجلة ووقار ، وتنحنى له الجباه اذا ماسار ، وتتلقى الأسماع كلمته وكأنها أمر الهى لانقض فيه ولا ابرام ٠٠٠ لم يكن أحد بقادر على أن ينكر أنه فوق طبيعة البشر ٠

والغريب أن أولاده ـ الذين تتراوح اعمارهم بين العاشرة والخامسة والعشرين ـ كانوا أبعد مايكونون عن التقى والصلاح ، بل كانوا مثالا سيئا فى استهتارهم واثارتهم للمشاكل واهمالهم فى تلقى العالم ، وكان الناس يضربون كفا بكف ويتمتمون : « لا حول ولا قوة الا بالله » يخلق من ظهر العالم فاسدا، ومن ظهر الفاسد عالما ٠٠ سبحانه » ، وعلى الرغم من رقة حاشية الشيخ ووداعته الا أنه كان يتعامل مع أبنائه فى قسوة وحنق ٠

ولم يخدش انحراف أولاده شيئا من سمعة الشيخ ، ولا الثقة به ، بل ظل سرا كبيرا محوطا بالجلال والهيبة والوضاءة ، وظلت وفود العصاة تلجأ اليه طالبا الهداية ، سافحة دموع الندم ، تقبل يديه فى شغف ، وتعفر جباهها بالتراب الذى يسير عليه ، وتتسابق الى الماء المتخلف عن وضوئه كى تتبرك به ، وتتداوى من السقام ٠

وصحت القرية ذات مساء على خبر غريب تفجر فى أفقها كالقنبلة الشديدة الانفجار ، وشاع الخبر فى كل زقاق

وشارع ، لكن الناس رفضوه رفضا صارما ، واعتبروه مجرد شائعة قذرة يلجأ اليها الفاسقون المنحلون ٠ كى يطعنوا الشيخ فى سمعته ، وينالوا من قداسته التى أصبحت مضرب الأمثال ٠

وقال الشيخ ناصف مؤذن المسجد الكبير :

ــ « وماذا تنتظرون غير ذلك ؟ ! ألم يقولوا عن النبى قديما انه ساحر ٠٠ وكاهن ٠٠ ومجنون ؟ ! »

وقال حادى حلقات الذكر ، صاحب الصوت الرخيم ، والخمريات المؤثرة :

ــ « شـيخنا يصلى فى الكعبة كل مساء ٠٠ انه من أهل الخطوة » ٠

فرد عليه « عبـد المطلب » تاجر المخدرات بالقرية :

ــ « بل يصـلى كل ليلة فى بيت « نعناعة » ٠٠ ذات العيون الزرقاء ٠٠ »

فقال الحاوى مشيحا بوجهه، مستغفرا الله :

ــ « أيها الفاسق أتتهم أسيادك ؟؟ اعـرف أنك تكرهه منـذ أن أفتى بأن تعاطى المخدرات حرام ٠٠ كلكم أصحاب مصالح » ٠

فرد عبد المطلب ساخرا :

ــ « ألم تكن مصدقا لمـا أقول ، فلتنتظر تحت شجرة التوت أمام منزل « نعناعة » ٠٠ عند ذاك ستقطع الشك باليقين » ٠

وكانت نعناعة أرملة جميلة ، لهـا عينـان زرقاوان فيهما جرأة وجمـال ، ولنظراتها تحد قاتل ، وبشرتها البضة الشـقراء التى لوحتها الشمس تشـد اليها العيـون الجائعة وغير الجائعة ، المعجبـون بهـا كثـيرون ، وعشرات الأقاصيص تروى عن عشاقها وزوارها والمتشوقين للزواج منها ، ولم يكن أحد يدرى لماذا لا تتزوج وهى تمتلك هـذا الجمال كله ، وزعم البعض أنها وجدت الحيـاة هـكذا أكثر فائدة وربحا من الزواج ، ما أشبهها بالاميرة المدللة التى يتسـابق اليهـا الرجال بالهـدايا والتضحيات ، ومن يفكر فى الاعتـداء عليها ، أو التصدى لرغباتها لايستطيع الصمود فى الميـدان طويلا ، فهنـاك متطوعون للانتقام منه ، واعطائه درسا قاسيا فى الادب والاخلاق ٠٠

فكيف يفكر الشيخوهدان فى الزواج من امرأة كهذه ؟؟

وكيف يفكر فى الزواج أصـلا وهو القدوة والمثال ، وهو المتزوج صـاحب العيال ؟!!

الزواج فى مثل هذه الحالة ــ كما يعتقد أهل القرية ــ ضرب من المتعـة والنزق ، أو رجس من عمـل الشيطان لايليق بشيخ عظيم ، وولى من أولياء الله الصالحين ، كالشيخ وهدان ، ان التقاء الشـيخ وهـدان بنعنـاعة من رابع المستحيلات ، لقاء مـلاك وشيطان ، والشيخ كان يخطب بالأمس ويقول : « الخبيثـات للخبيثين » ولا يمـكن أن يضم بيته احدى الخبيثات ٠

لهذا أنكر أهل القرية الأمر ، ونفوا الشائعة نفيـا قاطعا ، وازدادوا ايمانا بالشيخ وهم يرونه يسير مرخى الجفنين، والمسـبحة الطويلة فى يده ، وشفتاه لاتكفان عن التمتمة وترديد اسـم الله

الحي القيوم ، الواحد الأحد ، وكيف لايؤمنون به وهم يرون الدموع تنسكب فوق لحيته الطاهرة كلما تغنى الحادى مادحا السيدة زينب :

يا بنت الأطهار ٠٠ أنا المحتار ٠٠ داوينى

جـــدك له معجزات ٠٠ مـــلات دواوينى

لـكن الواقع مـر أليم ، ومايرونه بعيونهم غير مايتوهمونه ٠٠

لقد رأوا الشيخ يتردد على بيت نعنانة كل مساء ٠

ماذا يفعلون ؟؟ أيكذبون عيونهم ؟؟ أيعتبرون مايرونه خداعا بصريا ؟!

وعادوا الى الشــــيخ ناصف مؤذن المسجد ليستفتوه :

ـ « ماقولك ياعم الشيخ ناصف » ؟

فهز الشيخ رأسه شأن العالم ببواطن الأمور وقال :

ـ « أنتم ضعاف العقـــول ، ضيقو التفكير » ٠

فرد عليه عبد المطلب تاجر المخدرات وهو يلوك شيئا فى فمه :

ـ « كيف ؟! تريد أن نفهم » ٠

ـ « ألم تسمعوا عن الصالحين الذين كانوا يجاهرون ببعض التصرفات المشينة ٠٠ كان يشربوا فى رمضان ، ويزوروا الأماكن المشبوهة ؟؟ أتدرون لماذا ؟! » ٠

قهقه عبد المطلب ساخرا وقال :

ـ « لماذا ؟! »

ـ « كى يتهمهم الناس ، ويشنعوا عليهم ، فيكتسبوا الثــــواب ٠٠ انهم يريدون أن يكونوا الاتقياء الاخفياء ٠٠ وهناك طائفة من الواصلين سقط عنهم التكليف » ٠

قال عبد المطلب وهو يشعل سيجارة:

ـ « مامعنى ســـــقوط التـكليف يا فهامة ؟؟ »

ـ « الواصلون ليســـوا مثلنا ٠٠ فالفرائض وأوامر الشرع لأمثالنا ناقصى الايمان ٠٠ أما أمثال الشيخ وهدان فلهم حكم آخر ٠٠ لقد كشف الحجاب عن بصرهم وانتهى الأمر ٠٠ أما أنا وأنت وباقى الناس فمساكين ، نعاقر الخطايا والذنوب جحودا ونكرانا لفضل الله » ٠

قال عبد المطلب فى خبث :

ـ « والابن الاكبر للشيخ ؟؟ » ٠

ـ « ماله ؟؟ »

ـ « ألا يعلم أبوه أن ابنه من الواصلين ايضا ؟؟ »

ـ « ماذا تقصد ؟؟ »

ـ « أعنى أنه يعشق نعناعة ٠٠ وصل اليها قبل أبيه »

وسبه الشيخ ناصف ولعنه ، وصرخ فيـــه :

ـ « اذهب يا عبـــد المطلب ٠٠ أنت ملعون ٠٠ ملعون » ٠

ولم يخف على أحـــد أن عبد المطلب قد اهتم بالشائعات التى تلاحق الشيخ ونعناعة ، وأخذ يتقصاها وينشرها فى كل مكان ، ولم يأل جهدا فى تنميقها

والمبالغة فيها ، بل انه استطاع الوصول لى نعناعة ، وفاتحها فى الموضوع بدهاء وخبث لا يقدر عليهما الا مثله ، وقالها:

ـ « آه ·· فتنت الشيخ يانعناعة » ·

فانفرجت شفتاها الورديتان عن ضحكة منغمة خليعة ، وقالت :

ـ « أنتم تظلموننا ·· انما ألتمس البركات » ·

ـ « كل ليلة ؟؟ »

ـ « كل ليلة يا عبد المطلب » ·

فتنهد فى لؤم وقال :

ـ « ماكنت أعتقد أن الأولياء يعشقون » ·

ـ « لكن الله جميل يحب الجمال ·· والشيخ شريف طاهر حتى فى عشقه » ·

ـ « لقد فاحت رائحة الفضيحة » ·

فردت وهى تغمز باحدى عينيها :

ـ « واذا كنا سنتزوج ؟؟ »

ـ « تتزوجان ؟؟ » ·

ـ « فى الحلال يا عبد المطلب ؟؟ »

ـ « هذا العن » ·

فقالت وهى تهم واقفة :

ـ « أعرف أن وقتك ثمين ، والزبائن ينتظرونك ·· مع السلامة » ·

واصطدم عبد المطلب لدى باب البيت بابن الشيخ ، كان الشاب مكفهر الوجه ، تشتعل نظراته حقدا ، واندفع كالسهم ، وعلى وجه سيما الجنون ، ولمحته نعناعة وهو يدخل ، فهتفت به :

ـ « لا تنس أن تغلق الباب » ·

فصفقه فى غيظ ، ومضى نحوها مكورا قبضتيه ، فاسرعت قائلة :

ـ « أهلا ·· حبيبى » ·

فامسك بعضدها فى غلظة وهدر :

ـ « أيتها المجرمة » ·

فشهقت مستغربة ، دون أن تبدو عليها أية بادرة من خوف وقالت :

ـ « حبيبتك مجرمة ؟؟ »

ـ « كفى خداعا » ·

ـ « ماذا جرى ؟؟ »

ـ « أتتجاهلين ؟؟ اننى أعرفك ·· وأفهم من هى نعناعة اللعوب ، لكن ثقى أننى قادر على أن أذبحك كما تذبح الفرخة » ·

فقالت فى هدوء :

ـ « يجب أن ترتاح قليلا ·· أنت ثائر الأعصاب ولن تاتى أى تصرف سليم وأنت على هذه الحالة » ·

ولم يكف أحمد ـ وهذا اسمه ـ عن الحديث ، وأخذ يروى لها كيف أن أباه الشيخ وهدان أخبرهم البارحة أنه ينتوى الزواج منها ·· من نعناعة ، وأخذ أحمد يعنف فى لومها ، كيف تجارى الشيخ الكبير فى هذا العبث ، وكيف توافقه على أفكاره تلك ، وهل نسيت أن فى هذا الزواج اهدارا لكرامة الشيخ وسمعته ، وتهديدا لمركز الاسرة ومنزلتها بين الاسر فى القرية وفى القرى المجاورة ؟؟ ·· وأخيرا ·· هل نسيت أنها اتفقت مع أحمد على الزواج ، وانهما



سيتزوجان سواء أوافق الشيخ أم لم يوافق ؟؟

واقتربت نعناعة منـــه ، والصقت جسدها بجسده ، وهمست فى أذنه بكلمات ناعمــة ، كانت أنفاسها تبعث الدفء فى قلبه ، والخدر فى جسده كله ، وهم بأن يضمها اليـــه ، لكنها ثبت بعيدا عنه فى خفة وهى تقول :

ــ « وماذا أفعل ؟؟ ان أباك رجل لا يقال له « لا » ٠٠ الجميع هنا يطاطئون له الرءوس ، وأوامره للطاعة والتنفيذ ، وهل كنت أحلم برجل له مثل شرف مكانته ، وقداسة سلوكه ؟! ماذا كنت تفعل لو كنت مكانى ياأحمد ؟

ورماها أحمد بنظرة نارية ، ثم هب واقفا واندفع اليها قائلا :

ــ « أفهم لعبتك ٠٠ مارأيتك مرة تصدين طامعا ٠٠ دائما تتلذذين برؤية الرجال وهم يركعون أو يتصارعون من حولك ، لكن أبى لن يركع ٠٠ أبى لن يركع ، ولن يكون لعبة بين يديك ٠٠ أتفهمين ؟؟ »

قالت نافرة :

ــ « لتقل له هذا الكلام » ٠

فرد بعبارة كانت كاللطمة القاسية :

ــ « أبى أشرف من أن يحبك » ٠

فقالت فى سخرية :

ــ « وأنت يا نور العين » ٠

ــ « أنا غير أبى ٠٠ أنا كلب مثلك ٠٠ هذا نصيبى » ٠

ــ « وماذا تنوى أن تفعل ؟؟ »

ــ « سنتزوج غدا » ٠

فاقتربت منه ، وطوقته بذراعيها ، ولم تمانع حينما هم بتقبيلها ،وهمست:

ـ « هذا هو الحل الوحيد » •

لم يكن أحمد مرتاحا لهذا التصرف ، ولم يكن يشعر فى قرارة نفسه بالسعادة الحقيقية التى كان يحلم بها قبل ذلك ، ان ماحدث بينها وبين أبيه من علاقة طارئة ، وماصاحب هذه العلاقة من شائعات وأقاويل ومبالغات كاذبة ، قد أتعسه ، وملأ صدره بالمرارة ، ولم يكن هذا الزواج المفاجىء بالذى سيرضى والده، ومع ذلك فقد وجد نفسه مضطرا لأن يفكر فى الخطوة الأخيرة •

فى صبيحة أحد أيام الصيف المشرقة ، انبعثت من دار نعناعة زغرودة عالية ، وسرى النبأ فى كل مكان •• لقد تزوجت نعناعة من أحمد وهدان ابن الشيخ ، وأحدث النبأ هزة عنيفة ، وصدى بعيدا ، وخرج الشيخ ناصف مؤذن المسجد الى الناس ، وكان بينهم عبد المطلب تاجر المخدرات :

ـ « ألم أقل لكم ؟؟ دائما تسيئون الظنون بالناس الأطهار الشرفاء •• لم يعشق الشيخ نعناعة وانما أراد هدايتها الى الطريق المستقيم حتى يزوجها من ابنه •• هل رأيتم نبلا أعظم من ذلك » ؟

فرد عبد المطلب ساخرا :

ـ « ولم لا تقول أن المنافسة كانت حادة بين الشيخ وابنه ، وكل واحد تمناها لنفسه ؟؟ » •

فصاح الشيخ ناصف غاضبا :

ـ « انظروا هذا الشيطان •• انه متبجح لايرعى حق أسياده ، ولايصون كرامتهم » •

ـ « لكن نعناعة قالت ذلك•• والناس كانوا يعرفون •• ثم ان الشيخ بشر مثلنا » •

فقال الشيخ ناصف وهو يلوح بيده:

ـ « ردوا أيها الناس •• قولوا لعبد المطلب الفاجر الحقيقة » •

فتحولوا نحو عبد المطلب ، وأخذوا يتسابقون الى صب اللعنة عليه ، وامتدت أيديهم وأرجلهم بالصفع والركل ، وأخذ عبد المطلب يحاول الهرب جاهدا ، وقد وضع كفيه على وجهه ورأسه ليتقى الضربات ، وابتسم الشيخ ناصف فى سعادة وتمتم :

ـ « هذا جزاء الكاذبين » •

أما الشيخ وهدان فقد لزم داره ، لم يعد يراه أحد يمضى فى الطريق تشع منه التقوى والوضاءة ، ولم يعد يتوسط حلقة الذكر ، ولم تعد تلمع دموعه فوق لحيته الطاهرة وهو يستمع الى أغانى المتصوفين ، وألزمه المرض الفراش لثلاثة شهور •• ولم يغادر بيته الا يوم وفاته •• ياله من يوم •• كانت الطرق مزروعة بآلاف البشر ، ودقات الطبول تصم الآذان ، ورجال الطريق يهتفون باسم الله•• والاعلام الخضراء والحمراء ، والبيارق العالية تمتد الى بعيد •• والموكب يبتدأ من القرية ولا ينتهى الا عند القبة البيضاء المشرقة التى سيدفن تحتها الشيخ وهدان •• ولى الله •

الطريق المرسوم

قصة

بقلم
صوفى عبد الله

كان صوت جهاز راديو بعيد ، عبر الشارع يطن فى اذنيها ، وهى تسمع سؤاله .. وتتلقى تحديق نظراته القوية ، كانه يريد ان يصب عليها كل مالديه من تيار مغناطيسي ...

وقاومت اضطرابها وراح عقلها يصب اللعنات على اولئك المخترعين المغفلين الذين اضاعوا وقتهم فى ابتكار اجهزة بهلوانية تافهة ، ولم يفكروا فى اختراع نافع جدا ولازم جدا ، انه الاختراع الوحيد الذى تشعر بلزومه لها فى هذه الساعة بالذات ، وكل مسكينة فى موقفها من بنات حواء . ولا بد أن هناك مائة مليون مسكينة مثلها فى مثل موقفها هذا من نماذج لابناء آدم الجبارين يشبهون هذا الماثل امامها يصب عليها كل نيران نظراته المضطرمة العارمة ، التى تثير فى أعماق كيانها الضعيف اعتى البراكين ...

لماذا لم يشغل هؤلاء العباقرة أنفسهم باختراع اهم ألف مليون مرة من الراديو والتليفزيون ؟ اختراع « ترانزستور » بطارية صغيرة جدا يضيء نورا اخضر أو أحمر او اصفر كأنوار علامات المرور لتعرف المراة هل المرور ممكن ، او خطر او بين بين .. جهاز صغير كهذا يكشف عما فى قلب آدم وعقله نحو المسكينة التى يصب عليها سحره الطاغى .. فتعرف هل هو صادق..أم يغرر بها .

وتذكرت شيئا آخر ففزعت .. تذكرت ان هذا الجهاز الترانزستور لو اتيح لكل الناس ، فماذا يكون موقفها حين يسلط زوجها هذا الجهاز على عقلها ...

كلا ! يجب ان يكون هذا الاختراع الثمين وقفا وحكرا عليها هى فقط ... آه يارب لو استطاعت فقط ان تعرف!!

وعاد عليها سؤاله ، وهو يصب فيها نيران نظراته فيسحق عقلها وارادتها سحقا وهى تتماسك :

— لا أدرى لماذا تصرين دائما على تعذيبى ؟ .

واخذت عيناها تتفحصه فى توجس فرغم صوته الحزين وملامح وجهه المتقلصة ، لم تستطع ان تكون فكرة واضحة عما يتكتمه فى دخيلة نفسه : هل هو صادق حقا ، أم يمارى ويلعب بها ؟ .. اترى حقا يحبها أم يريد ان يستشف طوايا نفسها ؟ ان نفسها جياشة بالاحساسيس ... تحسها

كالبركان على وشك الانفجار ... لا تدرى فى أى لحظة سيفلت منها زمامها .. ربما الآن ... فورا ... أو بعد دقيقة .. أو ربما تستطيع التحكم ويمر الموقف بسلام وتتغلب على ضعفها ... الله اعلم ... اما اذا تغلب هو وصار سيد الموقف ... رباه ! .. ان نفسها تفلت منها فتعربد وترتكب من الافعال مالا تجسر ان تواجه به هذه النفس اذا عادت الى حالتها الطبيعية !..

حالتها الطبيعية ؟!

اذن هى لا ترتكب هذه الاعمال وهى فى وعيها !.

احقا ان داخل النفس البشرية شخصيتان متعارضتان كامنتان ، هما : الخير والشر ؟ اتكون الشخصية الشريرة هى التى تستحوذ عليها وتشل تفكيرها الطبيعى وتجعل بذور الشر الكامنة تتشعب كالاخطبوط تمتص كل ما حولها وتعيث فسادا دون أى رادع من الشخصية الأخرى المستنيمة لها ؟!

ان سلطانه أقوى الآن ، فى هذه اللحظة بالذات من ان يدعها تفكر ، فقد أحست بجيشان عواطفها تمور وتملأ جسمها ثم يزحف الى لسانها اسمه الحبيب فاذا به يقفز الى شفتيها فتهمس به فى نشوة .. فيمد لها يده المرتجفة بعود ثقاب ليشعل لها سيجارة فتتلامس الأيدى وتتلاقى العيون فى نظرة صامتة جياشة تزلزل جسمها كله ..

منذ عام عرفته .كان صديقا لزوجها احضره ذات يوم الى البيت لتناول طعام الغداء ، وقدمه اليها وهو متهلل بعودة صديق طفولته من الخارج .

وكانت جلسة ممتعة تخللتها ذكريات الطفولة العذبة واطوار الشباب وما مر بهما ، وقص عاطف على صديقه زوجها ما مر به فى حياته ، ومأساة حبه ، وهربه الى الخارج بقلبه الجريح ، وعزوفه عن المرأة والزواج بعد ذلك .

وحاول زوجها ان يثنيه عن عزمه ، ضاربا بها وبحنانها وحبها واخلاصها اكبر مثل يدحض فكرته ، واذا كانت امرأة قد خانت عهوده ، فليس معنى ذلك ان كل النساء سواء ...

واغضي عاطف ، لم يحر جوابا .. ولكن سحابة حزن رانت على الموقف ، فأسرع زوجها يدير دفة الحديث الى ظروف العمل والطقس ودخلت ابنتهما فى هذه اللحظة من نزهتها الصباحية مع دادتها ، وراحت تتقافز ، وساد الجو مرح جميل بدخول الطفلة اللطيفة ..

أما هى فلم يستطع جو الموقف ان ينتزع من نفسها احساسها بالرثاء لهذا الشاب الفارع الوسيم وراحت تختلس اليه النظر وهو يداعب طفلتها فى حنان واقبال شديدين ...

وتعددت زيارات عاطف للبيت ، واصبح يدخل ويخرج فى اى ساعة يريدها بعد ما اعطاه الزوج مطلق الحرية والثقة مساهمة منه فى ابعاد روح الكآبة عن صديقه العزيز ... واشعاره بجو العائلة الدافىء ليعيد اليه ثقته بأن هناك نساء فضليات ...

ولم تكن سهير باقل رغبة من زوجها فى ادخال السرور على قلب عاطف .

ولما كانت متزوجة منذ ست سنوات ، ولم تنجب سوى هذه الطفلة ، لان مانعا

الم بها بعد ولادتهـــا قرر الاطباء انه سيزول بمرور الزمن ، ولكن السنوات مرت ، وهي في شوق ملحللأطفال ، مما جعل الفراغ يلون حياتها، ولم يفلح حب زوجها وحدبه في ملء حياتها لان أعماله الكثيرة كانت تعوقه عن مرافقتهـا الى أمكنة اللهو والنزهات ، فانطوت على نفسها تجتر آلامها في صـــمت حتى لا تزعج زوجها وتسبب له خيبة أمل في العش الهنيء الذي بناه وزوده بكل مريح وجديد ليســـعدها ويدخل على قلبها السرور ...

وبمرور الأيام احست سهير ان وجود عاطف معها قد فجر فيها ينابيع شبابها بعد ركود .. وفي كل مرة يجلس اليها تكتشف فيه أشياء افتقدتها في زوجها وارتاحت اليه واصبحت تحس بوحشة لغيابه ، وشعر هو ببوادر استلطافها له فراح يتقرب منها ويرمي شـــباكه حولها !..

وذات يوم ، وقـد انفردا في البيت انتظارا لعودة زوجها من عمـــله ، كان هذا الموقف الذي قلب حياتها راسا على عقب ، فقـد راح يلقي في اذنيها كلمات الحب والهيام ، وما ان احست ان الموقف سيفلت من يدها وقد تملكتهـا نشوة كادت ان تدفع بها بين احضانه ونسيت كل شيء الا صوت نداء يصرخ في اعماقها ... في هـــذه اللحظة بالذات سمع صوت اقدام زوجها فوق الدرج ، فعادتاليها حواسها المستثيرة، وفي لمح البصر تغلبت على عواطفهـا واخذت سمتها الطبيعي ...

* * *

لماذا تطورتالعلاقة بينهما بعد ذلك

اليوم لا تدري ولا تدري ايضـا اذا اتيحت لها مثل هذه الفرصة هل كانت تستعيد الذي فعلت أو تحجم عنه انها نستسلم للحظتها ولا تفكـر فيما يكون بعد ذلك وهذا ــ للأسف ــ عيبها الذي نشلت في التغلب عليه مهما قاومت!.

وكان زوجها يعلم فيها هذا الضـعف لذا حرص ان يجنبها الوقوع فيه دون ان يفتئت على حريتها حتى لايتوى فيها هذه الرغبة وهو يعلم ان كـــل ممنوع مرغوب ...

ولم يفت عليه الاستلطاف الذيبينها وبين صديقه . وخوفا من ان تحـدث كارثة احس ببوادرها في عيني زوجته، ولم يكن يخفى عليه ما تدبره ــ مهما فعلت ــ اذا به يترك كبرياءه جانبا ، ويعاتبها عتابا قاسيا لحركات بدرت منها ومن عاطف ــ لم تخفعن عينيه، وطلب منها في حزم ولكن في رفق ، ان تتحكم في عواطفهـــا ، ولا تندفع وراء نزواتها ، وسيقطع هو علاقته نهـائيا بهـــذا الذي كان يعتبره يوما أعـز اصدقائه ..

وشـــعرت بكلمات زوجها كطعنة نصلفي احشائها ، خصوصا وهيتتسم له انه لايوجد بينها وبينه أي شيء تلام عليه ! كانت تعلم انها تكذب وان ثمـرة خطيئتها تتلوى في احشائها تنهشـها متلذذة بامتصاص دمائها ، وان الامـر قد خرج نهائيا من يدها ، ولم يبق غير ايام لتفاجــأ بجريمتهـا ماثلة امام عينيها ! ..

نعم انها قطعت كل صلة لها به بعد هذا الحادث ولكن شعور موجع كئيب لازمها لعظم الذنب الذي ارتكبته في حق نفسها وزوجهـا وودت لو تطعن

الجنين وترديه ميتا قبل ان يخرج الى الوجود ، وتدفن معه عارها وسرها الذى سيصبح بعد ولادته علما على رءوس الاشهاد ! ..

شيئا واحدا كان يريح افكارها المكتئبة ويومض شعاعا من الامل فى نفسها لايجعلها تتأرجح بين الشك واليقين :

لماذا لا يكون المولود ابن زوجها ؟.. الا يمكن ان يكون حملها جاء نتيجة حالتها النفسية وهى تحس أنها محبوبة مشتهاة من رجلين فى آن واحد ؟ ..

لكن القدر كان يدخر لها فى جعبته عقابا ظنت انها تستطيع الافلات منه ، واذا المولود صورة طبق الاصل من عاطف ...

رباه ! أى مصيبة حلت بها ؟ أى كارثة ستحطم حياتها ! أى عار سيلحق بأيامها ... لقد فقدت كل شيء .. فقدت نفسها اولا ، وستفقد زوجها وبيتهاوالحياة الناعمة والابنة الجميلة.. لقد تجسمت لها شناعة الموقف بعدما انجلت الغاشية واحست انها تسقط من شاهق الى الحضيض حيث الخزى والعار والشنار ...

وكرهت الطفل ، كرهته من كل قلبها ! .. كانت ترتعد فى جزع كلما تدنوه اليها لترضعه ، فتحسه ثعبانا ينهش ثديها .. ! وتود لو تصرخ من اعماقها ان يبعدوه عنها . والناس اليها مهنئين بعد ما انقطع الامل فى انجابها مرة ثانية ! ..

انها تحاول ان تتماسك وتقبل عليه كيلا يفتضح أمرها ، رغم ان الأمومة ناضت من قلبها وكأنما لا تربطها بهذا الوليد اى عاطفة ، ففيه يتجسم عارها، وبوجوده يظل كالسيف المسلط على عنقها ...

كانت ترتعد وتتيبس اطرافها كلما رأت زوجها يلاطفه ويقبله ويتفحصه بعينيه . فهو اول من يدرك الشبه الذى بينه وبين عاطف ، بعد الشك الذى اصابه من علاقتهما ..

ترى هل يفاجئها يوما بهذا الاتهام ؟. لا تظن ... فزوجها عاقل حليم ، ولكنها لم تجربه فى مثل هذا الموقف .... ونما الطفل ، جميلا ذكيا لطيفا .. يتدفق صحة ، ومع نموه كان ينمو هلعها ومع كل حركة والتفاتة منه كان رعبها يتضخم ... فنظرات عينيه وتكوين جسمه، صورة لاتخطئها العين لشريكها فى الجريمة ...

ألم يلحظ ذلك زوجها ؟! ربما نعم ، وربما ايضا لا ، فلم تظهر عليه اى بادرة تنم عن شكه ... ولم يفاتحها فى أمر عاطف منذ ذلك اليوم يوم العتاب ...

كان صوت ضميرها يؤرقها .... ! كان لايتركها لحظة هادئة هذا الضمير . كان عذابه أشد من عذاب الجحيم اذا كان هناك حقا جحيم ....

وكلما حاولت ان تختلق لنفسها عذرا ، كلما حاولت ان تنفى بنوة الطفل للآخر ... تجد دليلا يؤكد عدم انتمائه للزوج . فينهار كل أمل للصلح مع نفسها ...

وساءت صحتها، وانتابتها الهواجس، وصارت تلازمها فى ليلها واثناء النهار ،

وقررت فى النهاية ان تهمل الطفل حتى تسوء صحته ويموت ...

لكنها لم تستطع . كان قلبها ينزف وهى تراه يمد لها يدا صغيرة بضة متلهفة الى صدرها .. فتقبل عليه تلقمه ثديها ودموعها تنهار غزيرة فوق الوجه الملائكى ، وتذوب كراهتها له ويحل محلها اشفاق مرير لوضعه منها ...

وثارت كوامن الاثرة فى نفسها بعد عذاب اوشك ان يصل بها الى الجنون . وراحت تجادل نفسها :

كيف يمكن ان تستسلم لهذه الافكار المميتة ؟ . كيف ترضى بهذا العذاب الذى يضنيها ويحيل حياتها الى شقاء ؟ . اهى المراة الوحيدة فى ساعة ضعف؟! كم من امراة ارتكبت اضعاف اضعاف مافعلته ويعشن هادئات ناعمات يتمتعن بحب أزواجهن وثقتهم ! . لماذا تترك نفسها عرضة للانهيار وقد انقطعت عن هذا الرجل منذ اليوم الذىحلفت لزوجها الا تراه ، وعاشت عيشة الفضيلة والاخلاص لزوجها ؟ .. لماذا لماذا !؟

ويجيبها صوت من اعماقها مزمجرا هازئا :

اذا سقطت المراة مرة واحدة فى حياتها لا يمكنها ان تعيش عيشة الفضيلة بعد ذلك ابدا .. لا تخدعى نفسك ...

هراء . لقد سقطت وتابت ، واصبحت منذ ذلك اليوم امراة اخرى ، حتى انها تنظر الى ما بدر منها وتعجب كان انسانة ثانيةغيرها هى التى فعلته لاتمت لها بصلة ....

وفجأة مرض الطفل ، أصيب بالتهاب رئوى حاد ، وكتب له الطبيب عديدا من الادوية ، بعضها كل ثلاث ساعات ، والبعض الآخر كل ست ساعات ، وشدد فى المحافظة على المواعيد ، نهارا وليلا ، فالخطر كامن فى التهاون او الاهمال .

وبدات فى تنفيذ التعليمات بدقة .. ونسيت احقادها كلها ، ومر النهار وهى على حال من القلق والتوجس والانفعال، وهى تستمع لحشرجة انفاس الطفل تتردد فى انحاء الحجرة بينما انينه يأتيها خافتا ، وقد التهبت وجنتاه بحمرة قانية، واسبل جفنيه فى استسلام ضعيف ...

وزحفت جيوش الظلام تطبق على الحجرة الصغيرة ، والطفل المستسلم والأم الساهرة بجانبه ، وانتشر السكون فى البيت كله : فالأب يرقد فى الحجرة المجاورة مع ابنته ، والخادم فى المطبخ ...

ومر الوقت ثقيلا بطيئا ، وهى جالسة بجوار الفراش ويدها على خدها ، وعيناها على وجه الطفل فى شرود ساهم .

وسبحت افكارها بعيدا ، وغامت عيناها فى تيه من الخيالات والاحداث ، واختلطت عليها المرئيات ، واذا بالطفل يتمثل لها رجلا ، واذا ماحدث بينها وبين هذا الرجل يتراءى امامها فى صورة واضحة ليس فيها لبس ..

وتتململ فى جلستها ، والحوادث

تتراءى لها كشريط سينمائى ، وتنتفض بذور الشر الكامنة فى اعماقها وتصيح بها :

اتركى الطفل دون دواء . سيموت ميتة طبيعية . لن يلحق بك اى شك . . . انها فرصتك الوحيدة . . .

وتصاب برعشة حادة ، وتفتح عينيها مذعورة لتصطدم بتباشير الفجر تأخذ طريقها الى الحجرة الصغيرة الساكنة من خلف زجاج النافذة . . وطار عصفور واصطدم بالزجاج المغلق ثم ولى هاربا فى ذعر . وقامت كالملسوعة تنظر فى ساعتها ثم الى وليدها ، وشهقت شهقة مروعة .

كان جثة هامدة . . . .

مات الصغير قبل ان تسعفه بالدواء ! . .

وانكفات على الجثة الصغيرة تبكى بحرقة . . . وسياط نار تلسع قلبها ، وانتابها اغماء حينما خلصوه من بين يديها عنوة ليذهبوا به الى مقره الاخير . . .

وحينما افاقت احست كأن شيئا من البرودة او الهدوء العلوى يسرى فى اجزاء جسمها جميعا ، ولم تستطع الى البكاء سبيلا ، كأنما انسكبت آلامها كلها وازيح عبء ثقيل عن كاهلها ، وشعرت بخفة وانطلاق . . !

* * *

وحار الناس فى امرها ، لما يرونه فيها من رزانة وعقل وعزوف عن البكاء لا يتفق مع تحرقها السنين الطوال الى طفل ومن يدرى ربما لا تنجب سواه ، وكانوا يهزون رءوسهم متعجبين لقدرتها على ضبط اعصابها !

ولا تعدم متحذلقا من المغرمين باستنباط الحكم من الاحداث الجارية ، يهز راسه هزة العايم وهو يقول :

— حقا ليست العبرة بالصلاة والصوم ، فهذه المراة لا تصلى ولا تصوم ، ولكن لاشك ان جذوة الايمان التى فى سريرتها حية متوقدة ، والا لما استطاعت ان تجد بهذه السرعة العزاء والسلوان . . .

وتهز هى راسها وصوت جهاز راديو بعيد يطن فى اذنها عبر الشارع . . .

ويمضي كل شيء فى طريقه المرسوم

من الأدب البولندى

إنى أقتل نفسى

بقلم الكاتب البولندى المعاصر : جوليان كوليك

ترجمة : حسين القبانى

جوليان كوليك مشهور فى بولندا كصحفى واديب . وقد تخرج فى جامعة كراكا ومتخصصا فى فقة اللغة البولندية . ثم اشتغل بالصحافة والادب معا بعد الحرب العالمية الثانية وقد ولد فى قرية صغيرة بجوار مدينة ساندر بيرز لأب من صغار الملاك . وقد صدرت له مجموعتان من القصص القصيرة : ((ممرات فى الشوارع)) و ((الجروح)) .

لسوف ادمر اليوم قنبلة زيتا . سافعل هذه الليلة عندما أبدا دورتى التفتيشية فى معمل الجيش . سابلغ اليوم ذروة القدرة على التضحية . وقد ادركت هذه الحقيقة عندما رنوت الى اغصان الشجر الرقيقة الآسية ، ولست ادرى لماذا ادركت هذه الحقيقة فى لحظة رؤيتى للشجر .

انى اسير فى طريق عريض بالحديقة العامة . وانى لاشعر فى عمق ببرودة الهواء وان الناس ليمرون بى . انهم لا يحفلون بأمرى : انهم لايعرفون اننى ــ هذا الرجل العادى المظهر بمعطف المطر الرمادى والاذنين الكبيرتين والشامة على الخد ــ قادر على القيام بتضحية ذاتية ضخمة ، ففى هذا المساء سوف ادير المفتاح فى قفل باب الخزانة الحديدية ، وافتحه ، واتناول منها شيئا يشبه بيضة الاوزة الكبيرة : تلك هى قنبلة زيتا . وان المسافة بين دبوس التفجير ومركز الانفجار لا تزيد على ثلاثة ملليمترات . هذه هى المسافة التى قدرها البروفسور لومبارد لدبوس التفجير عندما وضع القنبلة فى كيسها الجلدى . وان قنبلة زيتا لترقد فى كيسها كالطفل بين لفائف الثياب. واليوم سادمر هذا الطفل الفولاذى لانى استطعت اليوم ان ابلغ القدرة على القيام بهذه التضحية العظيمة .. التضحية بالنفس .

ينبغى ان افعل هذا .. ينبغى ان احرر البشرية من هذا الكابوس الرهيب، من هذه القوة المدمرة العنيفة . لماذا يكون لهذا الدبوس الفولاذى الدقيق القدرة على قتل الناس او احيائهم ؟ فطالما ان هذا الدبوس لا يلمس مركز

الانفجار ، فان الشمس تستمر فى سطوعها ، اما اذا لمس المركز ، فان الليل يجثم ، والناس يموتون ،وتتهاوى الاطيار كالشهب . ان قوة قنبلة زيتا على التدمير تفوق بلايين المرات قوة أكبر القنابل الهيدروجينية على التدمير وهى اذا انفجرت ، فالنتيجة لا تكون الموت فحسب ، لأن الموت قوة موازنة للحياة ، يمكن مناقشتها ، ويمكن التنازع معها والمصالحة . اما الموت الناتج من انفجار قنبلة زيتا فهو شىء مجهول. شىء يختلف عن الموت البسيط الذى تعرفه البشرية ، ولهذا يجب البحث عن كلمة اخرى تعبر عنه .

انى أسير فى طرقات الحديقة العامة منتظرا الليل . وعندما ياتى الليل سوف ادمر طفل البروفسور لومبارد الفولاذى » . سوف أفك دبوس التفجير واقذف بالقنبلة فى مستنقع والقى بدبوس التفجير فى نهر بعيد عن المستنقع بخمسة كيلومترات على الاقل. وبهذا لا نلتقى القنبلة والدبوس مرة اخرى قط . وطالما أنهما لا يلتقيان ، فسوف يظل العالم باقيا وسوف أحرق الوثائق الخاصة بتصميمات واسرار صناعة القنبلة ، ثم أسحق بقدمى رمادها . ولن يطول العمر بالبرفسور لومبارد لكى يضع « طفلا فولاذيا » آخر .

سوف ادمر قنبلة زيتا . سأفعل هذا من أجل الأشجار والحيوانات والأطيار والناس والحشرات، سأفعل هذا من أجلى ومن أجل هذا الشاب ذى الشعر الاسود الجالس على مقعد مخفى بين الشجر فى انتظار فتاته . ومن اجلك ايها الجزع المتآكل ومن أجل ما فيك من حشرات . ومن اجلك انت أيتها الدودة السوداء الناخرة فى باطن الارض .

اننى لاشعر وانا بين كل هؤلاء الناس والاشجار بعزلة ثقيلة هائلة . فانا لا استطيع أن أخبر احدا بما أنوى ان افعله ، لأنى أخشى من أنهم قد يمنعوننى من القيام بتدمير القنبلة . ولكن التضحية الكبرى ، مع هذا ، تحتاج الى عزلة كبرى . ولو انى تحدثت عنها لأشركت غيرى فيها ، ولأصغرت من شأنها . ولكن هذا الشعور بالعزلة لا يضعف عزيمتى .

ان السماء تنحسر عن الطرف البعيد من الطريق، وهذا يعنى أن المساء يوشك أن يحل . وانى لأترك الحديقة. ولسوف أمضى اليوم الى المعمل . سآخذ الطريق الذى يبدو أبيض بين المنازل الصغيرة والأراضى المتقاطعة . وانى لأسمع عن يسارى شخصا يغنى وعن يمينى أسمع النسائم الرقيقة وهى تداعب الأغصان الجافة . وبعد لحظة سيتوقف الغناء وحسيس الرياح معا. وسيخيم الصمت على كل شىء .

ووصلت بعد غابة الشربين الصغيرة الى حاجز المراقبة الأول .انهم يسلطون على حزمة من الضوء . لقد تعرفوا على. ان الحراس يعرفون رئيس مساعدى المعمل تمام المعرفة انه انسان هادىء وادع بأذنين كبيرتين وشامة على الخد. ومررت من حاجز المراقبة الأول . وان الطريق ليبدو مصقولا كسطح مائدة . وان لمعمل الجيش طرقات جيدة التمهيد تفضى اليه . وعند خميلة الاشجار الكثيفة الاوراق وصلت الى الحاجز الثانى . وتعرفوا على بثلاثة حزم

من الانوار الكاشفة تماما كما فعلوا مع طائر استيقظ فى الشجرة وراح يزقزق .

وتأملوننى بامعان رغم أنهم جميعا يعرفوننى ، ورغم أنهم يعرفون اننى رئيس مساعدى المعمل الذى من حقه ان يعرف كل اسراره . وكان الطريق ، بعد الحاجز الثانى ، يمضى تحت الارض . وها أنا أسير الآن فى داخل نفق مضاء . وان الجدران الجانبية للنفق لزاخرة بعدد لا يحصى من الفتحات الصغيرة التى يطل منها الحراس برءوسهم . ومن ثم فان على الانسان ان يسير بهدوء وثبات داخل النفق ، وخير شىء له ان يصغر

وفى فتحة صغيرة باهرة الاضاءة ، ابرزت اوراق تحقيق الشخصية ، ثم دخلت فى نفق ضيق . وفتح لى حارس طويل القامة بابا حديديا . وها أنا الآن فى غرفة الانتظار بالمعمل . اننى لها بمفردى . ولهذا بدأت العمل . اننى انحنى على الدرج السرى الذى يحتوى على المفاتيح ، ولا يعرف بأمر هذا الدرج غير البروفسور ، ومدير المعمل ، وانا .

وتناولت المفتاح ، ونزعت من الغرفة الثالثة بالمعمل جهاز الانذار المتصل بالخزانة الحديدية . وفتحت درجا وأخذت منه قنبلة زيتا الراقدة فى كيسها الجلدى . ان زيتا باردة ملساء وان فى مقدورى ان ادمرها هنا .. فى المعمل . يمكننى ان احللها تماما ولكن هذا يستغرق وقتا طويلا . ولسوف يحضر مساعدو المعمل الثلاثة المرءوسين لى بعد لحظات . ولهذا اخفيت القنبلة وتصميماتها فى جيب كبير بمعطف المطر

الذى حملته على ذراعى . واتصلت تليفونيا بالبروفسور لومبارد عن طريق رقم سرى لا يعرفه احد غيرى وغير مدير المعمل . وقلت له اننى نسيت احضار ادوات هامة من المخزن ويجب الصعود لاحضارها بنفسى فورا .

وفى لحظة او اثنتين كنت فى طريق العودة . لم يحتجزنى احد فى حواجز المراقبة ذلك ان التعليمات صدرت الى رئيس الحرس بأن الأمر يتعلق باحضار ادوات هامة الى المعمل بسرعة .

ومررت من آخر حاجز للمراقبة . ولم يعد هناك مزيد من الأنوار الكاشفة وانى من ثم لانعطف عن الطريق العام وامضى عبر ارض منبسطة رخوة ، فى اتجاه خمائل الحور لا شك ان هذا حقل معد للزراعة . وان الليل لمتكاثف ، والجو بارد . وانى لارتدى معطفى . انها معى القنبلة ، وفى كل خطوة اقطعها اشعر بها تحتك فى ضلوعى . وبين الحين والآخر ادس يدى الى جيبى لاطمئن على وجودها . انها موجودة .. موجودة ، وانى لألمسها بيدى . وانها لباردة ملساء وقد عنى البروفسور لومبارد بصقلها وتلميعها ، وبعث فيها بريق مرآة رهيبة ملتوية . وتحت سبابتى كنت احس براس دبوس التفجير . وان كل ماعلى ان افعله هو ازاحة حاجز الأمان ، والضغط على راس الدبوس الصغير ، وعندئذ لايبقى من العالم الا هباء تذروه الرياح . وايا كان امر هذا الهباء ، فانه سيكون شيئا لا يرى ولا يعرف امره . ولكن هذا لن يحدث ابدا فبعد قليل سالقى بقنبلة زيتا الى المستنقع ، سالقيها بكل قواى حتى تسقط فى وسطه تماما حيث يكون الطين شديد

الكثافة ، فتغوص فيه بسرعة وسهولة اكثر . وسـوف القى بدبوس التفجير فى النهر . فمن ذا يمكن ان يعثر على دبوس لا يزيد فى السمك عن ابرة الا قليلا .

***

وبعدئذ يجب ان اختبىء. يجب ان أعثر على مخبأ أمين ، لأنهم سيبحثون عنى بكل تأكيد . ويمكننى القول ان جميع القوات البوليسية ، ولا سيما الادارات العسكرية وقواتها، والمخابرات السرية ، سـوف تستدعى للبحث عنى . واستطيع من الآن ان ارى وان اسمع الاوامر التى ستصدر ، والتعليمات التى ستذاع . ما اشد زعيقهم وما افظع همساتهم .. كل هذا للعثور على . ولكن التضحية العظمى التى وطنت نفسى عليها تجعلنى لا احفل بمثل هذه الاشياء . بل ان التضحية العظمى تستلزم هذه الاشياء . ولكن مع هذا فان التضحية العظمى لا تحتم على ــ بعد تدمير القنبلة ــ أن اضع عن نفسى طواعية واختيار بين أيدى الذين صنعوها . اننى لا أستطيع ان امنحهم هذه البهجة لا استطيع ان امنح هؤلاء الاشرار اى احساس بالرضا . ومن ثم يجب على ــ بعـد أن ادمر طفـل البروفسور ــ لومبارد الفولاذى ، ان اختبىء بعيدا . وان الناس الذين من أجلهم أقدم هذه التضحية ، سوف يحموننى . ولسوف ينصرم وقت طويل قبل ان يعرفوا شيئا عن مغامرتى ، قبل أن يدركوا مدى النفع الذى يعود عليهم منها ، لسوف يتوقفون ليفكروا فى الامر . سوف يواجهون الشـك والريبة .. ولعلهم بعدذلك يستجمعون الشجاعة او يخضعون للجبن ، ومن يدرى .. فربما أعدوا انفسهم لحمايتى بعد فوات الاوان ولهذا يجب أن أبحث عن مخبأ أمين . ولكن اذا اقتفوا آثارى، واذا سمعت وقـع خطواتهم وصلصلة أحزمتهم الحاملة لاسلحتهم ، وحفيف ملابسهم الرسمية، وهرير كلابهم المرهفة المدربة هل أخرج من مخبئى رافعا يدى ؟ هل تضحيتى الذاتية تستلزم أن أقاوم ببسالة ، او اتجنب المقاومة ببسالة أيضا ، هل اقاوم .. وأقاوم ببسالة؟ ولكن تضحيتى ترتبط بالمقاومة الحكيمة التى تحتم على فى ظروف معينة ان اختبىء عن العدو ، وأن أخدع العدو . ولهـذا فلن أخرج من مخبئى لأواجه البوليس ويداى مرفوعتان . وانما ــ على الاصح ــ سوف اثب ــ فى اللحظة التى يروننى فيها ــ الى عنق أقرب رجال البوليس الى .. واذا كان لدى مسدس فيجب ان اقتل عـددا كبيرا منهم قبل أن أموت . واذا كان لدى مدفع رشاش فيجب ان اقتل عشرات منهم وانا فى مخبئى .

ان الارض التى اسير عليها لم تعد الآن لينة أو رخوة، وانما صلبة ومليئة بعقود العشب .. اذن فقد اقتربت ولا شك من خميلة اشجار الحور . واعتقد انى ارى رقعة سوداء امامى . نعم ..لاشك أن هذه هى خميلة اشجار الحور . واعتقد انى ارى رقعة سوداء امامى . نعم .. لاشك ان هـذه هى خميلة أشجار الحور . وان المستنقع يقع وراءها مباشرة . وان هذه العقود العشبية لتزداد وتزداد كلما تقدمت. وان خطواتى لتتعثر وتقصر . وفى بعض الاحيان تنزلق قدمى الى ابعد مما أتوقع وعندئذ اضطر الى التوقف فجأة ،

وعندئذ تصطدم قنبلة زيتا بضلوعي في عنف . انها تلح دائما في تذكيري بوجودها ، واني لأدس يدي بسرعة في جيب معطفي آه .. انها هناك .. هناك وانها ليست باردة جدا كما كانت بل صارت اكثر دفئا . وان شكلها لم يعد قبيحا جدا .ولكنها وحش يهددنا بشيء لايمكن ان نسميه الموت أو السكون .. او باية كلمة أخرى من قاموسنا العصري . انه وحش رهيب نائم .

وازدادت الرقعة السوداء سوادا . وان خميلة الحور لتمسى قريبة جدا . وان السكون ليشمل كل شيء

واني لأستطيع الآن ان اسمع همهمة الاشجار الرقيقة . انني الآن في قلب خميلة اشجار الحور . واني لأسير في ممر ضيق ، وان الاشجار لتحوطني بعودة . انها تهمس لي بشيء ان قنبلة زيتا يجب ان تدمر حتى يمكن لاشجار الحور ان تعيش . وعادت الارض بعد خميلة الحور مرة اخرى . ولكنها لم تكن رخاوة الارض المعدة للزراعة، وانما رخاوة المطاط انني أشعر بالمستنقع .. يمكنني ان اسمعه . ان له أيضا صوته، وان صوت المستنقع ليشبه انفاس الرجل المحتضر . ويمكنني أن أستمر في السير ، لأن قدمي لا تغوصان بعد. وانا اعرف أن في مقدوري الاستمرار في السير حتى أصل الى اول صف من صفوف نبات الغاب

ومن ثم لم يبق أمامي غير لحظات وأن الارض تزداد رخاوة بعد كل خطوة . ها أنا قد وصلت الى المكان المناسب . الى أول صف في نبات الغاب ، وأسرعت بوضع يدي في جيب مصطفى ان القنبلة دافئة . واني لأضع معدنها الدافيء الاملس في كفي مدة طويلة. واني أخيرا أخرج زيتا من جيبي بحذر . انها الان في كفي . وبعد لحظة سيتم كل شيء . بعد لحظة سينجو العالم من دمار رهيب، ولكن العالم لا يعرف شيئا من ذلك . ولكن العالم هادىء ساكن ، لا يحفل بشيء . فهل يمكن أن يتم عمل عظيم كهذا ، في مثل سكون كبير كهذا ؟ اني أضع ابهام وسبابة يدي اليمنى على صمام الامان . ولكنني أسمع وأنا أفعل هذا ، حفيفا مرتفعا .واني لأمسك بصمام الامان وأرفعه . انني مطارد لا .. انها الرياح فقط تجري على اطراف الغاب. ولكن ..اذا كانت هناك مطاردة حقا .. اذا كان الكلاب تشق طريقها ورائي.. وتبدأ في النباح عند حافة المستنقع اذ فوجئت بظهور أول رجل بوليس أمامي .. يمكنني عندئذ أن أهددهم بالقنبلة .. يمكنني ان أصيح بهم «توقفوا .. ان قنبلة زيتا في يدي وشريط الامان مرفوع . ان دبوس التفجير على مسافة مليمتر واحد من مركز الانفجار اذا تقدمتم خطوة واحدة ، لسوف أضغط على الدبوس . ولا جدوى من اطلاق النار علي ، لأن سقوط القنبلة من يدي سيهزها بعنف فتنفجر . وسوف تموتون » .

ولكنني لن أكون الشخص الوحيد الذي سيموت عندئذ . ولن يكونوا هم الاشخاص الوحيدين الذين سيموتون.. سوف يموت معنا ملايين الابرياء . ان هذه الافكار لا ينبغي أن تدور برأس رجل قرر أن يضحي بنفسه . ومع ذلك فان رجال البوليس لن يتقدموا خطوة واحدة اذا هددتهم بالقنبلة . انهم جبناء . ولن يحدث شيء من ثم للعالم . وشجاعتي التي ينبغي أن ترتفع الى مستوى تضحيتي لن ينالها شيء أيضا ،

فانا لا أهدد رجال البوليس لانهم خائنون ، وانما لانهم فى خدمة أولئك الذين يصنعون القنبلة ... او اولئك الذين أكرههم . ولهذا ينبغى أن يدخل التهديد والكراهية فى برنامج التضحية انى لأتشبث بهذه الفكرة واعتبرها رائعة أصيلة . لأنى أستطيع بها أن أسيطر على صناع قنبلة زيتا ومساعديهم وأخضعهم لارادتى ، وأفعل بهم ما أشاء. وهذه تضحية حكيمة يمكننى أن آمرهم بالمضى الى هاوية بين التلال حيث أتركهم هناك ليموتوا جوعا.. يمكننى أن أرسل البروفسور لومبارد هناك ، ومدير المعمل أيضا ، شكرا لهذا الحفيف فى الغاب لقد أثار تغييرا كبيرا فى خواطرى.

انى لن أدمر قنبلة زيتا . وليتنى احضرت معى كيسها الجلدى أيضا عندما ظفرت بها . لأنى فى هذه الحالة كنت سأجد شيئا أحفظها فيه لسوف أحتفظ بزيتا وأكرسها لأغراض الخير . وانى لمندهش لاغفالى الدلالة العظمى لما تنطوى عليه القنبلة من خدمات من هذا النوع .

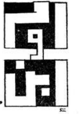
لقد أعمتنى التضحية الذاتية عن معرفة أى شىء الا أن هذه القنبلة هى منبع شر خطير . أما الحكمة التى أقرنها الآن مع التضحية ، فانها تجعلنى أنظر الى قنبلة زيتا من زوايا مختلفة . فبمساعدة زيتا استطيع انأحرر العالم من أخطار زيتا . فعن طريق التهديد بها أستطيع أن آمر مديرى المعامل التى تصنعها ان تدمر كل انتاج للقنابل المماثلة . استطيع أن أقلم مخالب البروفسور لومبارد وجميع الاخصائيين فى صناعة هذا اللون من القنابل ومساعديهم استطيع أن أفعل هذا عندما أجعل حافة دبوس التدمير على مسافة ملليمتر من مركز الانفجار . ان الخوف من انفجارها سيرغمهم على الخضوع والامتثال لأوامرى ان فى مقدورى ـ وزيتا معى أن أحطم كل رجل شرير . أستطيع بزيتا أن أفعل الكثير.. أن أفعل كل شىء تقريبا . ولماذا أقول « تقريبا » . انى فى وضع لا يبيح لى فقط أن أقوم باصلاحات عامة ، وانما يمكننى أن أتدخل فى حياة كل انسان على وجه الارض وأغير من تفكيره . ويمكننى اذا شئت أن أجعل أغنى التجار يسلمنى مخازنه . يمكننى اذا شئت أن أجعل المسز اميليا أن تهجر زوجها الذى تحبه وتنحنى أمامه ثم تمضى مشردة فى العالم . يمكننى اذا شئت أن أجعل ابنة مدير المعمل تتقدم نفسها الى عارية . يمكننى أن أصدر أوامرى الى عميد العلوم لكى يحلق لحيته ويتسلق احدى أشجار حديقة عامة فى وضح النهار . وانى لأتخيل المنظر وأضحك ـ منظر عميد العلوم وهو يتسلق شجرة الى قمتها بخفة القرد . انى أرى الآن الناس يتوافدون من جميع أنحاء العالم لينحنوا أمامى ويقدمون لى مختلف الاشياء ويمنحوننى الالقاب أحدهم يعطينى فيللا على الشاطىء ، وآخر يرجوننى لاقبل درجة الدكتوراه فى جميع العلوم ، وآخر يشرح ـ بكل تواضع ـ أن الملكية هى خير نظم الحكم واننى خير من يصلح لان يكون ملكا لاننى رائع المنظر ممتاز فى الذكاء . وان بعضهم يقولون لى اننى اتمتع باذنين جميلتين.

اننى احاول ان انفض عنى هذه الافكار . لأنى اذا كنت اريد العمل من اجل الخير ، فيجب أن أعد نفسى لتدمير

الشر · وهذا مايدفعني للاحتفاظ بزيتا · فلكي ادمر الشر يجب أن أقسم الناس الى فئتين : الاشرار والاخيار ·

انى أستطيع هذا · ولسوف أكون الفيصل الاعلى · ولكن لمـــاذا اتحدث بصيغة المستقبل ؟ اننى الآن الفيصل الأعلى · فليس هناك من هو أعلى شأنا لشد ما صارت جميـلة ؟ وما أعـذب ملمسها وألطفه ؟ وما أبهى سطوعها ؟ اننى أضم زيتا الى قلبى ·· أقبلها ·

ماهذا الذى أقول ؟ · وما هذا الذى أفعل ؟ ولكن لماذا أسأل ؟ اننى أفعل وانجز ماينبغى أن يتم · ان هذا كله ينطوى تحت برنامجى الانسانى الضخم للتضحية · اننى لا أستطيع أن أتردد· بل سأكون مضحكا اذا ترددت · اننى قيصر·· نابليون·· الاسكندر الاكبر ، اننى الفيصل الأعلى ·· اننى الـ ·· بل أكثر من الـ · اننى أهتف « أنا اله » ان الاشجار تعرف هـذا الآن أنها تنحنى امامى الىالارض. لكن المخلوقات الآدمية لاتعرف هذا بعد · ولهذا فانى أعود مسرعا الى المدينة من أقصر طريق ·· الى الحكم ·· سوف أحكم ·· ان جميع البشر أشرار ، ومن ثم يجب أن يدمروا جميعـا ·· أنا فقط الرجـل الفاضل أنا فقط الانسان الفاضل لأنى أمتلك زيتا ؟



قصة من اليابان

بقلم : جوران هياو

ترجمة : خديجة برادة

استدعى المدرس المسئول عن الفصول الصغرى فى المدرسة المتوسطة المجاورة للقاعدة الامريكية فى اتوجى الى مركز الشرطة .

ودخل الضابط القضائى الحجرة التى كان ينتظر بها المدرس وبصحبته ضابطة من البوليس النسائى ، لاحظ المدرس ان عينيها متوقدتان .

« آسف لازعاجك » قالها الضابط القضائى ثم قدم ضابطة البوليس النسائى قائلا : « انها المسئولة عن مكتب رعاية الاحداث هنا » . ثم جلس فى المقعد المقابل لمقعد المدرس الذى كان منشغلا وقتئذ يتامل زهور الميكانت تلهو بها الرياح .

« ان مركز الشرطة هنا أنشىء أخيرا وليس عندنا قسم للأحداث لذلك فقد طلبت منها ان تساعدنا .. اننا لانريد ان نزيد من خطورة الامر اكثر مما يجب ، « .. فهون عليك » .

وقالت الضابطة بدورها . اننا كما قال حضرة الضابط لا نريد ان نثير اشكالا حول هذا الموضوع انها مجرد مصادفة سيئة ان كان للجيش الامريكى ممتلكات فى ذلك المخبأ المهجور . ولكن الفتى اخذ كذلك كتلة خشبية من مخلفات البحرية . غير ان مجرد اشعال النار فى مخبأ مهجور لايمكن اعتباره جريمة حريق عمد .. ان كل ما نطلبه هو تفسير .. اى تفسير .. لعبة تقليد أصحاب العصابات مثلا . اشعال نار معسكر أو أى شىء .. اننا نريد فقط أن نستوفى السجلات .. لكن الفتى لايريد ان يتكلم وقد اوقعنا ذلك فى حيرة .

وقال الضابط .. اننا لانريد ان نحتجزه هنا أكثر من ذلك لكننا أيضا لا نستطيع أن نفرج عنه لاننا لم نتمكن من استيفاء الأوراق وقد استدعيناك لانك مدرس الفصل ويمكنك ان تقول لنا شيئا عما تعلمه عن شخصيته وحياته العائلية الى آخره .. فنتمكن بذلك من كتابة تقرير على اساس ماتدلى به انت من معلومات .

وانحنى المدرس فى ادب وقال : «لابد لى ان أشكركم لما تكبدتم من مشاق فى سبيل الغلام » .

وفتحت الضابطة ملفا وقالت :«اسمح

لي اذن ان نبدأ - تارو يزومي ستة عشر عاما وشهرين . ولد في سابان . فصل «ب» في السنة الاولى من القسم المتوسط بمدرسة سانت جوزيف . . حاصل على منحة ادامز . والده اخصائي في الارصاد الجوية وكان يعمل في المكتب الاداري الياباني في سابان مات في عام ١٩٤٠ .. الام تعمل في شركة « نانيو كوهاتسو » والمرجح انها ماتت اثناء الغزو الامريكي للجزيرة - اما عن الولد نفسه فكيف تعلل بقاءه في السنة الاولى ؟ لاشك انه متأخر في الدراسة بالنسبة لسنه » .

واجاب المدرس بتحفظ « لقد أخذ الولد مع مجموعة من يتامى الحرب الى هاواي في السنة الأخيرة منها . وقد اهتم بهم بعض الافراد فبعثوا بتارو ايزومي الى مدرسة في مستوى مدارسنا الابتدائية وقد مكث هناك طيلة ست سنوات ثم أعيد الى اليابان والتحق بمدرسة سانت جوزيف.وكان المفروض أن ينضم الى الفصل الثالث لكن معلوماته في اللغة اليابانية مازالت ضعيفة » .

« وما هي منحة ادامز ؟ » .

« انها في الحقيقة ليست منحة ولكننا نسميها كذلك . فقد كان ادامز ضابطا من مخابرات النازي وكان مسئولا عن يتامى الحرب في سابان . وقد اختار خمسة صبية ليتعلموا على نفقته الخاصة بشرط أن يدرسوا اللاهوت وفي مدرستنا منهم ثلاثة » .

« لقد مات والده وهو في الرابعة ومن ثم فهو لايكاد يذكره . ولكن ماذا عن امه ؟ الا تستطيع ان تذكر لنا شيئا عنها ؟ » .

« لقد كانت مثقفة تخرجت في جامعة طوكيو النسائية ، ثم اصبحت مسئولة عن العاملات المشتغلات بالنوادي والمحال التي كانت تديرها الشركة . ثم التحقت فيها بعد بالجيش واصبحت المديرة المسئولة عن احد مراكز الترفيه عن الضباط المسمى « ذي واترى مون » لقد كان جميلة جدا مما جعلها غير محبوبة من النساء » .

وقالت ضابطة البوليس النسائي في استنكار « ذي واترى مون ؟! » هل كان الفتى يمضي وقتا طويلا هناك ؟ » .

لا .. فانها كما سبق ان ذكرت كانت فائقة الحسن لديها الكثير مما يشغلها ومن ثم فهي لم تكن لتستطيع ان ترعاه فعهدت به الى احد رهبان « كاناكا » كان يقيم في الجزيرة منذ ان كانت تحت حكم الالمان .

« فالولد اذن لم يقع تحت اى مؤثر ضار ؟ » .

« نعم .. فانه يجهل حتى تلك الاشياء التي يعرفها كل ولد في سنه . فهو مثلا لم ير فيلما سينمائيا قط وهو يجيد الكتابة ولكنه كان يحيا حياة متزمتة بدرجة غير عادية وكان ذلك كثيرا ما يقلقني عليه » .

ونظرت الضابطة الى اوراقها وقالت:

« ارى انه منح مائة درجة في السلوك ولكني اشك في انك تعلم اننا بالاضافة الى هذه الحادثة قد تلقينا تقريرات أخرى عن الغلام وهي لاتؤيد كمال سلوكه ففي ليلة ٣ مايو مثلا ارتدى الفتى ملابس فتاة «فستانا» بحريا وخمارا أحمر . وكان يبيع الورد في « الجنزا » وقد امسكت به احدى زميلاتي وحذرته . ثم

وقف فى نفس هذا الحى ومعه سيارة أجرة امام المعسكر فى انتظار الجنود الذاهبين الى كوريا ليقلهم الى طوكيو ٠ وكان يبدو كما لو كان قوادا ٠ وبعد ذلك وجد مخمورا يترنح من شدة السكر ـ وهاك تقرير آخر ٠٠ وجد متجولا فى محطة اريا على شريط ساجامى فى الساعة السادسة من صباح يوم ٨ اكتوبر وانقذ فى الوقت المناسب من الموت تحت عجلات قطار الصباح ٠

ذكرت هذه الوقائع المشينة فتبعها سكون لا يقطعه الا عصف الرياح فى العشب الجاف واخيرا حاولت الضابطة ان تسرى عن المدرس فقالت : « لقد عرفت الفتى لمدة طويلة وانا واثقة أن وصفك له صحيح الا أنه يبدو أن اخلاقه قد تغيرت اخيرا ٠٠ انه يلبس ملابس فتاة أو ان يسكر أو يقلد القوادين ٠ أو يلعب بالنار فى مكان ممنوع فيه اشعال اى لهب ٠ الحوادث تختلف ولكن اساس كل هذه التصرفات كما يبدو لى واحد ٠ هو التمرد على اى نوع من الحكم او القانون ٠ لعل عقله مريض أو لعل احدى ذكرياته المفزعة تدفعه دون وعى أن يتصرف على هذا النحو ٠ فهل تستطيع أن تذكر لنا شيئا ينير لنا الطريق فى هذا المجال ؟»٠

وطاطا المدرس راسه فى حزن وقال « لست متاكدا ان كان ما ساقوله يفيد التحقيق ولكن الفتى قد مر بتجربة مريرة ٠ فقد حاولت امه ان تقتله اذ وجد مخنوقا بحبل وملقيا تحت شجرة كبيرة على هضبة شيميكاتا ٠ وكان الحبل ملفوفا حول عنقه ثلاث مرات وقد عقد عقدة لا يمكن حلها ٠ كما كان الحبل مغطى بالصابون ليسهل انزلاقه٠ وذلك يشير الى ان الامر كله كان عن عمد وسبق اصرار ٠ لقد غضبت انا وادامز لذلك أشد الغضب مع اننا بالطبع كنا نعلم الدافع الحقيقى ٠ وقد امضينا فترة طويلة فى محاولة اعادته الى الحياة بالتنفس الصناعى ولم نكن متاكدين انه سيعيش حين نقلناه فى سيارة « جيب » الى مستشفى الميدان ٠ ولعلك تعلم ان ثلاثين الفا من اليابانين المدنيين انتحروا فى ذلك الوقت لاعتقادهم انهم سيقتلون على يد الامريكيين على أية حال ٠

كان الاباء والابناء يتقاذفون القنابل اليدوية وألقى البعض بأنفسهم الىالبحر وقد تشابكت ايديهم ولكن كل هذه الجثث عثر عليها متجاورة ولست اعرف حالة اخرى وجدت فيها جثة لطفل وحدها » ٠

قال الضابط :ليقطع الصمت الذى ساد حين لم ترد الضابطة ان تقطعه من جانبها « انها القصة رهيبة ان مثل هذه الحادثة قد تؤثر على نفسية الطفل طوال حياته » ٠

وتململ المدرس فى مقعده وقال : « والآن هل أستطيع أن أرى الفتى ؟ فانى أود ان أوجه اليه بعض الأسئلة »٠

واشارت الضابطة الى باب الى اليسار وقالت « طبعا تفضل من هنا » ٠

جلس تارو على الارض فى الحجرة الصغيرة المظلمة المخصصة للاولاد الموضوعين تحت المراقبة وحين نظر الى السماء من خلال الشباك ٠ ذكره ذلك بباب لقفص طيور واستعاد ايامه الاخيرة فى سايبان ٠

فالضوء الخافت والرائحة الرطبة ولون

السماء يقتطع منه الشباك مربعا صغيرا والسكون الثقيل المطبق وجسمه المكدود · كل ذلك ذكره بالكهف فى سابان· وسقف الكهف مغطى بالحشائش الرطبة تنمو فيه بعض الازهار الصغيرة وعلى السطح بقع بيضاء من روث الطيور ·

كانت فتحة الكهف الى الغرب فكان مظلما رطبا اغلب النهار ولكن حين يأتى المساء تضىء الكهف شمس الغروب وتظهر وجوه الرجال والنساء المختبئين فى ثناياه وكانت هناك فتاة مراهقة نحيلة بارزة العظام تلتقط حبات من الارز المبعثر بين الصخور تمسح الطين بعناية عن كل حبة وتأكلها الواحدة تلو الاخرى وخلفها جندى يدير نظراته فى خبل ويسد رمقه بالحشائش يمضغها فى نهم فيسيل عصيرها الاخضر من جوانب فمه · ولكن هذه المناظر كانت سرعان ما يلفها الظلام فتختفى وهكذا يمر يوم آخر ·

وقال تارو : « لقد حان وقت احضار الماء » ·

لقد كان ينتظر هذه اللحظة منذ ان دخل الكهف مع امه· كان يجد لذة كبرى فى ان يكون بجوارها طوال اليوم · وان يخدمها · كان يتطلع الى وجه امه الجميل فى انتظار ان تأمره ــ ان تعطى الاشارة فى أى وقت ·

ثم سمع أمه تقول له : « تارو اذهب واحضر لى ماء » ، فاهتز فرحا لسماع الصوت الحبيب ·

انه ليفعل اى شىء من أجل امه ··· كان النبع على بعد مائة قدم من سطح الهضبة الشديدة الانحدار وكان مجرد النزول بزجاجة فارغة يسبب الدوار أما ان كان جنود الاعداء على القمة فانهم يطلقون النار فورا على أى جسم متحرك· ولكن تارو مع ذلك لم يكن ليخشى أى شىء انه لا يحس بالخطر ·

لقد كان تارو يحس بالرضى العميق يغمره وهو يقدم زجاجة الماء الى أمه · فينسى الجهد والمخاطر التى واجهها حتى استطاع أن يملأها ·

ثم فكر، ترى كم كان عمرى حينئذ؟»

وذات صباح تطلع الفتى الى أمه فبدت له أجمل شىء فى الوجود ·· ومنذ تلك اللحظة أصبح عبدا لها ·· وكان أمله الوحيد أن يستأثر بحب أمه كله · وألا يغضبها أبدا لقد كان يمضى وقته يتطلع الى أمه بشغف ليرى التعبيرات المختلفة التى تظهر على وجهها ويدأ تارو يستعيد هذه الكلمات لنفسه وهو يحك رأسه فى حائط زنزانته الخشبى ·

« أيها المسافر اذهب الى لاسيديرم وقل اطاعة لأوامر الملك نرقد نحن هنا» فعندما اقتربت النهاية كانت أمه قد علمته هذه الأبيات كررتها عليه سطرا سطرا حتى جعلته يحفظها ·

« لاسيديرم هى اسبارتا · منذ الفى سنة قاومت شرذمة من جنود اسبرطة الجيش الفارسى كله فى مكان يسمى « ثرموبيلى » حتى استشهدوا جميعا فى المعركة ويقال ان نصبا يحمل تلك العبارة قد أقيم فى مكان المعركة القديم « لقد كانوا شجعانا أولئك الجنود· أليس كذلك ؟ يجب ألا تنساهم»

كانت أمه تحاول أن تجعل من لحظاتها الأخيرة معه حلما لطيفا من التاريخ ·

وهمس تارو « لقد جاء دورنا أخيرا » وتخيل نفسه لحظة الموت · كان الآباء والأبناء يمسكون بأيديهم ويلقون بأنفسهم من على الربوة أو يربطون أنفسهم معا بحبل ثم يدخلون الى البحر من الشاطىء وكانت جماعات صغيرة تموت هكذا كل يوم أمام عينيه · وفكر تارو فى أن يدخل الماء وهو ممسك بيد أمه دون أن يخالجه أى حزن ·

كانت شمس الأصيل تصبغ السماء بلون قرمزى وكان الجو ساكنا جميلا حين أخذت أمه الحبل وطلبت منه أن يصحبها الى خارج الكهف وقالت « انك لن تستسيغ أن أفعل بك ذلك أمام الناس ولذلك فسوف أقوم به فى الخارج ·

حتى هذه اللحظة لم يكن «تارو» قد فكر فى الموت وحده ولكن حين علم انها تنوى شنقه استسلم وتبعها الى الربوة متظاهرا بالسرور والسعادة حتى يمنحها هى السعادة ·

وجاءت الضابطة وأخرجت تارو من الحجرة المخصصة للمراقبين « وفى الحجرة الأخرى وعلى مصطبة مغطاة بالسجاد فى آخرها جلس المدرس الذى يعرفه تارو وأصدقاؤه باسم سانت جون : كان سان جون من جزيرة أوكيناوا وكان مشرفا على مزارع قصب السكر فى سابان · وما أن وقع نظر المدرس عليه حتى بدأ فى القاء مواعظه بطريقته المعروفة المتعبة · وبينما تارو يستمع اليه مطاطىء الرأس استقرت نظراته الزائغة على مسدس يتدلى من حزام شرطى كان يكتب على مكتب بجوار الحائط ·

وفكر تارو ان هذا المسدس من نفس النوع ففى الكهف كان ملازم بحرى صغير يسمح لتارو بحمل مسدسه ·

قال المدرس « لقد ارتديت ملابس الفتيات وكنت تبيع الورد فى حى الجنزا وتعجب تارو أنه لم يفعل ذلك سوى مرة واحدة فمن يا ترى أخبر سانت جون بذلك ؟ أتكون الضابطة التى أمسكت به ؟ أم انه يانكو من السنة الثانية فصل (أ) الذى أعاره الملابس ؟ ·

ثم أكمل سانت جون حديثه « يبدو انك لا تستسيغ فكرة التعليم على نفقة الغير · ولذلك فقد فكرت فى ان تلبس ملابس الفتيات وتبيع الورد ؟

وهمس تارو لنفسه قائلا « هذا خطأ لقد كان فعلا يرتدى ملابس بائعة ورد لكن لم يكن يبيع الورد ، الحمد لله ان سانت جون لم يعرف شيئا » ·

كان تارو قد سمع فى هنولولو ان أمه تدير بارا (حانه) فى الجنزا · لذلك بحث فى الليلة الاولى لوصوله الى طوكيو عن هذا البار حتى وجده · ولكن لم يكن مسموحا بالدخول فيه الا لبائعات الورد أو عازفى الآلات الموسيقية وكل الناس يعرفون ذلك · وهكذا فى مساء أحد أيام الأحد ارتدى تارو الملابس التى استعارها ودخل البار فى هذه الليلة ما بين الساعة الثامنة والعاشرة خمس مرات لم يكن هناك رواد كثيرون وكانت أمه منحرفة المزاج ·

ونهرته بغضب ـ « انت لحوح حقا » أليس كذلك ؟ كم مرة جئت هنا ،

لا يوجد هنا من يهتم بالزهور ، وفي احدى هذه المرات أمسكت احدى خادمات الحانة بباقة فستانه البحرى وطردته الى الخارج ولكنه مع ذلك دخل ثانية .

قطع سانت جون أفكار تارو مرة أخرى وقال : ـ كنت تأخذ القادمين من كوريا الى طوكيو يوم السبت من كل أسبوع بسيارة أجره . لا شك ان ذلك كان يتاتيك بربح وفير ولكنه شيء محزن حقا أن تستعمل معلوماتك في اللغة الانجليزية في هذا الغرض الحقير » .

وقال تارو لنفسه « انك لم تفهمني كذلك هذه المرة انى لم أكن أحاول أن اربح مالا لنفسى أن بار والدتى كان قليل الرواد وأردت أن أحضر لها بعض الزبائن لتتحسن الأمور » .

لقد كان تارو يحاول أن يساعد أمه دون أن تعلم ولكنه كان يرتكب بذلك غلطة كبيرة .

ففى السبت الأول من شهر أكتوبر ذهب تارو الى حانة مجاورة لمعسكر فنكهام كانت ملتقى سائقى سيارات الأجرة ، ذهب ليبحث عن سيارة اذ قال له سائق « صديق » ان صاحبة البار الذى تتكلم عنه هى أمك اليس كذلك ؟ انك لولد بار جدا ولكن أتعلم أيها الفتى الصغير ماذا تعمل أمك مع الرجال الذين تحضرهم انت لها ؟ وبقى تارو صامتا .

ان كنت لاتعلم فسوف أريك .

ثم استدعى سائقا آخر وأطلع تارو على الحقيقة المرة .

وفى تلك الليلة عاد تارو متأخرا الى عنبر النوم فى المدرسة وارتمى على فراشه تخنقه العبرات ويعتصره الأسى . ان أمه لم تعد هى أمه . لقد أصبحت امرأة مجرد امرأة وفجأة عاد تارو الى رشده . انه لا يريد أن يبقى فى هذه الدنيا أكثر من ذلك ، لا بد أن يموت فى تلك الليلة .

وأخرج تارو صور أمه وخطاباتها القديمة ومزقها اربا اربا ثم ألقى بها فى بالوعة المطبخ وتلفت حوله فى الحجرة وتساءل : اليس عليه أن يفعل شيئا قبل أن يمضى ؟ لا لم يعد بعد من شيء .

ثم قال تارو لنفسه « وماذا يهم ان كان يوجد شيء اذا لم يكن لى غد » لم يبق له ما يفعله سوى أن ينام قليلا قبل أن يمر الصباح ... وأزعجه خاطر قصر الحياة فبكى .

وأردف سانت جون قائلا ...

وتماديت طبعا فى طريق الشر . ويظهر انك مشيت وانت سكران على شريط سكة حديد ساجامى وكدت أن تقتل .. لم أكن أتصور أن تتخدر لدرجة السكر » .

وفكر تارو ثانية .. « صحيح وخطأ انا لم أشرب خمرا قط ولكن من الجائز انى كنت مخمورا لقد كنا قرب الفجر . وقد أضيئت الأنوار الكهربائية على الرصيف الموصل لباب المحطة . وكان ذلك يعنى أن قطار الصباح على وشك المرور فى أى لحظة وخلعت معطفى وألقيته على العشب واستلقيت ممدد الجسم وسط القضبان انتظار ان يدهمنى القطار ولكن القطار لم يمسنى وسمعت

عامل « الدريسة » الذى انقذنى يقـول لناظر المحطة « لو كان مرتديا معطفه لتعلق بشـبكة القطار وكان القطـار قد دهمه • لكنـه كان بدون معطف • مرتديا قميصه فقط وقد انقذه ذلك » •

ولكن تارو كان مازال مصـمما على الموت ففى احدى ليـالى الخريف سرق بعض الكيروسين من المطبخ وخرج الى الحقـوق خلف عنـابر النوم ودلف الى المخبأ المهجور وصب الكيروسين على نفسه



وحاول عدة مرات قبل أن يفلح فى اشعال عود ثقاب فى اكمامه ولكنه كان لهبا ضعيفا . فلم يكن للكيروسين الجديد نفس قابلية الكيروسين القديم للاشتعال ، لذلك فسرعان ما اطفأتها الرياح لكنه استمر فى محاولات يائسة لاشعال النار فى أجزاء مختلفة من ملابسه لكنها كانت تدخن ولا تشتعل وأخيرا حين جاءوا يستطلعون الأمر وجدوه مغشيا عليه يكاد يخنقه الدخان .. لماذا اشعلت النار فى المعدات الحربية لأمريكا ؟ . ان رجال الشرطة يقولون انهم سوف يطلقون سراحك اذا قلت لهم الحقيقة والا فانك ستعاقب .

لم يكن يعلم تارو وجود تلك المعدات ثم انه فشل حتى فى اشعال النار فى نفسه « فجأه صرخ تارو « اقتلونى — اقتلونى .. » .

فصرخ فيه سانت جون «اسكت» . « اسكت »

ثم وقف وغادر الحجرة فى عجلة كما لو كان قد تيقن من جنون تارو .

ودخل الحجرة ضابط بوليس شاب خلع حزامه وبه المسدس فى قرابه والقى بها على المصطبة . ثم استلقى بجوارها وأغمض عينيه . وتفحص تارو السلاح بهدوء — أما الضابط الآخر فانه كان يواصل الكتابة مديرا ظهره الى تارو .

« انى أستطيع الآن أن أفعل ماأريد » وتحرك بحذر الى حزام الرجل النائم وأخرج المسدس من قرابه بسرعة وارجع ضابط الأمان . ثم وقف وضغط على الزناد ... وتطاير الطلاء من الحائط المقابل وصرخ الضابط الشاب وتدحرج من المصطبة الى الأرض .

وتكوم الى جانب المكتب — أما الشرطى الآخر فقد ارتمى خلف المكتب وأخرج مسدسه وأطلق النار على الفتى حامل السلاح المنطلق .

وأحس تارو كما لو كان قد ضرب بقضيب من الحديد فى صدره . فاستند الى الحائط خلفه وأطلق أنة طويلة وفجأة امتلأت عيناه بالدموع وسقط على وجهه .

قصة من القرآن الكريم

بقلم : د. محمد احمد خلف الله

وقصة يوسف قصة انسانية ، تلعب فيها العواطف البشرية الدور الاول ، فتؤثر فى سير الاشخاص وتوجههم نحو الخير أو نحو الشر فى حياتهم ، ثم هى قصة رحبة واسعة ، تتعدد فيها الشخصيات ، وتتلون الاحداث ويجرى فيها الحوار هينا لينا رقيقا ، وتتوزع فيها العناصر التوزيع الذى يتطلبه الفن القصصى ، فهى موزعة بمقدار ، تظهر وتختفى حسب الظروف الطبيعية ، وحسب ما يحيط بالأبطال من أحداث ·

ثم هى – من حيث البناء القصصى – أجود قصة فى القرآن · ولعله من أجل هذا عدها القرآن من أحسن القصص ، حين قال : « **نحن نقص عليك أحسن القصص بما اوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين** » ·

***

تبدأ القصة بتمهيد هو رؤيا يوسف : « **اذ قال يوسف لأبيه يا أبت انى رأيت احد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ، قال يا بنى لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا ان الشيطان للانسان عدو مبين ، وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحاق ان ربك عليم حكيم** »· ونفهم نحن من هذا التمهيد ماسيدور فى القصة من أحداث تلم بيوسف فنعلم أنه سيكاد له ، ونعلم أن هذا الكيد لن يقضى عليه فسينجيه ربه ويعلمه من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليه ويجعله نبيا كما اتمها على أبويه من قبل ·

والتمهيدات تظهر بكثرة فى هذا الطور من القصص ، فنلحظها فى قصة موسى فى القصص :

« **نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، ان فرعون علا فى الارض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم انه كان من المفسدين ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم**

ما كانوا يحذرون » كما نلحظها فى قصص عيسى فى سورة مريم وفى سورة آل عمران ، والتمهيدات هنا قصص بأكملها فقصة يحيى أو زكريا فى سورة مريم تمهد لقصة عيسى وتهيىء لها الأذهان ، وقصة مريم فى آل عمران توحى بقصة ولادة يحيى ، وهى بدورها أيضا تمهد لقصة عيسى عليه السلام ٠

***

تبدأ القصة بعد هذا التمهيد فى شكل مؤامرة لاغتيال يوسف أو التنكيل به يدفع اليها الحسد والغيرة ، ونسمع حديث القوم حول الطريقة التى يريدون سلوكها، ونراهم وهم يرددون الأمر بين الجانبين : جانب القتل ، وجانب الالقاء فى الجب ، ونفهم ان قد رجح الأمر الاخير ٠ ثم نلحظ الجريمة وقد بدأت تأخذ شكلها العملى ، فهم يحتالون على أبيهم وهو يخشى أن يأكله الذئب ، وهم يؤكدون له أن هذا لن يكون، وكيف يقع وهم عصبة ؟ وماذا يكون موقفهم لو أكله الذئب وهم غافلون ؟ انهم اذن لخاسرون ٠ وأخيرا يمضون بأخيهم الى حيث أرادوا ، ويجيئون أباهم عشاء وهم يبكون ٠

ونلحظ هنا نوعا من السذاجة يلائم العقل العربى أو العقل البدوى ، فقد كان خوف أبيهم من أن يأكله الذئب ، وكانت حيلتهم للتعمية والتضليل اخبار أبيهم أن قد أكله الذئب ، والتجاوب بين الخوف والاعتذار سذاجة فى البناء القصصى تلائم طبيعة البداوة فيما أعتقد ٠

ونلحظ بعد ذلك تلك السحابة الرقيقة من الحزن التى تغشى نفس يعقوب ، ونسمع حديثه اليهم وايمانه القلبى بأن أنفسهم قد سولت لهم أمرا ، ونرى استسلامه للقدر : فصبر جميل والله المستعان على ما يصفون ٠

ثم نمضى مع يوسف حين يلتقط من الجب وحين يشرى بثمن بخس ، فنترك فلسطين الى أرض مصر ، ونترك البادية الى المدينة ، ونستقر فى بيت من أعظم بيوتها هو بيت العزيز ، ونستمع اليه وهو يوصى به خيرا لعله أن ينفعه أو يتخذه ولدا ، وهنا نحس أن يد العناية قد لمسته فمكنت له فى الأرض وعلمته من تأويل الأحاديث ، ثم أخذت تدفع به الى الأمام لينتصر على الكيد والحسد ، ويفوز على من أرادوا التخلص منه لتستقيم لهم الأمور ، وتستقر فى نفوسهم أسباب المودة والسعادة ويكونوا من بعده قوما صالحين ٠

وفى بيت العزيز تتعقد الأمور ، فيكون الصراع بين العقل والعاطفة ، وينتصر العقل لدى يوسف الفاضل ، وتحس المرأة بالهزيمة فيملؤها ذلك حقدا وغيظا ، ويبدأ ـ بالنسبة الى يوسف ـ كيد جديد وتتهمه امرأة العزيز بأنه قد أراد بها السوء • وأن جزاءه يجب أن يكون السجن أو العذاب الأليم ٠ وهنا يدخل القصة عنصر جديد هو عنصر الكشف عن حقيقة الجريمة ، ويستدل العزيز على أن فتاه لم يخنه من أن قميصه قد من دبر ٠

وتتوالى الأحداث وهى طبيعية متساوقة ، اذ يسمع النسوة بالمدينة عن الحادث

فيؤخذن كما هى عادتهن ـ باكثار الحديث عنه ، وتسمع امرأة العزيز بما يدور حولها وتفكر فى مخرج من هذا المأزق ، فتهديها فطرتها الى ذلك الاجتماع الذى ينقلب فيه العاذلات عواذر اذ يؤخذن بجمال الفتى ، ويرون أنه ليس من البشر ، وأنه ليس الا الملك الكريم • وتحس امرأة العزيز أن قد ملكت ناصية الموقف ، فيعاودها حرصها على اشباع رغبتها الجنسية وتعلن أمامهن أنها قد راودته عن نفسه فاستعصم ، وأنه ان لم يفعل ما تأمره به ليسجنن وليكونا من الصاغرين •

ويختار يوسف الفاضل السجن ، ويرى أنه أحب اليه مما يدعونه اليه ، ويخشى انه ان لم ينصرف عنهن أن تتغلب فيه النزعات البشرية والعواطف الجنسية فيصبب اليهن ويفعل ما يفعله الجاهلون • وهنا تلمس يوسف يد العناية فيستجيب الله لدعائه ويصرف عنه كيد النساء •

وندخل مع يوسف السجن ونلحظ ما أفادته العناية الالهية ، كما نحلظ ما فيه من شعور دينى ، فهو يعبر الرؤيا لصاحبيه ، وهو يدفعهم الى التوحيد وعبادة الواحد القهار . وهو ينهاهم عن عبادة الأوثان ، وهو يطلعهم على أن ذلك فضل الله عليه •

ثم يحمل الناجى من صاحبيه أمانة ويطلب اليه أن يذكره عنه ربه ـ وان يكن الشيطان قد أنساه • ويعاود الحظ يوسف وتلمسه يد العناية حين يرى الملك رؤياه وحين يعجز الملأ عن تعبير تلك الرؤيا ، اذ عند ذلك يذكر الناسى من صاحبى يوسف ويذهب اليه مستفتيا ، ويجيبه يوسف الى ما طلب ويعبر له الرؤيا ، ويدل على القصد من البقرات السمان والعجاف والسنبلات الخضر واليابسات •

ويطلب الملك يوسف ويأبى هذا حتى يحقق الملك مبتغاه ، وحتى يرسل الى النسوة ويقف منهن على الحقيقة فيما كان من امره مع امرأة العزيز ، وتأتى هذه وتعلن أنها هى التى راودته ، وأنه صادق فى كل ما قال ، ويأتى يوسف ويطلب الى الملك أن يجعله على خزائن الارض ، ويستجيب الملك وينال يوسف مبتغاه •

وفى مدة السجن هذه نلحظ أثر العنصر النبوئى أو الغيبى والدور الذى لعبه فى القصة : نلحظ كما لحظنا من قبل أثر العنصر الجنسى فى توجيه حياة يوسف من الكيد له فى اثناء مقامه فى بيت العزيز الى أن انتهى به ذلك الكيد الى ابقائه فى السجن حتى أنقذته يد العناية وخرج من السجن بسبب رؤية الملك •

❊❊❊

وتعود بنا القصة الى بعض الذكريات السابقة فتجمع بين يوسف واخوته مرة ثانية فيعرفهم وهم له منكرون ، ويحتال عليهم حتى يأتوه بأخ لهم من أبيهم ويحتالون هم بدورهم على أبيهم ليرسل معهم ذلك الأخ ، ويحتاط والدهم كما احتاط أولا ، ولكن القدر الذى يوجه القصة يدفعه الى القبول ويذهب الأخ الى أرض مصر حيث يقيم يوسف • فآواه اليه وقال انى أنا أخوك فلا تبتئس •

واحتال يوسف عليهم مرة ثانية حين جعل السقاية فى رحل أخيه ، وحين أذن المؤذن بأنهم سارقون ، وحين سألهم عن جزاء السارق ، فقد كان هذا الجزاء هو كل

ما يطلب يوسف ، وما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك الا أن يشاء الله . ويحاول هؤلاء الاخوة دفع أحدهم مكان السارق ويأبى يوسف ويستعيذ بالله أن يكون من الظالمين ، ويرحل الاخوة ويبقى كبيرهم فلن يبرح الارض حتى يأذن له أبوه أو يحكم الله . ويطلب اليهم أن يخبروا أباهم بكل ما حدث ، وأن يدفعوه الى السؤال عن صحة الحادثة بسؤاله أهل القرية التى كانوا فيها . أو العير التى أقبلوا فيها . وهنا تعاود الرجل أفكاره السابقة ويخبرهم بأن قد سولت لهم أنفسهم أمرا ، ويستسلم للقدر كما استسلم له أولا ، ويصبر ذلك الصبر الجميل الذى يحوطه الأمل بأن الله سيأتيه بهم جميعا وتغشى الرجل سحابة من الحزن قاتمة حتى ليكاد أن يكون من الهالكين . وتطوف بنفسه خواطر ملهمة فيدفع أبناءه الى الذهاب للتحسس من يوسف وأخيه ، ويطلب اليهم الا ييأسوا من روح الله فانه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون . ويذهب هؤلاء ويلتقون بيوسف للمرة الثانية ، وهنا يعيد الى أذهانهم ما ألم بها من حيل المكر والكيد ، ويسالهم عن فعلتهم التى فعلوها وهم جاهلون .

ويعرف القوم الحقيقة ، ويسالونه عن نفسه فيقدم لهم نفسه وأخاه ، وينبئهم بان ذلك جزاء الصبر والتقوى ، وأن الله لا يضيع أجر المحسنين . ويعترفون بالخطيئة. ويعترفون له بالفضل وايثار الله له عليهم . ويحس يوسف بما فى أنفسهم من احساس باللوم والتعنيف ، فيخفف وقع ذلك عليهم فلا تثريب عليهم . اليوم يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين .

ويعود الاخوة بقميص يوسف ، ويلقونه على وجه أبيهم فيرتد اليه البصر ، ويقبل الأب والأبناء ، ويستقبلهم يوسف استقبال الأبن البار والأخ العطوف ، ويفيض الحنان من قلبه وتجرى عبارات الشكر على لسانه ، ويذكر أباه بما كان بينه وبينه من حديث « **فلما دخلوا على يوسف آوى اليه أبويه وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا ، وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا ، وقد أحسن بى اذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى ، ان ربى لطيف لما يشاء انه هو العليم الحكيم** » .

فأنت ترى هذه القصة بنيت بناء محكما من حيث فن البناء القصصى . ففيها وحدة الموضوع ، واحكام التصميم وفيها جودة الحبكة . وفيها الانتفاع بالحوادث الاستطرادية .

وشخصية يوسف هى الشخصية الرئيسية التى تدور حولها الحوادث . اما غيره من الشخصيات فتظهر وتختفى كلما دعت الحوادث ، فيظهر الاخوة فى أرض فلسطين حيث كان يقيم معهم ، ويختفون حيث رحل.وتظهر السيارة كوسيلة لانتقال يوسف من البدو الى الحضر . ويمضون الى غير رجعة حين باعوا للعزيز . ويظهر العزيز وامرأته وواحد من أهلها ونسوة المدينة .

كل يؤدى دوره المنوط به حيث يكون مسرح الحوادث بيت العزيز . ثم يختفون

حين ينقل يوسف الى السجن • وهنا يظهر صاحباه ، ويتركه أحدهما الى غير رجعة حين يصلب ، ويعود اليه الثانى مرة ثانية حين يرى الملك رؤياه •

ويظهر الملك على مسرح الحوادث حين نسمع رؤياه ، ويبقى حتى يسلم خزائن الأرض ليوسف بعد ان يبرئه من دعواه ، ويحضر النسوة ليعترفن بما قدمت أيديهن من شر لهذا الفتى • ويختفى الملك والنسوة ويظهر اخوة يوسف مرة ثانية ، ويبقون على المسرح حتى ينقلون الى مصر ومعهم أبوهم ومن شاء •

فأنت ترى أن الشخصيات الرئيسية هى شخصية يوسف ، وأن الشخصيات الأخرى شخصيات ثانوية تظهر وتختفى حسب الخطوط أو حسب ما يؤدون من أدوار وقد حللنا فيما مضى شخصيتين من هذه الشخصيات هما يوسف وشخصية امرأة العزيز •

والأحداث فى هذه الشخصيات أحداث عادية تقع لكل شخص وفى كل زمان ومكان ، فليس يبعد أن يرحل اسرائيلى من بلد الى آخر وهو فقير معدم ، فتصير اليه مقاليد بيت المال ، وليس يبعد أن تقع كل هذه الأحداث لشخص فيكون موقفه منها موقف يوسف ـ حتى حادث المراودة ، ولا تستغرب الاحالة القاء القميص على وجه أبيه وارتداده بصيرا فتلك قد تكون من خصائص الأنبياء •

***

وأمكنة الأحداث هنا متميزة بعض التميز ، فهى حينا أرض فلسطين التى كان يسكنها يعقوب ، وهى حينا أرض مصر : بيت العزيز أو السجن أو بيت المال •

والآراء والأفكار عادية ، وكذا ما كان يمضى بين الشخصيات من حوار ، والانفعالات القوية والغرائز المؤثرة فى مجرى الحوادث ، من الأمور التى تؤثر أثرها فى كل لحظة من لحظاتنا فى الحياة • فالحقد والحسد والحب أقوى العواطف والغرائز فى القصة ، وهى الأمور التى تلمس فى كل مجتمع منذ خلق الله الأرض والسماء •

وعنصر الرؤى هو الذى يجرى قليلا مع الاتجاهات الدينية حيث تفسر على أنها الأمور الغريبة من أمور الوحى ، واذن فلابد من أن تصدق وتقع فى الحياة •

وتفاوت الحظوظ موجود ، واختلافها على يوسف واضح ، حتى لايحتاج الى تفسير أو ايضاح •

وعلى كل فقصة يوسف من القصص الفنى المحكم البناء • وقد اجتمعت فيها كل العناصر القصصية التى توزعتها القصص المختلفة فى القرآن •

خارج الدنيا



القصة الفائزة بالجائزة الثانية لنادى القصة

بقلم : أسامه أنور عكاشة

حين ينتهى اللعب ·· وتغلق صناديق الطاولة تراهم وقد استداروا جميعا بمقاعدهم حول النافذة الواسعة فى ركنهم الأثير هناك ·· فى ذلك المقهى المطل على طريق الكورنيش فى الاسكندرية ·

مجموعة الوجوه الخالدة التى تجتمع فى نفس المكان منذ زمن بعيد · · ربما امتد الى سنوات طويلة ·· حتى أصبحت ملامحها تتوافق فى اتساق عجيب مع الزخارف الخشبية الماثلة على جدران المقهى وواجهته الخارجية وكانها جميعا ألوان مختلفة فى لوحة واحدة ·

وفى المقهى مجموعات ، « وشلل » أخرى لاشك أن لها بدورها امتدادا فى الأصاله والقدم ·· ولكل منها بالاخرى صلات تمر باطوار تبدأ بالتحية وتبادل الصحف وتنتهى أحيانا بشىء من الاندماج المؤقت وتبادل أفراد الشلة · · والامر عادة لايتطور أكثر من ذلك ·· فكل مجموعة تتمتع بخاصية الالتفاف حول الذات وتستخدمها فى الوقت المناسب اذا بدا فى الأفق « خطر الخطف » أو الغزو ·

ولكن مجموعة النافذة ·· هى على وجه التقريب أبرز مجموعات المقهى وأشدها اغراء لمحاولات الغزو الا أنها فى نفس الوقت أقدرها على ابعاد المتطفلين الذين يحاولون الانضمام اليها والذين تتابعت موجاتهم عبر الايام بلا جدوى ·

لهذا كان أمرا غريبا أن يستطيع ذلك الغريب عن الشلة بل عن المقهى كله أن يتسلل اليها فى أيام قلائل ليصبح من أبرز الشخصيات فيها ·

لم يكن شابا لتجذبهم اليه الذكريات ولم يكن مرحا ليتخذوه واجهة لأحزانهم، بل ولم يكن يتمتع بتلك الصفة التى يطلقون عليها «قوة الشخصية» ·· على العكس ·· ربما ·· كان ضعيفا ·

فالسيد/راضى بلغ من العمر تلك المرحلة التى لاتستطيع فيها أن تعرف اذا كان فى الخمسين أو تعدى الستين · · ضئيل ·· قمىء ·· أبرز مافيه رأسه التى يبدو واضح الضخامة بالقياس الى حجمه والذى خلا من الشعر الا بعض ما خلفته السنون ·

شىء واحد فقط يجعلك تحس بالميل

الى هذا الرجل .. شيء يتهدد فى قسماته ويتهدج فى نبرات صوته.. شيء يجعلك تحس نحوه بعاطفة الاشفاق . . جاذبية غريبة .. تشعر فيها بضعفه وكثرة مشاكله وحاجته لمن يواجهها معه ! هكذا تسلل السيد/راضى الى الشلة واصبح بين يوم وليلة مركز الالتفاف فيها .. منه تبدأ المناقشات وتتفرق بين الجميع. ثم تتجمع وترتد اليه من جديد .

وبعد أن ينتهى اللعب كل ليلة وتنفد ضحكات الغالب وتهدأ ثورة المهزوم .. تبدأ ـ وكأنهاروتين محتوم ـ المناقشات المعتادة ..بطريقة تؤدى حتما الى السؤال الذى يقال كل ليلة منذ ان جاء الوافد الجديد .

ـ ازى الاحوال النهارده ياراضى بك ؟

ويتنهد السيد/راضى .. ويبدأ فى عرضه اليومى لمشاكله .

وهو رجل صريح لايطيق كتمان شيء مما فى نفسه.. ومنذ اليوم الاول عرفوا عنه كل شيء فهو كما اخبرهم وكيل الادارة المالية بالمحافظة ، موظف درجة ثانيةله شأنه .. واب لضابط فى البحرية وطالبة فى الجامعة .. وحالته الماليةلابأس بها .. ورغم كل ذلك فله مشاكله . . ومتاعبه .. متاعب ومشاكل هى فى الواقع كل كيان السيد/راضى ووجوده على الاقل فى نظر رفاقه الجدد .. لاشيء يعرفونه عنه غير ذلك .

مشكلة رجاء .. ومتاعب رفعت .. الابن والابنة .

رجاء لاتريد أن تتزوج .. ورفعت يريد الزواج بفتاة يونانية .

هو لايهمه موضوع رفعت الى حد التأزم والألم .. فقط يحس بالقلق . . وهو يردد دائما ان رفعت رجل .. رجل ناضج يتحمل مسئولية نفسه .

ـ طيب ده راجل .. هو حر .. عقله فى راسه يعرف خلاصه .. يجوزاجريجية ولا حتى هندية أنا خلاص عملت اللى على انما البنت يا جماعة مش عارف اعمل معاها ايه .. دى فى رقبتى .. جالها لغاية دى الوقت تلات عرسان . . وكل ما اكلمها تقول مش عايزه اتجوز .

ـ يمكن بتحب يراضى بك ؟

... والعجيب أن هذا التعليق أثار في وجه الرجل انفعالا مغايرا لماتوقعه الجميع كان ينتظرون منه شيئا من الغضب أو حتى السخرية والتهكم .. ولكن شيئا من ذلك لم يحدث .. بل رأوا جميعا اشراقة عريضة تفرض نفسها على وجهه فتبدأ واضحة رغم محاولته المستسلمة لمنعها .

ـ طيب وافرض انها بتحب يا سيدى ماتقول .. أنا أبوها .. ومن صغرهم وانا بعاملهم زى اخواتى .. دلوقت بينظرولى كصديق .. أنا ربيتهم تربية مثالية .. ويوم امهم ما ماتت مخلتهمش يحسوا بغيابها ومفكرتش أبدا أجبلهم مرات أب فى البيت .. يعنى قصدى ولا مؤاخذة ان محدش فيهم بيخبى على حاجة .. لا الواد ولا البنت رفعت نهار ماحب البنت الاجريجية قال لى .. طيب تصدقوا بايه ! انه لما كان يعرف انه هيغيب فى البحر يقولى ان صوفى حتتصل بالتليفون يابابا وقولها كذا .. كذا ..

وتنطلق من الجميع تعليقات الدهشة ويذكر كل منهم طرفا عن علاقته السيئة



باولاده ٠٠ويهنئون السيد/راضى بحرارة يشوبها حسد لايخفونه ، وهم بعد ذلك قد تبنوا الموقف ٠٠ وتقصوا المشكلة ، وراحوا يحاولون تلخيص تجاربهم وآرائهم فى حلول يقدمونها لزميلهم الذى لم يصدر حكما ولا رأيا ، بل كان يتلقى كل شىء فى حياد تام ثم يبدأ مرة أخرى فى عرض المشكلة ٠٠ وهو فى كل مرة يجد لها جانبا جديدا يستأثر باهتمام الجميع ، ويحاول دائما أن يجددها فى كل جلسة ٠٠ بل لقد كان يبدو أنه يحس بلذة عميقة فى حديثه الدائم عن رجاه ورفعت ٠٠ بتلك اللهجة الضعيفة المليئة بالاستعطاف وطلب المساعدة ٠ ٠ كانت عيناه تبرقان دائما بتلذذ عارم وهو يطالبهم بأن يساعدوه فى ايجاد حل يريح ضميره ويضمن مستقبل البنت على الخصوص ٠

ولم تمض فترة طويلة حتى بدأت تلك اللذة تبرق فى عيون الجميع كلما اجتمعوا ليناقشوا الموضوع ٠

كلهم تقريبا ٠٠ وتقريبا لان الأمر كان يختلف قليلا بالنسبة لأحدهم ٠

فمنذ سطع نجـــم السيد/راضى فى سماء الشلة أخفى ذلك بريقا آخر لنجم قديم كان قبل حلول الوافد الجديد مركز التجمع والالتفاف وهو وان كانت جاذبيته من نوع آخر يختلف عن جاذبية السيد/ راضى الا انها لم تستطع الصمود لها ·· لقد كان نفوذ محجوب افندى يعتمد فيما مضى على قدرته الخارقة فى «التنكيت»·· والسخرية من كل شىء ومن كل انسان، وقدرته ـ وهـذا هو المهم ـ فى تدبيج الأكاذيب المكشوفة التى يصر دائما عـلى صحتها رغم علمه بأن الآخرين لايصدقونها ورغم اعترافه أحيانا بأنهـــا من خلق ساعات التجلى التى يهيئها له « ينى » «يارمان» المقهى ·

شىء واحد كان محجوب افندى يرفض دائما الخوض فيه أو الحديث عنه ، وهو متاعبه العائلية ·· بل كان يغضب اذا حاول أحد الجالسين حوله أن يسأله عنه· مع أنهم جميعا يدركون مما سمعوه فى المنزل وما أخبرهم به « ينى » أن الرجل يعيش فى مأساة ·· زوج مريضة مقعدة وابن «بلطجى» يعاشر الأوغاد ولا يزور المنزل قدر زيارته لقسم الشرطة ، وابنة مطلقة معلقة باطفال ثلاثة وبقضايا النفقة المزمنة ·

كل هــــذا ومحجوب افندى يرفض أن يشكوأو يطلب المواساة ·· حتى الخمر أيضا لم تستطع أن تحل عقدة لسانه ·· وضاقوا بتكتمه·· فضاقوا أيضا بأكاذيبه وتشنيعاته ، وما ان ظهر السيد/راضى بضعفه وكثرة شكواه ودعوة المشـــاركة الملحـــة فى حديثه حتى خلا له الجو ·· وبويع فى تحالف غير منظور بقيـــادة الجلسات المسائية فى الركن المعهود عند الشرفة ، وتقهقر محجوب أفندى وانتقل من مركز الدائرة الى نقطة ما فى محيطها·

اذن فقط كان محجـوب أفندى هو الوحيد بينهم الذى يرفض فى اصرار أن يندمج فى الموضـــوع ·· وهو يرى أن مشـــاكل السيد راضى بغض النظر عن شعوره الشخصى نحـــوه ·· ليست الا تفاهات · · وتفاهات سخيفة · · وهو يعجب لانسياقهم وتحمسهم المتشنج لها وكأنها مأساة توشك أن تسحق الرجل المسكين ·· راضى بك ·· هه ! انها بلا شك غريزةالقطيع والا فماذا يفعلون امام المشاكل الحقيقية ·· أمام المآسى ·· امام ظروفك انت مثلا يامحجوب أفندى ؟

الموازين فى رأى محجوب افندى قد اختلت وكل شىء يبدو فى وضع انقلابى حتى الرجال يلوحـــون كما لو كانوا قد استووا على رءوسهم ·· وهكذا توفر له الدافع لكى يتصدى للتيار ·· أيةمشاكل تلك التى يتحدث عنها هذا الرجل · · راضى بك ·· الولد سيتزوج يونانية ·· والبنت لاتريد أن تتزوج ·· ماشاء الله ستنطبق الســـموات على الارض · · والاغبياء كالبطانة المخمـــورة يرددون الصدى فى انفعال أحمق ·· هذا الرجل اللين الناعم وصوته الضعيف المنكسر ·· وبريق التلذذ فى عينيه ·· هذا الأفعى قد حذرهم ·

ـ جرى ايه ياجماعة ؟ انتم هاتعملوا من الحبة قبة ؟

متسيب الولد والبنت يعمـــلوا اللى عايزينه ياراضى بك وتريح نفسك ·

قالها محجوب أفندى وصمت الجميع·· ونظر اليه السيد راضى ··بدت فى عينيه

التماعات غاضبة ·· ولـكنها مع ذلك ضعيفة ·· التماعات غاضبة ضعيفة ·· وما لبث ان قال في برود لين : انت بتقول كده يا محجوب افندى على شان دول مش ولادك واللى ايده فى الجنة غير اللى ايده فى النار ·

وبقوة لاتتناسب مع الدافع أغضبت هذه العبارة محجوب افندى غضبا هائلا فصاح حانقا : كلنا عندنا أولاد يا أستاذ راضى ·· وعارفين غلب الاولاد ·· ولا أنت فاكر يعنى لعب العيال اللى بتقول عليه ده مشكلة ·· تعال شوف ···

وتكهرب الجو ·· ولكن السيد/راضى لم يشأ أن يرد ·· فقد استدار بعينيه الى الجميع وهـو يبتسم ابتسامة خافتة ويضم شفتيه وكأنه يعرض الامر عليهم·

وما لبثوا جميعا أن استنكروا موقف محجوب افندى ·· وعجبوا له كيف يلوم السيد/راضى لا لشيء الا لانه وثق بهم وفتح لهم صدره وطلب مساعدتهم فى حل مشاكله ؟

وثار محجوب افندى عليهم جميعـا ، ونهض غاضبا بعد أن هـــددهم بأنه لن يريهم وجهه ثانية ، ولم يحاولوا هم أن يمنعوه رغم أن السيد راضى طلب منهم في لهجة المعتذر الا يتركوا الرجـــل يخرج غاضبا ! قالوا له ان محجوب أفندى قد عودهم بين الحين والحين أن يختلق سببا للشجار مع أى واحد منهم ليتركهم بضعة أيام يختفى خلالها ثم يعود ثانية بعد أن يكون قد نسى كل شيء ·· وقال السيد راضى وهو يبتسم ساهما :

ــ الظاهر ياجماعة لمـا يرجع محجوب افندى ·· لازم امشى أنا ··

وقالوا جميعا كلاما كثيرا فى صـوت واحد ·· ولكنه لم يسمع شيئاً ·

* * *

منــذ أيام وهو يحس بأن كل شيء يقترب من النهاية ، وان شيئا فى تلك النهاية لابد يتعلق بهذا الرجل محجوب افندى ·· فقد كانت له طول الاسبـوع الاخير نظرات غريبة مقلقة اتعبت أعصابه الى جانب الموضوع الآخر ·· موضـوع رفعت ورجاء ·

هذا الموضوع اتسع وتطور الى درجة مخيفة ·· حتى لقد أفاق مرة فوجد نفسه يتحدث اليهما بانفعال حقيقى ·· أفزعه وجعله يتساءل دائما : هل جننت ؟

ولكنه الآن كف عن التســاؤل وبات يفكر فى حل للمشكلة يريحه ويخلصـه من الدوامة التى تدور فى عقله وكم كان فزعه هائلا حين اكتشف ان الضباب قد غلف كثيرا من حقائق ماضيه وان الامر لايحتاج الآن الا لايام قليلة حتى يفقد كل صلة بذلك الماضى وكان يرى تلك الايام قادمة فى سرعة مخيفة ·· لقد حـدث الامر قبل ذلك كثيرا ·· وكان فى البداية مجرد تسلية عابرة لاتكلفه الا الضحكات ثم تطور حتى بلغ هذه الصورة منذ دخل هذه المقهى وتعرف بهؤلاء الناس ·· لقد كان الامر سهلا معهم فانزلق هو أيضا حتى أصبح من الصعب عليه أن يتراجع الى الوراء · بل أصبح مستحيلا عليه أن يتذكر ذلك الوراء الا ان اعظم ما يخشاه الآن هو النهاية ·· وشيء فى أعمـاقه يشعره بأن هذه النهاية ترتبط بعـودة محجوب افندى ·· لايدرى لماذا ، فقط هو لايحس بالارتياح لطريقة هذا الرجل فى معاملته لقد خرج معلنا أنه لن يعود

وهم لايصدقونه ويقولون انه سيعود ٠٠ ولو عاد فلم يتسامح معه مطلقا٠٠ ويجب أن يستعد لهذه العودة ٠٠ ولكن أليس من الأفضل الا يذهب هو ؟ أجل ٠٠٠ ماحدث للآن ، فيه الكفاية ٠٠ يجب أن يتركهم ٠٠ وقريبا جدا ٠٠ ربما بعد أيام قليلة سيودعهم ٠٠ سيقول لهم انه ينوى السفر الى القاهرة والاقامة هناك ٠

ولكنه قبل أن ينفذ ما اعتزم٠٠ فوجىء بعودة محجوب افندى ٠٠ ذهب الى المقهى كعادته أصيل كل يوم فوجده هناك ٠٠ يحتل المقعد الرئيسى فى وسط الشلة عند منتصف الشرفة ويضحك مع الآخرين ، ويبدو فى حالة نفسية رائعة ٠٠ ولاحظ السيد راضى ما ادهشه ٠٠ كانوا جميعا يجلسون فى حـــالة تأهب ٠٠ صناديق الطاولة لاوجود لها ٠٠ الطلبات وبقـايا الطلبات ركنت جانبا ٠٠ القامات معتدلة وهنـــاك شىء فى الوجوه يتـأرجح بين القسمات الضاحكة ، شىء لم يدر السيد/ راضى كنهه ولكنه شعر به كتيـار بارد يغزو اطرافه ٠٠

أهلا أهلا ٠٠٠ ازيك ياراضى بك ؟

قالها محجوب افندى وهو يرنو لافراد الشلة ، ولدهشة السيد راضى البالغـة **يغمز لهم بعينه ٠٠ وقبل أن يجلس بادره** الرجل والابتسام الغريب لايفارقه :

ــ ايه أخبارك ٠٠ ازى الاستاذ رفعت ٠٠ والست رجاء !

وارتفعت الاصوات تطلب من محجوب افندى أن يمهل الرجل حتى يجلس ويلتقط انفاسه ولكنه لم يجلس ٠٠ بقى السيد «راضى» واقفا ٠٠ وتأكد أن هناك شيئا خطيرا يتعرض له بصفة مباشرة ، وخرج صوته ضعيفا متهافتا :

ــ فيه ايه ياجماعة ٠٠ مالكم ؟

ورد محجوب افندى متجاهلا سؤاله .

ــ مقلتلناش ايه اخبار رجاء ورفعت ؟

رجاء ورفعت ؟ لما هـذا الالحاح وهم يعلمون أنه سيحدثهم عن كل شىء من تلقـاء نفسه ؟ ٠ ٠ونظر الى الآخرين فوجدهم جميعا صامتين ٠٠ ينتظرون رده على محجوب افندى فقال :

رجاء ورفعت ٠٠ مالهم ٠٠ كويسين ٠

وقبل أن يكمل كلماته ارتفع فى أذنيه صوت محجوب افندى وقد امتلأ بالغضب :

ــ انت كذاب ياراضى بك ٠٠

وجلس السيد/راضى ٠٠ انهار الثقل على كتفيه وصفعته الكلمات كريح ثائرة تضعضعت حواسه وأتته النهاية التى كان يتوقعها ٠٠ وشمل الضباب كل شىء ٠

واندفع محجوب يتم ما لديه :

ــ قال رفعت ورجاه قال ٠٠ رجل زى ده يضحك عليكم ؟ ٠٠ المصيبة ان عمره ماجوز ٠٠ والجماعة اللى ســألتهم فى المحافظة افتكرونى مجنون لم قلتلهم ان له ابن فى البحرية وبنت فى الجامعة ٠٠ قالولى طول عمره عازب وساكن لوحـده ولحدش يعرفه غير فى الشغل ٠٠ ومن يوم ماانحال على المعاش ماشافوش وشه ورد واحد من الجالسين متفكها :

ــ طيب وماله يامحجوبافندى ٠٠ هو انت يعنى كنت بتبطل فشر ٠٠

وعبست اسارير محجوب افندى وهو يجيب :

ـ وهـو ده قشر ده ؟ طيب انا كنت بافشر وانتم عارفين ان أنا بافشر ٠٠ لكن الراجل ده قعد ياكلكم الأونطه شهرونص ٠٠ الولد ح يجوز اجريجية ٠٠ والبنت مش عايزه تجوز ده راجل مجنون ٠٠ايه الى خلاه يألف الرواية دى كلها ؟

وطالت مناقشاتهم حتى اتفقوا على أنهم كانوا ضحية رجل خبيث استغفلهم جميعا وبحث عنه البعض ليطردوه ٠٠ وسـألوا عنه الجرسون ٠٠ ولكنه تبخر ٠

* * *

وبعيدا ٠٠ فى أقصى الغرب من شاطىء البحر ٠٠ كان يجلس ٠٠ قريبا جدا من البحر ، الشارع خال مظلم ٠٠ والليل بارد قاتم ٠٠ وصوت الموج كدقات طبول ممزقة ٠٠ والرجل يجلس فى هـدوء ويفكر فى الليل ٠٠ والبحر والدنيا ٠٠ وأشياء أخرى كثيرة ٠٠وكان تفكيره منفصلا عن ذاته ولا يتجه لاى هدف ٠٠ لم يكن يفكر مثلا فى معنى جلسته ومتى سينهض ٠٠ والى أين يذهب ٠٠ كل ما فى ذهنـه ٠٠ افكار مجردة ٠٠ وبين الحين والحين ٠٠ يصل الى قدر من الالهـام الفكرى فيقرر لنفسه ان آخرالدنيا هو البحر ٠٠ ويقرر حقائق أخرى كثيرة ثم ينساها ٠

واقتربت منه خطوات هائلة ٠٠ تدق الأرض بأقدام حديد ٠٠ كان الشرطى قد لمح من بعيـد كتلة مظلمة على سـور الكورنيش فتوجه نحـوها ولم يلتفت اليه الرجل ٠٠

ـ السلام عليكم ٠٠

ولم يرد ٠٠ الرجل حدجه بنظـرة واسعة يبدو فيها الخوف :

ـ ايه اللى مقعدك هنا يا حضرة ؟

وسمع السؤال وفهمه ولكنه لم يدر بمـاذا يجيب ٠٠ هـل يجب أن يكون هنـاك سبب لوجوده هنا ، وصاح به الشرطى : ما بتردش ليه يا افندى ٠٠ اسمك ايه ؟

وظهـر على وجه الرجـل تعبيـر من الدهشة تحول بعد لحظة الى فزع حقيقى

ـ اسمى ٠٠٠ اسمى ٠٠٠ اسـمى رفعت ٠

ـ وفجاة أشرق وجهه ٠

واقترب منه الشرطى ٠٠٠ وساله فى صوت مستريب : بتشتغل ايه يا سى رفعت ٠

ـ ظـابط ٠٠ ظـابط فى البحرية ٠٠٠ وتراجع الشرطى قليلا ثم انطلق ضاحكا ٠٠٠ وأثارت ضحكاته الرجـل فصاح : ايه ؟ ٠٠٠ أنا مش كداب ٠٠٠ مش كداب ٠

ثم خفت صوته وارتد الى داخله حتى أصبح نشيطا مكتوما ٠٠ وهز الشرطى رأسه وكأنه فهم شيئا ثم قال : يعنى كان لازم تتقل العيار كده ٠٠٠ قوللى انت ساكن فين ٠٠

ونظر اليه الرجل فى حيرة عنيفة٠٠ وراح يتمتم : بيتى ٠٠٠ بيتى ! موش عارف ٠٠٠ مش عارف وكأنمـا كان الشرطى ينتظر الاجابة فمد يده واحاط كتفى الرجـل بذراعه : طيـب تعـالى معايا ٠٠

ـ فين ؟ ٠٠

واجابه ضاحكا فى سخرية :

ـ حنتفسح شوية ٠٠٠

واستسلم له كطفل صغير ٠٠ وسارا معا ٠٠ الشرطى يعجب لأن رائحة الخمر لا تفوح من فم الرجل ٠٠٠ وهو قـد عاد للتفكير فى الليل ٠٠٠ والبحر ٠٠٠ والدنيا ٠

قصة روحي



بقلم : د. حسين كبه

عرفته قبل ثلاثة عشر عاما ، عن طريق احدى صديقاتي ، وكنت اذ ذاك قد قطعت من سني حياتي عشرين عاما. وكانت نظرتي اليه نظرة اعجاب وتقدير، فقد رايت فيه انسانا مليئا بالحيوية والشباب ، له مثله الخاصة به ، وله قيمه الانسانية التي يتخلق بها، وله من تجاربه المؤلمة ما قد صقلته وشذبت طبعه ، فجعلته جديرا بالثقة والاحترام.

وقد كانت اول انطباعاتي عنه ، انه شاب حي ، قليل الكلام ، لا يندفع بعواطفه ، ولا يصرح بما يخالج نفسه، تبدو على تصرفاته البساطة وتزينها المجاملة واللطف والثقة بالنفس . وهو ، وان لم يكن اريحيا لامعا في معاشرته ، يحبه كثيرا من تقرب منه ، وتكلم معه ، وعرفه ، واحسن فهم طبيعته . ولم يطل بي الزمن حتى جرت مراسيم خطبتي منه .

فكان « مفامر » يدعونني في ايام خطوبتي للخروج معه معا في نزهة قصيرة ، ويعرض على احيانا مشاهدة فيلم سينمائي . وكنت اتقبل منه دعوته، واقبل على ما يدعونني اليه . وقد كنا حين نخرج معا ، نشعر براحة نفسية ، تتزايد كلما اطلنا اجتماعنا ، ونتحسس بدوافع تبعث فينا الامل ، وتحفزنا على التقارب وتشوقنا الى استماع احاديث بعضنا للبعض الاخر، ومشاركة كل منا لشجون الاخر . فكان يطول بنا الحديث ساعات لا نعرف عدها ، ولن نشعر بملل قد اصابنا . بل كان الشوق يرينا ان قيم الزمان تتمثل بهذا الحديث الذي نطيله فيه . وسرعان ما تمكنت الثقة بيننا ، وآمن كل منا بمقالة صاحبه ، وصدق خبراته ومغامراته ، وما جرته عليه ايام غناه واملاكه ، وصرت اشعر بفراغ كبير كلما افتقدته ، ولن تطمئن نفسي الا أن يكون معي . ولم البث ان شعرت بانه الانسان الوحيد الذي ضمه قلبي واحتضنته عواطفي ، وكان قد اوحى الي ، آخر الأمر ، أن هذا التقارب بين روحينا ، ان هو الا الحب الذي استعرت نيرانه بين ثنايا قلبينا ، وشعرنا ان لن تستقيم لنا سعادتنا الا ان نعجل بامر الزواج . والحقيقة انني كنت واثقة من « مفامر » كل الثقة ، فهو الرجل الذي يمثل حقا دماثة الخلق

وكياسة الشخصية . وقد جمعنى واياه شعور متبادل ،وفكر مثالية متجانسة . ولم تكن لتخامرنى الظنون قط ، ان قد نصاب بخيبة امل فيما كنا قد عقدنا النية عليه ، او قد نقع فيما لم نكن نتوقعه .

وكنا نلتقى احيانا كثيرة ، وقد ننفرد بأنفسنا بعيدين عن نظار المتطفلين . ومع ان الحب كان يغمر قلبينا ، فلم يكن ليخلو اجتماعنا من نزاع واختصام . ولا يبعد ان يكون الاغراء الجنسى المتبادل بيننا قد مكن هذا الخصام ووسع نطاقه .

والواقع ان التفكير بتعجيل امر الزواج وتقريب ميعاده ، قبل ان ننهى دراستنا ، كان ضربا من الخيال ، ولذا كانت الصعوبات تتفاقم دوما ، حين نجلس نتحدث معا لنكون على بصيرة من امرنا ، وقد كنا نشتبك احيانا كثيرة فى حديثنا فيشاكس احدنا الاخر فيه ، وكانت كل صغيرة وكبيرة تقودنا الى نزاع فخصام ،قد يبعد مداهما .

واهم ما كان مثارا للنزاع ، هو اختلاف نظرتنا الاخلاقية فى الحياة . فكان « مغامر » يرى ان الانسان عليه ان يوسع افقه فى كل ما يتناول المشاكل الاخلاقية ولا يعتمد الا على نفسه ، ولا يثق بغيره ، فكانت نفسه تتقزز من كل افك او كذب او بهتان ، وتشمئز من كل تصنع ورياء . وهو الى ذلك قلما تستميله الامور الهامة التى تتعلق بمصالح الناس . ويبدو أنه كان قد اخذ بتربية الروح الانانية فيه ،فكان يرى ان من الصعب عليه ان يساير الآخرين أو يتحمل تصرفاتهم أو ينصت الى ارائهم .

فى حين كنت على نقيض منه ، اذ كان يروق لى مخالطة الناس ، ويعجبنى الاستماع الى آرائهم ، ويهمنى الصلات المتبادلة بينى وبينهم ،واهمها الصلات المعنوية والاخلاقية . وقد اثرت فى هذه النظرة العامة للحياة فطبعتنى بطابع المثاليات ، وعزلتنى عن واقع الحياة ، فاضلتنى الطريق . فكنت بهذه النظرة المثالية امثل من يرى ان ليس فى العالم انسان شرير بطبعه . وهى نظرة غرست فى الضعف والخور فى مصاحبتى الناس ومعاشرتى لهم ، فكانت تنقصنى الفكرة العملية . فلم اكن افهم ، بعد الزواج ، شيئا مما جد فى حياتى ، بل لم اكن فى الحقيقة مهيأة لحياة زوجية صحيحة .

كان كل منا يضجر من صاحبه ، ولا يستطيع احتماله . فانا لم اكن استطيع ان استسيغ انسانا يحبنى ويشاركنى حياتى ، وهو لايعنى بأهم مايعترضنى من مشاكل وآلام ، فيتركنى نهب عواصف الظروف والمصادفات . ولذلك كان كل اختلاف بيننا يوقعنا بابسط اشكاله فى دوامة من سوء الفهم . ولم يكن من السهل علينا السيطرة على انفسنا للوصول الى حل نرتضيه .

فكان ان تراءى لنا ، بعد أيام العرس مباشرة ،ان زواجنا كان غلطة لن تغتفر ويندفع « مغامر » فيقول لى مرة ، الا ترين أن حياتنا ستستمر على هذه الوتيرة من نكد العيش ؟ ، اذ يرانا الناس فى ظاهرنا نعيش معا تغمرنا السعادة ويفعم قلبينا الحب وهو غير ما نحياه على حقيقتنا ، ولا يجمل بنا أن يخادع احدنا الاخر ، ولا نريد ان يتقول الناس عنا كثيرا .

فكان الوضع يسير من سيء الى اسوأ . وطبيعي اننا لم نكن قد اردنا ان تتردى علاقاتنا الزوجية ، ويتأزم امرها . ولعل من البديهي ايضا ان لم يكن باستطاعتي التسامح معه ، ولا اغتفار قارص كلامه ، وهو الذي لم يعد يضمني اليه او يستأثر بي مرة واحدة ، فيكرس لي لحظات اختص به لنفسي ، لحظات توقظ في الحياة ، وتشعرني بحرارتها . ولم استمع منه كلمة « احبك » وقد كانت قبل هذا ملأ فمه . انها لتحلو لي ، حتى ولو لم يكن يقصدها .

ومن الغريب ان يؤول الامر بي الى ان اتبلد ، واتغابى الى هذا الحد ، ترى ايكون بالامكان انقاذ الموقف ، وتلافي ما قد بدر من غلطات الماضي !!

والواقع اننا كنا في علاقاتنا المتبادلة غير آبهين بما نقول ونعمل ، يغلب على تصرفاتنا التهور والطيش ، وتدفعنا الثقة والاخلاص ، وتتحكم فينا الصراحة والسذاجة . وقد كنا في الحالات التي يتأزم فيها الوضع بيننا نختار الطريق المريح للتوصل الى احلال التفاهم والوئام . وهو طريق المهادنة والصلح لاحلال السلام .

وحين كنت اتخذ من هذا الطريق مسلكا ، كنت اكتفي بان يقول لي ، انك محقة ، انني اشاركك الرأي فيما ذهبت اليه ، فيتراءى لي ان قد هدأت الزوبعة ، وعادت الامور الى مجاريها . ولعل من الحق ان يقال ، بأن الزوبعة قد ترى ان قد هدأت حدتها ، وهو لاشك هدوء يجب ان يقف منه الانسان حذرا ، فلا يأخذنه الغرور .

فمن السهل ان يساير المرء صاحبه ، فيقره على ما يريد وما يرتئيه ، في حين هو يضمر في نفسه غير ما اقره عليه ، وهو في الحقيقة لا يبتغي من ذلك غير مهادنته ، واحلال الهدوء والسكينة محل التنابذ والتشهير والمهاترة . واقل ما يحتمل ان يقال في مثل هذا السلوك : انه ضعة للنفس وامتهان لكرامتها . واني لعلى ثقة ، بانني لو لم احد في حينه عن هذا الطريق ، طريق الكذب والخداع لكان كل منا ، وكانه غريب عن صاحبه ، لا يمت اليه بصلة ولكانت مهادنة لا حياة فيها .

ومن يدري ، فلعلي من فقدان وعيي واضطراب نفسي وحيرتي في امري صرت افزع ان يكون بين احشائي ما لم اكن قصدت اليه . ولم يكن فزعي من اننا لما نزل بعد في الجامعة ، ولا لأن الظروف لم تكن بعد مواتية ، ولا لاننا لا نريد ان ننجب اطفالا ، بل لاني في الحقيقة لا اريد أن افتقد شيئا من جمالي . ومن يدري ما قد خبأه القدر لي ! وها هو الخوف يترصدني ، فلعلي لا اقوى على حمله ، وقد لا يبعد ان يسقط من احشائي قبل ان ينتهي الخصام بيننا .

ولم اشعر الا وانطوت هذه الايام ، فتبددت الغيوم ، وتجلى لي خلاف ماقد تصورته ، وتغيرت ظنوني فيه . اذ اخذ يرعاني ويحنو علي ، ويعنى بي ، ويهمه ان يراني . وبدا لي ان قد شغل بي وقلق من اجلي ، وتخوف من ان يصيبني سوء او ان يحتبس طبعي . فعاد لاول مرة يحمل معه باقة من زهور الياسمين ، وهو الذي لم يكن قد اعتاد هذا الاسلوب في حياته من قبل . وبدأنا نستعيد روابط الحب المشتركة بيننا ،



وعلاقات الود والاخلاص المتبادلة، وعادت شعلة الحب ، تنير لنا طريق الحيـــاة السعيدة .

وحين ولدت « شقرة » ســمحت لنفسى ان اســتمتع بجولة منعشـــة انتهت بى الى حيث يســكن ابوى ، وصعب على ابتعـادى عن « مغامر » وفراقى له . وكان هو الاخر لم يحتمل البعاد فجاء الى يسعى يحدوه الشوق ، رغم ضيق الوقت ، وضيق ذات اليد ، وعاود زيارته فى كل مرة سمحت له فيها ظروفه . فعاد اوار الحب يلهب قلبينا ، وانجذب كل منا للاخر ، جذب الصائد لفريسته ، من غير ان يكون لارادتنا اثر فى ذلك . فقد كنا نرى أحيانا صامتين لا يكلم احدنا الاخر بلسانه ، ولكننا نتحسس الحب بين قلبينا . وقد يكتفى الانسان ان يجتمع بمن يحب ويهوى ، ويشعر بقربه منه .

ولم تكن نرغب ان ننجب اطفالا ؛ ومع ذلك ، فلم تكن تلك الرغبة سهلة التحقيق . وكانت تنتابى قبل ولادة « شقرة » ثورة عارمة ، تشعرنى بالـ

نفسي ، يـكاد يفقـدني معنـوياتي ومقدساتي ، لولا ايماني بالله وتعاليمه الاخلاقية .

ولم نلبث ان فاجأنا القدر ، فلم نشعر الا وقد خانتنا الارادة ، وجانبنا الحظ ، فولدت توأمين ، ولم يكد يمر غير ربيع واحد من عمر « شـقرة » ولم تكن اوضاعنا المالية تسمح لنا بحياة كريمة، فازدادت حراجتها وتعقدت سبلها بعد ولادة هذين التوأمين . اذ كان ما يكسبه « مغامر » من رزق لا يكاد يكفي اودنا ، ولم اكن اسـتطيع العمـل لاكسب ما يساعدنا على الحياة ، فتربية أولادي وادارة بيتي قد استغرقتا كل ساعات ايامي ، ولم يعـد بيتنـا ، هو الآخر . يتسع لنا بعد ، فقد كان في ضيقه يزيد من شقائنا وتنغيص حيـاتنا ، وهكذا عادت الحياة تتأزم من جديد ، وطفقت تراودني الوساوس والاوهام . فبدا لي ان « مغامر » لم يعد يعيرني اهتمامه ، ولم يندفع لمساعدتي في اعمالي البيتية ، وبدا عليـه الضجر والسأم ، فلم يعـد يشعر بالراحة في بيته ، وكيف يجدها، وها هي زوجه ، لم تنفك تشكو وتندب حظها ، وتتأوه وتنادي بالويل والثبور . فسئم كلمنا صاحبه ، وتوترت اعصابه ولم تعد تحتمل الحياة . وتحكمت في أنانيتي ، فاندفعـت أغتنم كل لحظـة ، استلقي فيها ، واسلم نفسي لنوم عميق.

ولم اجـد ضرورة تدعوني الى ان اكون ضحية هذا الوضـع ، وسرعان مادب في نفسي شعور بالكراهية لزوجي. ولم يخطر لي ان افكر في حل هذه الازمة ولم تبدلي امكانيات اخرى تصلح ان تكون وسـطا بين فكرة التضحية التي كانت تراودني احيانا وبين فكرة الانانية كـادت تنتزع الحب من قلبي .

وسرعان ما تفتحت لي آفاق جديدة ، فبدا لي ان خير ما يمكن ان نخفف به من حدة هذه الازمات ، هو تحكيم العقل وحصر مواضيع الزوجية بنا وحدنا .

انها رحمة الله التي حلت في نفسينا ، فانقذتنا من بؤسنا ، اذ حظينا بمنزل رحب ، ورزق مبسوط ، وعادت الى نفسي الثقة والاطمئنان . وادركت ان « مغامر » يكد ويكدح ، ليوفر سـبل الحياة الرغيدة لعائلته ، فهو يضحي براحته وبجهوده لراحتنا ، وقد مرت عليه أيام كان يعمل فيها منذ الصباح حتى ساعة متأخرة من الليل ، ليقيم اودنا ، يحـدوه الشـعور في تحمـل مسئولية عائلته .

ولعلي قد تكلمت حتى الآن كثيرا عما لاقيته في زواجي من صعوبات وآلام . والحق اني ، مع كل ذلك ، قد تمتعت في غضون الاثنتي عشرة سنة ، التي قد قضيت أيامها في حياتي الزوجيـة ، بساعات حلوة لا تمحى من مخيلتي . فقد تخللتها لذائذ ومنغصات ، لم يكن لها مثيل في واقع الحياة .

فكان ان شعرنا ، انا و « مغامر » ان قد اسـتطاع كل منا ان يحسن فهم صاحبه ، ويألفه ، كلما مر الزمن . وانا الآن لو قدر لي ان أحيا حياةجديدة في هذا العالم لما اخترت ان اسلك غير هذا الطريق نفسه ، ولفضلت ان اتزوج « مغامر » ، ولحاولت في الوقت نفسه ان اتجنب الفلطات التي مررنا بها . واظنه ، هو الاخر ، يرى مثل ما قد ارتأيته .

ولولا ايماننا بالله ، وثقتنـا بعونه ورحمته ، ما كان باستطاعتنا ان نتغلب على تلك الازمات الحادة ، التي اعترضت طـريقنا ، ولما حظينا بحبنا .



سيرياليزم

بقلم : فتحى زكى

هل يمكن ان تظل عربة تسير فى طريق مزدحم بلا سائق ، ومع ذلك لا تصطدم بشيء فى طريقها .. ؟

قد نرى هذا فى أحد أفلام السينما بخدعة من الخدع .. اما ان يحدث ذلك فى الواقع فذلك ما لم أكن اتصوره ابدا .. ولكنه حدث معى .

كان التعب قد صرع عقلى وازاحه جانبا من مقعد القيادة فى راسي ومع ذلك لم اصطدم بشيء فى طريقى .. كنت تماما اشبه بسيارة فقدت سائقها فجاة .. ولكنى كنت أدرك بالغريزة اين اضع قدمى .. والى اين اتجه ..

وكانت الساعة تقترب من الواحدة صباحا وفوهة الليل قد ابتلعت فى جوفها كل ما فى المكان كأنها دوامة من الرمال المظلمة التهمت ببطء كل ماحفل به وجه النهار فى الميدان من حياة...

كنت غائبا عن الوعى تماما .. فان عقلى لم يستطع ان يصمد لمعركة الاسئلة الكثيرة التى اخذت تنهمر عليه منذ ان خرجت من الحفلة التى اقامها زميلى القديم الفنان « عصام » بمناسبة افتتاح معرضه الجديد .. اسئلة كالسياط كانت ترجم عقلى وانا اشق طريقى بلا ادراك نحو موقف الاوتوبيس ..

وفجأة وجدت نفسي فى جوف العربة .. جالسا فى مقعد بجوار النافذة اطل منها بنظرات نائمة .. لا شيء على وجه التحديد ..

كنت غارقا فى الملل .. وكانت نظراتى الضالة تزيدنى غرقا فيه .. اما بدنى فقد استكان فى خدر لذيذ للمقعد اللين الذى جلست عليه .. وكنت احس بموجات التعب وهى تغادر بدنى منذ ان جلست كما تنبعث موجات الاثير .. موجات لم يكن احد يراها .. ولا انا نفسي .. ولكنى كنت احس بها وهى تنسلخ من جسدى المكدود ، فأحس كأنى اتخفف من حمل ثقيل كاد يقصم ظهرى .. كيف استطعت ان احمل هذا الجبل الثقيل دون ان ادرى .. ؟ واين كنت احمله ؟ هل يوجد فى اعماق كل منا خزان كبير يتسع للمتاعب والاحزان فى صمت ولكنه ينهار فجأة فيجرف كل ما أمامه من السدود الاجتماعية وتتسرب موجاته من نظرات العيون الذابلة .. وتثاؤب الافواه النائمة .. وترهل الحركات المتعبة ؟ ومنذ متى احمل على كاهلى هذا الجبل ؟

اين أنت يا أمى ؟ اتراها قد نامت الآن ؟ منذ اسبوع تقريبا لم ارها مع اننى اعيش معها فى بيت واحد .. دائما اعود بالليل بعد ان تكون قد نامت .. اما فى الصباح فاننى اصحو عكر المزاج ليس بنفسي رغبة فى تبادل تحية الصباح مع احد .. وما حدث بالامس حدث اليوم .. وسيحدث غدا ..

اف .. لكم انا مرهق .. ها هو الليل قد جاء .. المارد الاسود الذى ظل طوال السنين الماضية يرهبنى منذ ان كنت طفلا .. فى طفولتى كنت انام بأحضان أمى .. كنت احتمى باحضانها من ذلك المارد .. اما الآن فان ذلك لم يعد يناسبنى .. ذات يوم منذ أعوام طويلة القت بى فى الخضم المضطرب وقالت لى : لقد كبرت يابنى واصبحت رجلا .. عليك ان تنام بمفردك .. وان تصحو بمفردك .. وان تسير فى شارع الدنيا بمفردك ..

ومنذ ذلك اليوم وأنا بمفردى وسط الزحام ..

ان كثيرا من تعاليم أمى عزلتنى عن الناس .. جعلتنى أعيش فى ناقوس مفرغ من المبادىء والافكار .. أراهم من خلال جدرانه الشفافة ولكنى لااسمع اصواتهم .. اراهم يضحكون وانا حزين .. يسخرون وانا غاضب .. يرقصون وانا متعب .. ان صلة الفهم مقطوعة بينى وبينهم ..

منذ كنت طفلا وانا احب صوت الناى .. افضله عن صوت الأكورديون المرح الذى كان زميلى عصام يجيد العزف عليه .. لا زلت اذكر منظرا كان يحدث لى كل يوم وانا فى المدرسة الابتدائية . كان الاطفال فى الفسحة يلعبون ويقفزون فى الفناء .. اما انا فكنت اقف كالحكيم المفكر بجوار السور وانا اتعجب .. كيف يمكن ان تصدر كل هذه الضوضاء من هذه الحناجر الصغيرة والابدان الدقيقة ؟ وفيم يمرحون ؟ وكنت اظل افكر فى جواب للسؤال الخالد كل يوم حتى يدق جرس الحصة فاترك وقفتى الحزينة بجوار السور وانا اعد نفسي ان استأنف التفكير فيه فى اليوم التالى وحتى الآن لم اجد جوابا له ..

اف .. انا الليلة متعب .. متعب جدا .. وساعة الجامعة العربية التى اراها من مكانى بجوار نافذة الاوتوبيس لا تريد ان تتحرك .. ها هو ذا عقرب الدقائق الكبير بعد طول اناه يتحرك حركة عرجاء ليلفظ من عمرى دقيقة .. تماما كحركة مشوهى الحرب بعد عودتهم من معركة فاشلة . هذه الدقيقة العرجاء ما اثقلها .. كم فى حياتى قبلها من امثالها .. اليست هذه الدقائق المشوهة هى ما تصنع عمرى ؟

لماذا لا يريد هذا السائق البليد ان يسير بالعربة .. انى اوشك على النوم .. سأحاذر أن أنام خشية ان تفوتنى المحطة التى اهبط فيها عادة .. كما حدث منذ بضعة أيام .. فليس معى الليلة نقود تكفى العودة الى المنزل بتاكسي .. متى تنتهى هذه الازمات المالية التى تلح على .. ليت امى لم تقلْ لى ذاك اليوم .. تلك الكلمة .. لو لم تقلها لى لما أصبحت هكذا ..

لن انسي ذاكَ اليوم .. كان يوم الخميس .. وكم كنت أحب الخميس من كل اسبوع .. كان دائما يحمل لى معه وعدا اكيدا بقرب يوم الجمعة اليوم الذى

كنت استطيع فيه النوم حتى التاسعة او العاشرة صباحا ..

ولم يكن هذا وحده هو كل ما يحببني في يوم الخميس .. فقد كان يتحلى دون أيام الاسبوع بمتعة أخرى وهي التي كنت أفوز بها في حصتي الرسم .. وهما احب حصص الاسبوع الى نفسي .. انني لا اعرف حتى الآن سر ذلك الشعور بالسعادة التي كانت تستولى على في حضور الاستاذ لطفي مدرس الرسم . اكانت ترجع الى ذلك الاعجاب الشخصي الذي بيني وبينه؟ وهل كان ذلك الاعجاب يرجع الى تفوقي الشديدفي تلك المادة .. أم ان تفوقي كان يرجع الى اعجابي باستاذي ؟ أم ان ذلك الشعور بالسعادة كان في الحقيقة يعود الى سبب آخر وهو ان حصتي الرسم كانتا آخر حصتين يختم بهما برنامج الاسبوع لننطلق بعد ذلك فرحين عائدين الى بيوتنا .. نحمل في قلوبنا الخالية احساسا دفينا غامضا بالتخفف من عبء ثقيل رفعناه على كواهلنا الصغيرة اسبوعا كاملا .. دون ان يساورنا شك في اننا سنعاود رفعه مرة أخرى .. بل ومرات ..

لست ادري ..

كان ذلك الشعور ينتابني كل خميس .. ولكن ذلك الخميس بالذات ظل يطارد ذاكرتي طوال السنين الماضية .. وما أغرب ما يتحكم يوم واحد في مصير عمر باكمله .. وما اعجب ان انسي كثيرا من تفصيلات صباي .. ولا انسي ثانية واحدة مما حدث ذلك اليوم .. بل ما اغرب ان يصبح عمري كله بعد ذلك امتدادا له .. بل امتدادا لواقعة واحدة حدثت ذات يوم منذ ثلاثين عاما .. واستمرارا لكلمة غاضبة سمعتها عندئذ من فم أمي ..

في حصة الرسم ذلك اليوم .. دخل الينا الاستاذ لطفي بتلك الابتسامة التي لم يكن ينفضها أبدا من فوق شفتيه .. كان دائما صبوحا مبتسما .. حانيا .. لانشعر معه بما كنا نشعر به مع باقي المدرسين من فارق في العمر والعقل والسلوك .. ولم يكن صوته يتضخم في سمعي أبدا حتى يستحيل الى صوت مارد عملاق .. كباقي المدرسين .. ولكنه كان ذلك اليوم أكثر من عادته اشراقا وحبا لنا .. قرأت على وجهه عند ذاك ما تعودت أن اقرأه على وجه أمي كلما رأتني .. حتى لو كان بها الف داء ..

وبعد ان تجاوبنا مع ابتسامته طلب منا الاستاذ لطفي ان نرسم موضوعا نتخيل فيه بلدتنا بعد عشرين عاما .. عندما نكبر ونصبح رجالا ..

وكانت بلدتنا بلدة فرعونية صغيرة ملقاة في اطراف صعيد مصر .. يمر عليها الزمن ولا يتوقف أبدا وكأنه لايعيرها أدنى اهتمام .. تماما كما يمر عليها ماء النيل في مجراه الطويل .. ظل يمر عليها دهورا طويلة دون أن يفعل شيئا في تماثيلها الفرعونية النائمة .. كنا لا نحس أبدا بأن للزمن علينا تأثيرا كما له على بقية البلدان ..

ولكن حادثا تاريخيا كان قد حدث لبلدتنا ذلك الاسبوع .. ولعله هو الذي جعل الاستاذ لطفي يفكر في أن يعطيناهذا الموضوع لنجوبفيه بأحلامنا التي لاتعرف لها حدودا .. فقد دخلت الكهرباء لأول مرة في بلدتنا .. واعتبر

الاستاذ لطفى هذا الحدث بداية تاريخ حقيقى يجب ان يؤرخ له فى وجداننا بموضوع كهذا ..

ورغم أننا لم نكن قد تأثرنا بعد تأثيرا حيويا بهذا الحدث الكبير .. اذ لم تكن الكهرباء قد لمست بسحرها الا الشارع الرئيسي للبلدة .. ومبنى نقطة البوليس ولم تدخل الى بيوتنا بعد .. الا اننا وقفنا جميعا ذات ليلة من ذلك الاسبوع تحت المصباح الكهربائى فى الشارع الكبير نطيل فوق الصفيح كما كنا نفعل أيام المطر .. لنرقب المصباح وهو يطلق فى وجه الظلام الذى ران دهورا صرخة تفتته الى ضياء .. وتحيل الليل الى فجر تأمره فيشرق وقتما تشاء ..

ولست أدرى لماذا جعلنى كلام الاستاذ لطفى عن هذا الحادث الكبير أسرح وأفكر فى أشياء كثيرة .. لقد قال لنا فى الفصل ان الكهرباء ستغير من كل شيء فى بلدنا .. ستحيل الاسود الى ابيض .. والركود الى حركة ونماء .. وستدفع بكل ما فى حياتنا الى الامام .. خطوات وخطوات ..

ولا اعرف لماذا جمح عقلى عندئذ .. وكأن الكهرباء قد مسته هو ايضا .. فتصورت ان الانسان نفسه سيتغير .. فانه من غير المعقول ان يتغير كل ماحولنا كما يقول الاستاذ لطفى وتظل أجسامنا على نفس الشكل والهيئة التى خلقنا بها .. وخلق بها اجدادنا من قبلنا .. ولم يكونوا يعرفون الكهرباء ..

اننى اضحك الان عندما اتذكر تلك الفكرة الجنونية التى استولت على .. لقد تصورت ان انقلابا خطيرا سيحدث فى جسم الانسان .. وهكذا رسمت الموضوع المطلوب وقد اضفت على الانسان ذراعين آخرين .. وعين ثالثة فى الجبهة .. ورابعة فى مؤخرة الراس .. كى يسمو الى احتياجات عصر الكهرباء .. وكل هذه الاعضاء الاضافية فى حركة دائبة تشبه موتور ميكانيكى لمسه ساحر .. اسمه الكهرباء ..

ولكنى اكتشفت اننى لم افعل ذلك وحدى .. بل ان زميلى عصام قد شط به عقله شططا مماثلا فجعل من الانسان مجرد رأس كبير .. كثير العيون .. واختزل باقى اعضاء الجسم الى .. تقريبا لاشيء ..

وكان الاستاذ لطفى يحتفى برسومى انا وعصام اكثر من احتفائه ببقية رسوم التلاميذ الاخرين .. لذلك فان خيبة امله التى ظهرت على ملامح وجهه وهو ينظر الى رسومنا ذلك اليوم لا زالت مرتسمة فى مخيلتى حتى الان ..

لقد غضب منى ومن عصام .. بل لقد اوشك ان يبصق على فعلتنا .. ولاول مرة تخر الابتسامة من على شفتيه صريعة.. ماذا فعلنا حتى نسبب له هذا الضيق .. بل كل هذا الحزن .. كنت اظنه سيفرح بذكائى ومنطقى .. الم يطلب منا ان نطلق لخيالاتنا العنان؟ وماذا فعلنا غير ذلك ؟

والحق .. اننى حاولت وانا اقرأ ما على وجهه من اشمئزاز .. ان اعتذر عن ذنب ارتكبته دون وعى منى فاننى كنت احب الاستاذ لطفى .. وما كنت اطيق منه هذا النفور منى .. ومن فعلته .. ولكنه نظر الى نظرة طويلة يفوح منه اليأس وكأنه يقول انه لم يرع ملكتى الفنية طوال السنوات الأربع

الماضـــــية حتى اصل الى هذا الدرك الذى انحدرت اليه ذلك اليوم .. أو كانه يريد ان يؤكد لى انه ســـيكون اول التعســـــاء لو صح ان الكهرباء والعلم والتطور ستحول الانسان الى هذا المسخ الذى صورته فى لوحتى.. لو ان هذا هو ما سينحط اليه الانسان فى العشرين سنة القادمة .. فانه على استعداد ان يقود مظاهرة قـــوامها شعب البلدة كلها لتحطيم المحطـــــة الكهربائية الجديدة .. رغم ان فرحـــة الناس بها لم تزل يانعة ..

وحزنت .. لا لانى خيبت أملَ الاستاذ فى ابرع تلاميذه .. بل لانى تسببت له فى ذلك الحزن ..

وفى البيت .. كان حزن الاســـتاذ لطفى قد وجد له فى قلبى الصـــــغير مسكنا .. وراتنى امى لاول مرة مقطب الجبين وقد التصقت بوجهى تكشـــيرة مغضنة .. ولم احس بدافع للاجـــابة على وساوسها .. كانت كلما سألتنى عما بى .. امعن فى الصـــــمت وكان حزن الاســـــتاذ لطفى قد سلب منى لســـــانى .. وارتابت امى .. هل انا مريض ؟ .. هل عاد الى ذلك الالم الذى سكن امعائى واستقر منذ ان اصـــبت بالتيفود ؟ ام ان احد المدرســـين قـــد جرحنى بكلمة ؟ واحتضنتنى..قبلتنى .. وضعتنى فوق حجرها لاخر مرة .. نعم كانت تلك آخر مرة تفعل فيها ذلك وهى تمطرنى بحنانها ..

واخيرا.. ودون ان افتح فمى اخرجت لها كراسة الرسم .. كنت اتمنى فى اعماقى تلك اللحظة الا ترى فى رسمى ما رآه الاستاذ لطفى .. كنت اريدها ان تنقذنى من احساس باننى السـبب حقا فى حزن استاذى الحبيب .. بل ان تؤكد لى اننى لســت ســببا فى ضيقه اليوم ..

ولكن .. لن انسي ما ارتســـم على وجهها من ذعر وهى ترمق الرسم وقد امتلأت عيناها سخطا .. اننى اذكر كيف ابعدتنى عن حضنها تلك اللحظة وقـــد انطلقت من عينيها شرارة الغضب .. بل اننى لازلت اذكر كيف وقفت قبالتى وقد استحالت كمارد عملاق وهى تقول بصوت غير صوتها الرقيق.. ماذا فعلت يا ولد ؟ .. هل تظن نفســـك طفـــلا حتى الآن ؟ لقد كبرت يا بنى .. ويجب ان تفكر فى كل ما تفعل .. من الان .. ما هذا الكلام الفارغ .. فكر .. فكر .. فكر .. يجب ان تفكر ..

ومنذ ذلك اليوم وانا افكـــر .. كى اعود الى احضانها .. ولكى تعود الى الاستاذ لطفى ابتسامته ..

اما عصام .. فقد عرفت ان امه لم تعنفه ذلك اليوم كأمى .. لم تقـــل له فكر .. ومرت سنوات .. وأصبح هو الان فنانا يعرفه الجميع.. وتملأ اخباره الصحف .. ولا يعود فى الهزيع الاخير من الليل البارد فى الاوتوبيس ..

اما انا .. فماذا صنعت بى نصيحة امى ؟ كيف يمكن ان تتحكم كلمة واحدة سمعتها من فمها الغاضب ذات يوم فى عمر باكمله ؟ ما اعجب النفس .. منذ ذلك اليوم وانا افكر .. واضع من الفكر وحده ناقوسا كبيرا يعـــزلنى فى فراغه عن الناس جميعا .. كيف مرت كل هذه السنوات دون ان اشعر بها.. هل كنت خلالها نائما فى الناقوس .. وهـــل حقا لا تكون الحقيقة الا اذا شعرنا بها .. ان هاتفا فى نفسي يقول

لى الآن .. ان الثلاثين عاما التى مرت منذ ذلك الخميس حقيقة .. حتى لو لم اشعر بها .. فانني اليوم فى الاربعين ..

اليوم قابلت عصام .. ذهبت اليه فى معرضه الجديد .. رايت عنده مجموعة من خيرة النقاد .. وفكرت طويلا وانا امعن النظر فى لوحاته .. فلم افهم منها شيئا .. ولكنى احجمت عن ابداء راى عندما طلب الى ذلك فقد كان من حوله يمطرونه بأحسن المديح .. ويغدقون عليه بعبارات متحذلقة ملتوية لم افهمها كذلك .. فان بينها وبين لوحاته شبها كبيرا ، بل رايت فتاة حلوة هى مشروع ناجح لسيدة مجتمع تقبله دون خجل .. كاحسن طريقة تمتلكها ..

والحق .. اننى خرجت من معرض عصام مثقل النفس بالكثير .. ظللت أسير فى الشوارع بلا هدف وكأنني كنت اريد من الظلام ان يطمس معالم الثورة التى بدات تنشب فى اعماقى .. والتى ازاحت عقلى جانبا من مكان القيادة فى راسي ..

تذكرت ذلك الخميس .. لا زال عصام يرسم ما رسمه ذلك اليوم .. الانسان بثلاثة عيون.. وخمسة اذرع.. ومجرد راس يملاه عقل كبير ..

ولكن هذا لم يحدث .. لقد املت علينا هذا الخاطر احلامنا الجامحة ونحن صغار .. ولكن الواقع الان بعد ان مرت السنوات الطويلة يؤكد انها لم تكن الا اضغاث احلام لم تتحقق .. فلم تفعل الكهرباء ولا الذرة ما كنا نتوقعه .. فلماذا يصر عصام على هذا ؟ لماذا يصرون جميعا على ان هذا هو فن الانسان العصرى .. وان فن امثالى ليس الا ترهات رجعية تتشبث بماض علينا ان ننبذه ..

وطوال سيرى فى الطرقات منذ ان خرجت من المعرض .. وانا اسائل نفسي .. لماذا .. وصورة امى الغاضبة تختلط فى ذهنى باحزان الاستاذ لطفى ذلك الخميس.. وبأحزان الفشل الذى حكم على به طوال سنوات الناقوس ..

غدا سيكتب النقاد ليشيدوا بفن عصام .. سيرفعونه فوق ما رفعته الفتاة الحلوة فى نظرى .. سيرشحونه للجائزة .. سينادون بارسال لوحاته لتعرض فى اوربا .. وسأظل انا .. كما انا .. مجرد صوت معزول عن الناس بفراغ ..

وفجاة وجدت نفسي تتمرد على سجنها .. الى متى اظل هكذا ؟ .. لماذا لا اكون مثله ؟ هل انا سعيد بالنوم داخل الناقوس .. لقد رسمت ذات يوم منذ اعوام طويلة كما رسم عصام.. فلماذا لا استرد العهد واعود لابدأ حيث انتهيت منذ ثلاثين عاما .. هل انا راض عما انا فيه ؟ .. هل امى راضية ؟ وما الذى حققته بهذا التزمت الصارم الذى فرضته على نفسي ؟ ماذا فعلت بلوحاتى التى انهكت نفسي فى خلقها وهى ملقاه فى حجرة مظلمة بالبيت كالموت بلا اكفان ..

بالامس ذهبت لابيع احدى لوحاتى.. ولكن صاحب المعرض نظر الى والى لوحتى ثم انصرف عنى .. كان من الواضح انه يريد ان يتخلص منّي .. ونظرت حولى فى معرضه فلم اجد صدى للوحتى بين المعروضات جميعا..

واحسست وانا اقف فى المكان كانتى امت الى عالم آخر .. تفصله عن هذا العالم المحيط بى اميال واميال .. فقد كانت كل اللوحات المعروضة من مذاهب فنية لا أومن بها ..

وخرجت من المعرض لاذهب الى معرض آخر .. وفى كل مرة كنت اجابه بنفس الحقيقة المؤلمة .. وهى اننى اصبحت كالنغم الناشز .. واخيرا قال لى صاحب احد المعارض : اذا اردت ان ابتاع منك لوحة .. عليك ان ترسم كالآخرين .

لماذا لا اخرج من الناقوس ليلتف حولى النقاد .. ولتنقدنى فتاة حلوة بقبلة كتلك التى رأيتها فى معرض عصام ولا اضطر للرجوع الى المنزل فى الليل البارد فى عربة أوتوبيس كسولة تتسكع بالوقوف مرة كل مائة متر .. نعم يجب .. وعندما افتتح معرضا .. ويكتب النقاد عنى اننى عبقرى من ابناء هذا الجيل .. ستعرف امى .. وسيدرك الاستاذ لطفى انهما قد ظلمانى .. وانني كنت ضحيتهما ..

وافقت من اغفاءة النوم التى اغرقتنى — رغما عن تحذيرى لنفسي — والعربة تضج بالضحكات .. كنا قد قاربنا من باب الحديد .. ونفضت عن شعورى رذاذ النوم كما تنفض البطة الخارجة من الماء ريشها لتجففه كنت اريد ان اعرف سر ضحكهم الصاخب .. ولكنى لم افهم شيئا .. كنت لازلت مسجونا فى الناقوس .. حيث تعودت ان اراهم يضحكون وانا حزين .. ويرقصون وانا متعب .. ويسخرون وانا غاضب .. وكدت انسي الامر كله لولا ان الضحكات ضيقت على الخناق وحاصرتنى من كل اتجاه

وبصعوبة استطاعت اذناى ان تلتقط من بين ضجيج الضحكات صوت طفل فى العاشرة .. تماما كما تلتقط ابرة رفيعة من بين جوال من القش .. كان الطفل يقف فى وسط العربة يلقى عليهم اغنية مرحة وهو يرقص مفتعلا طربا .. او كأنه أول المتأثرين باغنيته بين السامعين .. كنت ابحث جاهدا بعد ان سمعت كلمات الاغنية عن سر لتلك الضحكات المجنونة .. ولكنى لم اجد .. وتذكرت لوحات عصام ونظرت الى الطفل متمعنا علنى اجد فى مظهره ما يبرر هذه الضحكات بعد ان عجزت كلمات اغنيته ان تفسرها لى .. كان مجرد طفل يحاول ان يقلد مطربا كبيرا مشهورا بمواويله وهو يرتدى قميصا احمر تزينه خطوط متقاطعة .. وسروالا قصيرا .. ويرسم على شفتيه متعمدا ابتسامة هى اشبه ما تكون بحركة راقصة المولد التى تكشف عن سيقانها متعمدة لتنتشى من نظرات جمهورها وتنسيهم رقصها القبيح .. ولم اجد فى شكله ايضا تعليلا .. وشعرت بالنفور من الطفل .. كان فى وجهه شيء يعذبنى .. كان يحاول التشبه بالرجال فى حركاته وردوده على مداعبات الناس الساخرة. كان يحاول ان يتنكر لطفولته .. ايها الطفل الغبى لماذا تتعجل الزمن .. غدا تصبح رجلا وتندم على ما تنفر منه الآن ..

وكلما قال مقطعا من اغنيته .. انفجرت الالغام فى الصدور .. الغام كنت احس اننى هدف لها كانوا يريدون قتلى .. فقد كانت الافواه العديدة من حولى .. آلاف الافواه .. تفتح فى ثانية واحدة لتصوب نحو وجهى العابس .. الذى فسروا عبوسه غباء منى .. آلاف

الناس كانوا يمضون فى الضحكات وكانهم لا يستمتعون بالنكات بقدر ما يستمتعون بمضايقتى .. حتى موتور العربة وزجاج نوافذها ومقاعدها كانت تشارك فى الضجيج وكأنها تضحك هى الاخرى منى ..

واحسست بدوار شديد .. كأن الضحكات استحالت من حولى الى بحر هائج الامواج .. أمواج تهدأ لحظة لتثور من جديد كلما القى الطفل المربد من فمه كلمة .. وقذفتنى الامواج بعيدا عن حاضر العربة .. الى ميدان واسع رهيب .. مظلم .. هواؤه ثلج .. وأرضه نار .. يزدحم بآلاف الافواه التى تقدح ضحكاتها شررا فى الظلام لمهرج يقف بينهم وهو يمسك بفمه آلة سحرية تتقدهم عقولهم ..

واختنقت اذناى .. كنت فى اعماقى غريقا اوشك على الموت .. ولكنى كنت احاول ان اطفو فوق الموت ..

واخيرا التقطت القشة .. وكان صوت طفل آخر فى مثل عمر الطفل المغنى .. ولكنه ليس مثله فى اى شيء آخر .. كان يجلس وراء مقعدى فى الدرجة الثانية وقد ارتدى جبة وعمامة وقفطانا واخذ يقرأ بصوته الرفيع آيات من القرآن الكريم .. وعجبت من نفسي .. كيف لم اسمع صوته الا الآن فقط مع انه يقرأ القرآن منذ ان بدأ الطفل الآخر يقذف بسخافاته .. واوشك صوته ان يضيع مرة اخرى فقد انتهى الطفل من اغنيته وبدأ فى القاء بعض النكات .. والمستمعون يتبارون معه فى الضحكات والقفشات ..

ولكن اذنى تمسكتا بصوته كما يتمسك الغريق بالقشة .. واستدرت برأسي لاتأمله .. كان طفلا هضيم الوجه يرتدى عمامة كالحة اللون وجبة صغيرة لم اشك عندما رايتها فى انها لم تكن فى الاصل جبة .. وكانت ملامح وجهه المسكينة تحاول جاهدة مع يده اليمنى التى الصقها بخده كعادة الفقهاء ان تتسق مع ذبذبات صوته المختنق وهو ينغم الآيات بخشوع ..

واحسست بالاشفاق على الشيخ الصغير .. فقد كان يحاول كلما ارتفع ضجيج الضحكات ان يرفع صوته لينبه الناس ان الله نفسه يتكلم اليهم بصوته فلا يفلح الا فى ان يجعل عروق رقبته الدقيقة تنفر حتى توشك ان تنفجر ..

كان الجالسون حوله فى الدرجة الثانية يستمعون الى القرآن بلا انتباه ويضحكون على نكات الطفل الآخر بكل حماستهم المتبقية حتى الساعة الواحدة والنصف صباحا .. وكان الشيخ الصغير كلما تهشم صوته الرقيق فى ضجيج الضحكات الشرسة يحس بالنار تأكل قلبه .. نار هى مزيد من الحقد على الطفل الاخر والحزن على حاله والغيرة على القرآن الكريم .. فتدفعه النار الى القسوة على من حوله بآيات يذكرهم فيها بالعذاب الاليم وعقاب الاخرة والنار وبئس القرار .. وتنفر عروق رقبته اكثر فأكثر .. وكلما امعن فى القسوة عليهم ضجت ضحكاتهم على نكات الطفل الآخر وكأنهم يحتمون فى الضحكات الجوفاء مما تثيره كلمات الشيخ فى قلوبهم من خوف ..

والحق اننى ازددت غرقا .. ظللت لبضع دقائق استمع لاغرب معركة بين طفلين كل منهما يحاول ان يكسب الناس

الى جانبه بالطريقة التى يتقنها .. وظلت الآيات والنكات تتصارع حول الآذان لتشق طريقها الى القلوب .

ومن الطبيعى اننى اشفقت لحال الطفل الصغير .. كان هناك شيء غامض يربطنى بمأساته التى لم يفلح وقار الجبة والعمامة فى اخفائها .. فقد كان من الواضح .. بعد ان هللت العربة بالتصفيق للطفل الآخر .. انه قد هزم .. وان آياته لم تصمد فى المعركة .. فقد خذلتها الآذان وفضلت عليها نكات سخيفة .. وحالت اللحظة الحاسمة ..

اخرج المهرج الصغير منديلا احمر من جيبه غطى به كفه الايمن واخذ يدور على الجالسين طلبا لثمن المتعة المجنونة التى اغرقتهم بها .. ولم يكف مع هذا عن نشر تعليقاته المرحة كلما راى واحدا من الجالسين يشيح بوجهه عبر النافذة ليهرب من دفع ثمن الضحكات ..

ولا يملك الرجل الا ان يبتسم وقد ضجت العربة بالضحك من محاولة هربه التى كشفها المهرج الصغير بذكاء اكتسبه بالتجربة مع أمثاله ..

يضحكون .. ثم يبخلون عليه بالثمن .. وما قيمة القرش بالنسبة لما تمتع به كل منهم من مرح وللابتسامة التى التصقت بوجهه والتى بعد دقائق سيقابل بها زوجته بدلا من التكشيرة الجامدة التى كانت تشوه ملامحه قبل دقائق والتى تسبب احيانا بعض حالات الطلاق .. ويضحك الناس مرة اخرى .. انهم يتمسكون بذيول المرح بعد ان اوشك على الاختفاء ..

ولا يجرؤ واحد على التهرب من الدفع للطفل الماكر .. فانه يعرف كل من اضحكهم واحدا واحدا .. ولم يسمح لاى منهم بالضحك عليه ..

اما انا .. فلم يحاول ان يقف عندى عندما حاذت خطواته مجلسي ولكنه لم يمنع رغبة جامعة استبدت به ليقلد تكشيرة وجهى .. والحق .. انه استطاع عندئذ فقط ان يدفعنى الى الابتسام .. فقد كان ماهرا فى التقليد لدرجة استحال معها الاصل الى صورة ..

ولكنى سريعا ما عدت الى ضيقى وكاننى اكفر عن ذنب الابتسام فقد تذكرت الشيخ الصغير .. كان يمر بين الناس بجسده الضئيل واطراف جبته تعلق جوانب المقاعد .. وكأنها تشاركه فى الاستجداء .. اما يده الضريرة فكانت ترتد دائما اليه خالية .. يثقلها نوع مرير من الخجل كنت احسه من رعشتها عندما اقترب من مجلسي .. ولم يفلح منظره الضئيل ولا سعاله المذبوح فى ان يبعث الشفقة فى قلوب المبتسمين .. كان يقف امام كل مقعد ويمد يده المرتعدة حتى يقربها لعيون الجالسين الذين تصنعوا جميعا النعاس فجأة .. ثم يشفع كل ذلك بكلمات رقيقة هامسة فيها دعاء للناس ودعاء لله من اجلهم .. ويفشل كل ذلك فى تحريك عواطفهم نحوه .. تماما كما فشلت آياته فى النفاذ الى آذانهم .. وكلما تعدى صفا من الجالسين ازدادت ملامحه شقاء .. وكأنه يقترب من مصير مزعج بات محتوما ..

واخيرا اقترب منى .. كانت انفاس الطفل تلهث وكأنه قد ركض صاعدا جبلا عاليا والخوف من المصير المحتوم يضاعف احساسه بالتعب .. وعندما

راى نظرتى الساهمة المشفقة وجدته يتمسك بى كآخر محاولة للخلاص من الفشل .. فان هذه آخر عربة .. ولن يستطيع ان يكرر المحاولة فى عربة اخرى .. اما انا فلم استمع الى كلماته الوانية وهو يحاول معى ان ينجح فيما فشل فيه معغيرى .. وما كانت حاجتى الى كلماته .. كنت اجيل النظر بين ملامحه وقد لطخها احساس طاغ بالذل .. وبين ملامح الطفل الآخر وكان قد اقترب من الباب بعد ان انتهى من جولته الظافرة فى العربة .. واستغرقتنى المقارنة المؤلمة ..

وكانت بقايا موجات الحزن التى احتفظ بها فى قلبى رغم انهيار سد المقاومة فى اعماقى قد بدات تفيض .. لقد جسم الطفل الماثل امامى كل ما احمله فوق كتفى من جبال التعاسة .. ولم يساورنى شك وانا انظر اليه ساهما مشفقا اننى انظر الى صورة لاحزانى مجسمة .. فى شكل طفل شقى دفعه اعصار بارد الى احراش غابة تحتكرها الذئاب والاسود فى ليلة دامسة الظلمة ليبحث عن ثدى امه ..

ولولا بقية من الاتزان والخوف من اعتبارات اجتماعية غبية .. لنهضت من مقعدى لانحنى أمام الطفل الباكى مقدسا عذابه واشترك معه فى تحمله..او على على الاقل لأقبل وجناته المبللة بازكى دموع رايتها .. لعلنى بذلك ابصق على ضحكات القطيع الشرس .. ولكنى لم استطع .. كنت اخاف ان اثير بذلك موجة اخرى من الضحكات ذات الانياب .

كل ما استطعته اننى وضعت يدى فى جيبى لاخرج له بعض النقود وانا اتمنى ان احنو بذلك على الم احسست ان الطفل قد ورثه يوم ولد .

عندئذ هدات انفاس الشيخ الصغير ولمحت فى نظرته لاول مرة بريقا من طفولة مسجونة لم تجد طوال يوم باكمله فرصة للانطلاق .. وقبل ان اخرج يدى بالنقود كان الطفل الآخر قد انتهى من حملته تماما..وعندما هم بمغادرة العربة رأيته يرمق الشيخ الصغير باشفاق مفتعل لم يتقبله .. ولكنى سمعته يقول له بصوته اللولبى ..

— مش بقول لك يا شيخ محمد .. هو ده وقته .. والله لو ترقص العمة تتعشي ..

ولست ادرى لماذا جمح خيالى بعد ذلك سريعا وأنا انظر الى الشيخ محمد اتصوره كما اقترح الطفل المهرج .. وفى اقل من ثانية اخرجته من ناقوسه الذى فيه نفسه عن الاخرين وانقلب امامى منها خلع الجبة والقفطان وارتدى بدلا منها سروالا قصيرا وقميصا تزينه خطوط ملونه متقاطعة..واستبدل العمة الحالكة اللون بطرطور ضاحك ووضع على شفتيه نفس الابتسامة التى تشبه حركة راقصة المولد التى تكشف عن ساقها لتنسي الناس رقصها القبيح .. ثم اخذ يقلد الطفل الآخر الذى كان يضحك منذ دقائق فى كل ما كان يؤتيه من حركات .. واقوال وتعليقات .. بل وسمعته يغنى بنفس الطريقة الملتوية ولكن احدا لم يضحك .. غريبة .. ما معنى هذا .. لماذا لا يضحكون ..

أليس هذا هو بالضبط ما أضحكهم منذ قليل .. ما الفرق .. أم تراهم يتآمرون على الطفل المسكين .. ويصرون على دفعه نحو مصيرهالمحتوم رغم تنازله هو عن الكثير من كرامته من أجلهـــم رغم خروجه من ناقوسه القديم .. أهو قدر محتوم حقا .. ما معنى تعليقات الناس التى اسمعها .. انهم يستقبحون غناءه مع ان صوته ـ اقسم الله العظيم ـ أعذب من صوت الطفل الآخر ، واقسي من هذه التعليقـــات تعبيرات وجوههم الثلجية الميتة التى كانوا يستقبلون بها غناءه وكانهم يسحقونه سحقا ..

والحق .. اننى اشفقت على محمد وهو يقوم فى خاطرى بدور المهـــرج الفاشل .. اكثر مما اشفقت عليه وهو يقوم بدور المقــرىء التعس فى الواقع منذ قليل ..

ولم يردنى الى الادراك .. ويرد الى محمد قفطانه وعمامته..الا تلك النظرة التى رايته يرمق بها المهرج الصغير ردا على نصـــيحته المرذولة .. كانت نظرة مرة قاسية يلمع فيها اصرار غريب رغم كل ما حدث .. نظرة كانت تترجم الكثير مما فى قلب الشيخ الصـــغير من مرارة وبطولة .. وكانه يريد ان يقول للمهرج باختصار ..

ـ انا اعمل زيك..اعوذ بالله .. ده الموت احسن ..

ولكنه لم يقل شـــيئا من هذا .. بل امعن النظر فى الجالسين جميعا وكانه يبصق عليهم من عينيه كل ماكان يحتقن فى قلبه من احتقـــار .. للفكرة الذين يفضلون الهزل على كلام الله ..

واقسم اننى سمعتلنظرته تلكصدى زلزل الوجود من حولى .. ولكن احدا غيرى من المكتظين فى العربة لم يسمع شيئا .. لقد ضاعت صيحة الطفل فى طريقها اليهم وتناثرت هباء كما تناثرت كل مجهوداته السابقة فى ان يصل الى قلوبهم .. لم تصل الا الى قلبى انا ..
وانا .. من أكون .. مجرد شـــيخ آخر .. تفصلنى عنالشيخ الصغير عدة أعوام ســـبقته فيهـــا الى النوم فى الناقوس .. نفس الناقوس الذى ينام هو فيه .. مع فارق وحيد هو اننى كنت الليلة قد بلغت من القدرة على هـــذه الرقدة ومن الضعف حدا أوشـــكت معه أن أحطمه لاخرج من اغلاله .. ولكنـــه هو .. الطفل الصغير الصلب كان يجد فى الخـــروج منه ذنبا اهون منه ان يموت ..

ودعت الطفل وهو يهبط .. والعربة تسير .. بنظرة أودعت فيهـــا بعض شكرى .. اما شكرى الحقيقى له فما كنت استطيع ان احمـــله نظرة عابرة اختصرها فجأة قيام الاوتوبيس ليواصل رحلته فى قاع الليل ..

وتذكرت امى .. وكلمتها التى قالتها لى منذ ثلاثين عاما .. وحزن الاســـتاذ لطفى وكلمة الشـــيخ الطفل التى لولاها لاصبحت غدا مجرد مهرج يســـتجدى اعجاب الناس .. فلا يسخون عليه الا بالنفور والفشل ..

أمى .. هل سرقك النوم .. أم اننى سأعود الى البيتلاجدك لازلت يقظى.. أمى كم انا فى احتياج اليك الليلة .. لأواصل البقاء فى الناقوس ..

وجه على الحائط

للكاتب الانجليزي : ا . ف لوكاس
ترجمة : د . احسن فيليب

أ . ف . لوكاس كاتب انجليزى معاصر متسع الافق ومجدد يمتاز بانه كتب فى مئات من الموضوعات والأفكار المختلفة وأجاد فيها جميعا . كتب كثيرا من الروايات والقصص القصيرة ، وهو فى هذه القصص يميل الى الخلق والابتكار كما يميل فى بعضها الى الرومانتيسية المتطرفة وهى مانطلق عليها فى هذه الايام عبارة « أدب اللامعقول » . كما كتب فى أدب الرحلات كتبا عن باريس وفلورنسا وروما والبندقية ولندن . وقد نالت فصوله الممتعة من واقع حياة الناس التى نشرها فى مجلة بنش الانجليزية اعجاب القارىء الانجليزى ، ذلك لانه فى هذه الفصول يتناول تصرفات الناس ومشكلاتهم من وجهة نظره الشخصية الخاصة التى يعبر عنها بأسلوب مشوق مثير ، وهو فى جميع الموضوعات التى كتب فيها أديب خصب لا ينضب خياله ولا يجف قلمه .

وقصته هذه « وجه على الحائط » محاولة ناجحة فى ميدان الادب اللامعقول .

(المترجم)

ما زلت أشعر بالمهانة من جراء (دابنى) ، غير أن هذا الاحساس لا يعذبنى وحدى ، ولعل فى هذا بعض عزائى . كنا حينذاك نتحدث عن الحوادث الخارقة للطبيعة ـ ذلك الموضوع الذى يشد اهتمام الناس على الرغم من عدم جدوى الحديث فيه ـ وقد قص معظمنا بعض الحوادث التى لم تترك فى نفوسنا نحن السامعين أثرا كبيرا . وكان بين الحاضرين الذين لا أعرفهم رجل تبدو على وجهه الابيض سمات القلق وكان

قد جاء فى صحبة ردش وايت ، وكان هذا الرجل يصغى الى كل متحدث تمام الاصغاء دون أن يعلق بشىء . غير أن دابنى أراد أن يشركه فى الحديث فالتفت اليه وسأله عما اذا كان يستطيع أن يقص علينا شيئا من خبراته أو قصة تضم عنصرا لايمكن تفسيره .

وأطرق الرجل الغريب لحظة ثم قال « حسنا ... ان ما سأحكيه لكم ليس قصة بمعناها الصحيح ، ولكنه شىء يختلف عن معظم ما استمعت اليه منكم ... اننى أعتقد أن الحقيقة ليست أغرب من الخيال فحسب ولكنها أيضا أكثر منه اثارة للاهتمام . اننى أستطيع أن أروى لكم حادثا حدث لى شخصيا ومن الغريب حقا ان خاتمته لم تتم الا بعد ظهر اليوم » .

رجوناه أن يبدأ فقال :

« منذ عام أو عامين كنت أقطن فى شارع أرموند الكبير بيتا قديما ناحية هلبورن ، وكانت جدران غرفة نومى قد أعاد طلاءها ساكن سابق ، غير أن رطوبة المكان أدت الى افساد الطلاء وظهور بعض « البقع » ، وكانت واحدة من هذه البقع – كما يحدث فى كثير من الاحيان – تشبه وجه انسان شبها تاما ، غير ان هذا الشبه كان أكثر رقة واثارة للدهشة مما ألفناه . كنت أتطلع الى هذا الوجه حين أستلقى فى فراشى فى الصباح ، وحين أهم بخلع ملابسى وحين أنهض من الفراش ... كنت أتطلع اليه فى كل حين ، حتى أخذت شيئا فشيئا أتصوره حقيقة واقعة – زميل فى المسكن . والغريب فى الامر أنه بينما البقع الاخرى كانت تتسع وتتغير أشكالها الا ان هذه البقعة بذاتها لم يصبها شىء من هذا التغير ، فقد بقيت على حالها تماما .

وأصابتنى فى ذلك الوقت أنفلونزا حادة صحبتها بعض المضاعفات ، فكنت أقضى النهار كله بين القراءة والتأمل وفى تلك الأثناء أخذ هذا الوجه يملك على كل اهتمامى ، وأخذ احساسى بواقعيته يزداد أكثر فأكثر ... بل أستطيع أن أؤكد أنه سيطر على فكرى ليلا ونهارا ، كان الانف غير مألوف أما انحدار الجبهة فكان فريدا فى نوعه ... كان الوجه فى الواقع يختلف عن غيره من الوجوه . وجه رجل يختلف عن بقية الرجال .. واحد فى كل ألف !

ثم تماثلت للشفاء ، غير ان الوجه الذى على الحائط كان لايزال يسيطر على ، فاذا بى أجوب الشوارع باحثا عن شبيه به ، فقد كنت مقتنعا بأن صاحب هذا الوجه لا بد أن يكون حيا يرزق ، ومن ثم فلابد لى من العثور عليه ... ولم أدر لذلك سببا ولكنى عرفت شيئا واحدا : ان القدر قد ربط بينى وبين صاحب هذا الوجه . ترددت على الاماكن التى يرتادها عدد كبير من الرجال كالاجتماعات السياسية ، ومباريات كرة القدم ، ومحطات السكة الحديد عندما تصب قطارات الضواحى آلاف الركاب على العاصمة فى الصباح وتستقبلهم مرة ثانية فى المساء . غير أن هذه المحاولات جميعها ذهبت ادراج الرياح ... وقد أدركت لاول مرة كم ان وجوه

الرجال قليلة على كثرتها ٠٠٠ فبينما هذه الوجوه تختلف فيما بينها الا أنها — اذا ماصنفت — لما زاد عـــدد أصنافها عن أصابع يديك ٠

أصــبح البحث عن صاحب الوجـه لوثة ، فقد اهملت كل شيء عداه ٠٠٠ كنت أقف عند « نواصى » الطرق أتطلع الى وجوه الناس عند الزحام حتى حسبنى النــاس مجنونا وبدأ رجال الشرطة يعرفوننى ويرتابون فى أمرى ، لم أكن أحملق فى النســاء ٠٠٠ كان الرجال والرجال فقط ٠٠ هدفى ومثار اهتمامى ٠

مر الرجل بيده على جبهته كمن يحس بالانهاك ثم واصل قصته ٠٠ « ثم ٠٠٠ وجــدته أخيرا ٠٠٠ كان فى « ســيارة أجرة يتجه نحو الشرق مارا ببكاديلى ، وعندئذ اســتدرت وجريت الى جــواره مسافة قصيرة ، ثم لمحت سيارة ليس بها أحد فقفزت الى داخلهـا وأنا أقول لاهثا (اتبع تلك السيارة) ٠٠٠ وقد عمل السائق على أن يجعلها على مرأى منا حتى وصلنا الى محطة تشارنج كروس ، وعندئذ اندفعت نحو رصيف القطـــار وهناك رأيت الرجل فى صحبته سيدتين وفتاة صغيرة ٠ كانوا سيسافرون الى فرنسا فى قطــار الثانية والثلث ٠٠٠ أخذت أتحين فرصة أستطيع أن أتحدث فيها اليه ، ولكن بغير جدوى ، فقد انضم اليهم أصدقاء آخرون ثم اتجهوا الى القطار كتلة واحدة ٠

اشتريت تذكرة الى فولكستون على أمل أن الحق به على ظهر السفينة قبل اقلاعهــا ، غير أننــــا حين وصلنا الى فولكســتون ســبقنى مع أصدقائه الى السفينة حيث اختفوا فى صالون خاص يتوسط عددا من القمرات ، مما جعلنى أتحقق من أنه رجل ثرى ٠ وهكذا فشلت مرة ثانية ، غير أننى قررت أن أسافر أيضا ، فقد كنت واثقا من أنه ســوف يترك الســيدتين بعد أن تبــدأ الرحلة ويخرج للتنزهة بعض الوقت على ظهر السفينة ٠ لم أكن أملك الا أجرة السفر ذهابا الى بولونيا ، الا أن شيئا لم يكن ليستطيع أن يثنينى عن عزمى ٠٠ وهكذا وقفت أنتظر فى مواجهة باب الصالون ٠ وبعد نصف ساعة فتح باب الصــالون ورأيته يخرج ، غير أن الفتاة الصــغيرة كانت فى صحبته ٠٠٠ أخذ قلبى يدق فى شــدة حتى بدا لى أن نبضــاته تهز السفينة أكثر من محركها ٠٠٠ لم يكن هناك أى احتمال للخطأ ٠٠ كان الشبه تاما ٠ ألقى الرجل على نظرة سريعة ثم أخذ يصعد السلم الى السطح العلوى ٠٠ وحينئذ شــعرت بأن فرصتى قد حانت قلت متلعثما (معـــذرة ، أتسمح لى ببطاقتك ٠٠ هناك سبب قوى يحملنى على أن أتصل بك) ٠

بدت عليه الدهشة — ولا عجب فى هذا — غير أنه اجابنى الى طلبى ، وأخرج محفظته فى تفكير عميق وناولنى بطاقته ثم أسرع مبتعدا ومعه الفتاة الصغيرة ٠ من الواضح أنه حسبنى معتوها وراى أنه من الحكمة ارضائى ٠

وما أن تناولت البطاقة حتى أسرعت الى ركن خال من أركان السفينة لاقرأها ٠٠٠ أظلمت عيناى ، دار رأسى ، فقد



قرأت بالبطاقة الكلمات الآتية : مستر أرموند وول ثم عنوانه فى بتسبرج بالولايات المتحدة ٠٠

ثم لا أذكر ماذا حدث لى حتى وجدت نفسى فى احدى مستشفيات بولونيا حيث رقدت فيه فى حالة سيئة بضعة أسابيع ولم أعد الا منذ شهر واحد » ٠

ثم سكت الراوى ٠٠ فأخذنا نحدق فيه ثم ننظر الى بعضنا البعض وننتظر أن يكمل القصة ٠٠٠ فقد كان حديث تلك الامسية كله لا يقارن بقصة هذا الرجل الضئيل الشاحب ٠

وبعد لحظة استأنف قائلا « ثم عدت الى شارع أرموند الكبير وبدأت العمـ لأكتشف كل ماأستطيع اكتشافه ؛ هذا الامريكى الذى دخلت حياته بهـ الطريقة الغامضة ٠ فكتبت الى بعض الناس فى بتسبرج ، كما كتبت لبعض الصحفيين الامريكيين ٠٠ وترددت ع الاوساط الامريكية فى لندن ، غير أن لم أستطع أن أعرف شيئا أكثر من إ مليونير من أبوين انجليزيين استوط لندن ٠٠ ولكن فى أى مكان ؟ لم أستط أن أحصل على اجابة لهذا السؤال ٠

وهكذا مر وقت طويل ، حتى ك صباح أمس حين استيقظت متأخرا حيث أننى كنت قد آويت الى فراشى ف حالة غير عادية من الاجهاد ، وكا

الشمس قد تسللت الى الغرفة ، وحينئذ اتجهت بنظرى الى الحائط لأرى الوجه كما اعتدت أن أفعل ، ثم أخذت أفرك عينى وقفزت من الفراش فى ذعر ، فلم يكن يظهر من الوجه الا أثر باهت ، بينما كان فى الليلة الماضية واضحا كعادته حتى كاد ينطق ، أما الآن فقد أصبح شبح وجه •

نهضت وقد انتابنى احساس بالدهشة والضيق ، ثم غادرت البيت كانت النسخ الاولى من الصحف المسائية قد صدرت فقرأت فى محتوياتها « اصابة مليونير أمريكى فى حادث سيارة » • لابد أنكم جميعا قرأتم هذا الحادث • اشتريت الصحيفة وقرأت فورا ماتوقعته : بينما كان مستر أرموند وول ـ مليونير بتسبرج ـ وصحبه يقومون برحلة فى سيارة من سيزيا الى بيزا صدمتهم عربة نقل وانقلبت سيارتهم ، وحالة مستر وول خطيرة •

عدت الى حجرتى والحيرة لا تزال تتملكنى وجلست على الفراش أنظر بعينين ـ تكادان لا تبصران ـ الى ذلك الوجه على الحائط ، وبينما تعلق بصرى به اذا به يختفى تماما •

علمت بعد ذلك أن مستر وول قد توفى متأثرا بجراحه وكان ذلك كما فهمت فى نفس اللحظة التى اختفى فيها الوجه » •

ثم سكت الراوى مرة ثانية •

أخذنا نردد العبارات : « شىء عجيب حقا ••• شىء غير عادى » وكنا حقا نعنى مانقول •

واستطرد الرجل الغريب « أجل ، هناك ثلاثة أشياء عجيبة •• وغير عادية فى قصتى • الشىء الاول أن ينتج عن فساد الطلاء فى أحد منازل لندن شكل يكون ملامح رجل يعيش فى أمريكا ، وليس هذا فحسب ، بل ان يكون لهذا الشكل أيضا صلة بحياة هذا الرجل •

ولابد أن يمضى بعض الوقت قبل أن يستطيع العلم تفسير ذلك • والامر العجيب الثانى أن تكون هناك صلة بين اسم هذا الرجل واسم المكان الذى انطبعت عليه ملامحه بهذه الطريقة الغامضة ••• أليس كذلك ؟ » •

وافقناه على ماقال وعدنا الى مناقشتنا الاولى عن الظواهر الخارقة للطبيعة وقد ازدادت حماستنا ، وفى أثناء ذلك نهض راوى القصة الغريبة واستأذن فى الانصراف •

غير انه لم يكن يصل الى الباب حتى ذكرنا أحد الجماعة ـ ويسرنى أن أذكر أنه سبانتون ـ بموضوع مناقشتنا الحماسية ، وذلك حين سأله قبل أن يغادر المكان عن ذلك الامر العجيب الثالث فى قصته الممتعة قائلا : «قلت ان هناك ثلاثة أشياء » •• أجاب وهو يفتح الباب « أوه ! الامر الثالث كدت أنسى •• ان الامر العجيب الثالث فى هذه القصة انى ألفتها منذ نصف ساعة ••• مرة أخرى : « طبتم مساء » •

عندما عدنا الى وعينا أخذنا نبحث عن رد وايت الذى جاء بهذه الحية لتلدغ صدورنا •• غير انه هو أيضا كان قد اختفى !

رسالة

قصة

بقلم : ابو المعاطي ابو النجا

فى تلك الليلة كان « سمير مصمما على أن يكتب هذه الرسالة جلس الى مكتبه ، أخرج ورقة متوسطة الحجم ، ثم طلب من زوجته أن تسرع له بقدح القهوة ، وأشعل سيجارة راح يتأمل دخانها وهو يتلاشى ببطء فى جو الحجرة الراكد ٠٠ !

وقعت عيناه على مجلة « الفكر » التى أحضرها اليوم فقط دون أن يفتح غلافها ، فكر أن يتسلى بتصفحها الى أن يفرغ من قهوته ولكنه قاوم تلك الرغبة بعناد ، ففى مرات كثيرة سابقة اعتزم كتابة هذه الرسالة ، وكان يبدأ عادة بتصفح كتاب أو مجلة ثم تنتهى الليلة مع الكتاب أو المجلة ، ثم يرجىء الرسالة الى الغد ٠٠ ! ولكنه مصمم على ألا يفعل شيئا فى هذه الليلة قبل أن ينتهى من كتابة تلك الرسالة ٠٠ ! انه لا يصدق أنه يحاول منذ خمسة أعوام أن يكتب تلك الرسالة ٠٠٠ ومع ذلك فهذه هى الحقيقة ، ولكنها ليست الحقيقة كاملة ، فالرسالة التى سيكتبها الليلة تختلف تماما عن تلك التى كان يحاول كتابتها منذ خمسة أعوام لن تزيد رسالة الليلة عن سطور قليلة ، فهذا ما قرره أخيرا ليضمن أن يفرغ من كتابتها الليلة ٠٠٠ أما الرسالة القديمة فقد كان يعد لها خمس صفحات على الأقل ٠٠٠ كان يريد خلالها أن يسأل نفسه وصديقه أيضا ٠٠٠ كيف أمكن أن يحدث هذا الشىء الفظيع ؟ كيف مضى عام كامل دون أن يتبادلا رسالة واحدة ؟؟ مع أنهما ظلا طوال سنى الدراسة الثانوية والجامعية لا يفترقان !! كان يريد أن يبرر موقفه، وأن يعاتب صديقه لأنه لم يكتب له أيضا ٠٠! وقتها كان يميل الى أن يلتمس لصديقه عذرا ٠٠٠ فقد كان هو أحسن حظا منه حيث أتيح له بعد تخرجه أن يجد عملا فى احدى الصحف اليومية ، بينما عمل صديقه فى مدينة « س » !!

لا يزال يذكر هذا اليوم !! كانا متفائلين رغم ما أحسا به من مرارة لأنهما سيفترقان ٠٠٠ ومع ذلك فلم يسمح واحد منهما لهذا الشعور بالمرارة أن يظهر فى حديثه أو حتى فى ملامحه

وكان فى اعترافهما بتلك المرارة اعتراف بالخوف على صداقتهما واعتراف

بضعفها فى نفس الوقت ٠٠ ! لقد صمدت خلال أعوام طويلة لكل ما يمكن أن يحدث فى حياة شابين يجتازان مرحلة المراهقة الى الشباب ٠٠٠ كانا يتنافسان على كل شىء على الفوز فى المسابقات الأدبية ، وعلى الفوز باحدى الزميلات وعلى الفوز بحب الأدباء الكبار اللذين كانا يقرآن لهم ٠٠ ! وكانا يصطدمان ، ويتخاصمان ، ويبكيان أحيانا بالدموع ، وفى النهاية كان كل شىء يذهب ٠٠٠ وتبقى صداقتهما ٠ ! كان يربط بينهما شعور خفى بأنهما وحدهما متفوقان على كل من عداهما من الزملاء ، بحيث لم يجد أحدهما فى غير الآخر ندا لصداقته وكان هذا الشعور الغامض بأن أحدهما لن يفهمه غير صاحبه يدفعهما أحيانا لكى يتصارحا بتلك المشاعر المعقدة التى يمكن أن يحس بها أى صديقين حيال بعضهما ، والتى يحرصان فى نفس الوقت على اخفائها! يندفعان الى ذلك تحت وطأة ذلك الاحساس الغريب بالتفوق ، وكأنهما يتحدثان عن شخصين آخرين لا يمتان لهما باية صلة ، وكما يتحدثان عن شخصيات الروايات ٠٠ ! وكان شعارهما فى تلك المرحلة ، تعبر عنه تلك العبارة التى يرددانها أحيانا بنبرة ثقة واعتداد « يبدو أن الناس جميعا يتآمرون ضدنا بطريقة ما لكى نبقى أصدقاء الى الابد فهم لا يفعلون أكثر من أنهم يجعلوننى اكتشف دائما كيف أنك أفضل منهم » ٠

وحين افترقا ٠٠٠ لم يدر بخلدهما للحظة أنهما يمران بلحظة حاسمة فى حياتهما فبعد أسابيع قليلة كتب « سمير » أول رسالة الى صديقه « هـ » حاول خلالها أن يقنع نفسه وصديقه بأن شيئا فى حياتهما لم يتغير لم يشر بكلمة واحدة الى أنهما بعيدان عن بعضهما ٠٠٠ كان يثرثر معه فى بساطة وحول أشياء عادية كتلك التى كانا يتحدثان عنها حين يلتقيان فى البيت أو المقهى ٠٠ ! وجاء رد صديقه « هـ » بنفس اللهجة والاسلوب ، وبدا كأنه مقتنع تماما بأنه لم يفترق عن صديقه ، ثم انقطعت الرسائل ٠٠٠ هكذا دون مقدمات ٠٠ !

فى البداية لم ينزعج « سمير » لذلك ٠٠٠ كانت حياته الجديدة قد بدأت تشغله ٠٠٠ وتملأ كل دقيقة بالعمل والأصدقاء والمواعيد وفى الليل يتلقفه الفراش جثة هامدة ، ودائما ٠٠٠ فى نهاية كل سهرة ٠٠٠ كانت الجثة الهامدة تتذكر « هـ » !

وكان يفكر انه يجب أن يكون عمليا حتى فى صداقته مع « هـ » كان يريد أن يدعم مركزه فى الحياة الادبية ليقف على قدميه أولا ، ثم يمد يده الى صديقه ٠٠٠ فهذا هو ما يحتاجه « هـ » حقا وليس مجرد خطاب يثرثر فيه عن اى شىء !!

ولم يفكر مرة واحدة فى الوقت الذى يمكن أن يحتاجه لكى يدعم موقفه فى الحياة الادبية ٠٠٠ ويبدو كما لو أنه خدع فى طبيعة هذا الوقت ، أو على الأقل فى فهم تلك العبارة الغامضة « تدعيم موقفه » فمتى يشعر شخص ما بأن موقفه أصبح مدعما فى أمر من الأمور ؟؟

وفى الحقيقة أن أهم ما اكتشفه سمير مع الوقت كان هو سخافة أفكار كثيرة

كان يؤمن بها ، بدأ يدرك سخافة تلك الفكرة القديمة عن امتيازه وتفوقه، فقد رأى أنه لا توجد فى ذهن الناس صورة واحدة لمعنى الامتياز !!

وأنه مهما تكن تلك الصورة فمن المهم جدا أن يقتنع الآخرون بذلك قبل أن يقتنع هو به ٠٠٠ ! وأن فكرة الصديق الواحد بدت هى الاخرى أكثر سذاجة وسخفا ، وأن عليه لكى يدعم موقفه ، أن يعرف أناسا كثيرين ، وأنه يمكن أن يكون بالنسبة لبعضهم نصف صديق أو أقل أو أكثر ، وأن هذا ضرورى جدا اذا ما أراد أن يصنع شيئا لنفسه أو لصديقه ٠٠ !

وذات ليلة اكتشفت الجثة الهامدة — وهى تلقى بنظرة على نتيجة الحائط — أنه قد مضى عام كامل على آخر رسالة تلقاها من صديقه « هـ » ٠٠٠ فى تلك الليلة لم تنم الجثة ، وأيضا لم تنجح فى كتابة رسالة الى « هـ » ٠٠٠ ليلتها فكر « سمير » أنه يجب أن يصارح صديقه فى رسالة طويلة بكل التغيرات التى حدثت فى أفكاره ولكنه — ولأول مرة — وجد نفسه يخشى مصارحته !

بالتأكيد أن فى هذه المصارحة ما يمكن أن يمس شعور صديقه وكبرياءه ، وهو هناك وحيد وبعيد فى مدينة « س » !!

ولأول مرة أحس بالأسى من أجل صديقه ٠٠٠ ولكنه فكر أنه لا بد أن يكتب له ، وأن يكون رقيقا ولبقا ، بحيث يوضح له أن هذه القطيعة لم تكن أبدا بين قلبيهما ، وأن يعاتبه بقسوة أيضا على عدم كتابته ، حتى لا يدعه يحس لحظة واحدة بطعم الأسى فى خطابه ، ولكن كتابة مثل هذه الرسالة تحتاج وقتا لا يكون فيه «سمير» مجرد جثة ٠٠ ! وقتا طويلا وهادئا ينتزعه من العمل والأصدقاء والمواعيد !

فى تلك اللحظة دخلت زوجته تحمل قدح القهوة ، وألقت نظرة على الأوراق التى أمامه ٠

— ماذا ستكتب ؟

— رسالة ٠

— والقصة المطلوبة بعد غد ٠٠ !

— سأكتبها غدا ٠

— يوم واحد لا يكفى ٠

— سأبدأ فيها بعد كتابة الرسالة٠٠!

وخرجت « عايدة » ، واختفى خلف الباب الذى أغلقته « الروب » الأنيق الذى يلف جسدها بباقات من الورد بدت وكأنها تتفتح على جسدها النضير ٠٠٠ الغريب أنه فى صباح تلك الليلة التى قرر فيها أن يكتب رسالة طويلة لصديقه اكتشف وجود « عايدة » التى كانت تعمل معه فى نفس الصحيفة ، والتى كان يراها كل يوم ويتحدث معها ، ويردد مع زملائه أنها صاحبة أجمل عينين ٠٠٠ اكتشف فى هذا الصباح معنى جديدا لوجودها ٠٠ لقد قالت له ٠٠٠

— لم تحضر منذ يومين ٠

— كنت متعبا ، انفلونزا خفيفة ، الجو متقلب هذه الأيام ابتسمت عايدة ولمعت عيناها وهى تقول :

— أنت الوحيد الذى بدأت تصيف هنا ٠٠٠ كنت ترتدى القميص طوال الاسبوع الماضى ، وجئت هنا مرتين فى الليل بنفس القميص ٠٠ !

— هذا صحيح ... لو كانت أمي تعيش معي ما تركتني أفعل ذلك !

— تعيش وحدك اذن ؟

— وحدي بكل ما في هذه الكلمة من معنى .. !

بعد هذه الكلمات لم يعد « سمير » يشعر بأنه وحيد ، ولم تعد « عايدة » مجرد زميلة يراها كل يوم .. ! أصبحت كل شيء في حياته ، كيف لم يحس قبل هذه اللحظة بأنها كانت تهتم به ؟ وبأنه يحمل لها في قلبه — دون أن يدري — كل هذا الحب ...

ودون أن يدري أيضا ، وجد كل شيء في حياته يستهدف عايدة ... العمل والنجاح ... وحتى الرسالة الطويلة التي أراد أن يكتبها لصديقه فكر أن تصبح « عايدة » موضوعها الوحيد وياله من موضوع يحمل في طواياه أرق اعتذار عن هذه القطيعة انه أجمل ألف مرة من ذلك الخطاب الرقيق اللبق الذي كان من الجائز أن يفقد في بعض سطوره شيئا من لباقته فيمس شعور صديقه !!

ولكن قصة حبه لعايدة كانت كأي قصة حب في العالم تخضع لهذا الايقاع الذي يتردد دائما بين السعادة والألم ، وفيها تلك الحيرة العذبة المعذبة التي لا تدع صاحبها يستقر على حال ، والتي تدفع به أحيانا الى أن يتحدث عنها مع أقرب صديق وليس في رسالة طويلة لصديق بعيد ، لا يدري مدى استعداده لسماع هذيان انسان يحب ، صديق لا يرد لهفته بكلمة سريعة أو حديث طويل .. !

وفكر أنه من الأنسب أن تتحول الرسالة الطويلة الى خطاب رقيق يدعوه فيه لحضور حفل زواجه ... وفي هذا الحفل ، وبين الناس وأمام عروسه ، سيذوب كل شيء !!

ولكن حفل زواجه كان عملا اجتماعيا بحتا حددت وقته وطريقته والمدعوين فيه ظروف غريبة لم يخطر بباله يوما أن تظهر فجأة لتتدخل في شيء كهذا ، وبهذه القوة ، وزاد المشكلة تعقيدا أن احدى الصحف نشرت خبر زواجه ، وفكر أن صديقه ربما قرأ الخبر وربما ظن أنه لم يعد له مكان في حياته وعادت فكرة الرسالة الطويلة اللبقة تحتل مكانها في رأس سمير ، فبعد الزواج ستهدأ حياته ، سيكون له بيت ، وحين يعود اليه لن يكون مجرد جثة ، وسيكتب الرسالة ، وستكتبها معه زوجته ، وسيدعوان «هـ» لزيارة خاصة ... .

***

وفتح الباب ودخلت عايدة ... وقالت بصوت مضطرب :

— « ناهد » حرارتها مرتفعة .. !

— كيف ؟

— حين نامت كانت طبيعية ، أزحت عنها الغطا ... حاولت أن أعيده وجدت جسدها ملتهبا .

— ربما أخذت بردا .. الساعة الثامنة ... يمكنك أن تذهبي بها للدكتور .

— ألا تأتي معي ؟

— لا بد أن أفرغ من هذه الرسالة !

— كنت أعتقد أنك انتهيت منها !؟

— لا أظن أن حالة ناهد تدعو للقلق

٠٠٠ ولكن الأفضل أن تذهبى بها للطبيب ٠٠ !

وخرجت عايدة ٠٠٠ وخرج معها فقط ليطمئن على ابنته قبل أن تذهب بها للطبيب ٠٠ !

***

وعاد « سمير » ليكتب الرسالة ٠٠٠ حاول أن يغالب القلق الذى بدأ يحس به بعد أن خرجت زوجته ٠٠٠ لقد تخلص من كل شىء فى هذه الليلة ليفرغ من كتابة هذه الرسالة ، تخلص من أصدقائه ومن مواعيده ، ولكن هاهى ابنته ترتفع حرارتها فجأة ٠٠٠ دائما كان هناك شىء يحدث فجأة ، فيدفع بتلك الرسالة الى الغد ٠٠ ! الى وقت آخر ، ولكنه لن يسمح لشىء مهما يكن أن يعوقه هذه الليلة ٠٠ ! واشعل سيجارة جديدة راح ينفث دخانها بعصبية هذه المرة ٠٠ ! أحيانا كثيرة كانت تعوق هذه الرسالة أشياء صغيرة ليست أبدا مثل مرض ابنته ٠٠ ! أشياء لا يستطيع المرء أن يذكرها أمام أحد ـ غير نفسه ـ كمجرد اعتذار ٠٠٠ أشياء مثل زائر يأتى بلا موعد ، أو دعوة مفاجئة من صديق للمسرح ، أو سؤال عابر من زوجته يتحول الى ثرثرة ، أو خبر تقع عليه العين فى صحيفة قديمة فيجرنا الى قراءة أشياء لم نكن نهتم أبدا بها ٠٠ !

وأحيانا يكون الملل الذى يهبط فجأة فيجمد كل شىء !!

ولكن هذه الأشياء الصغيرة ما ان تقع ٠٠٠ ما ان تصبح جزءا من المكان والوقت حتى تدفع بكل ما عداها الى مكان وزمان آخرين !

أى قوة تكمن فى هذه الاشياء الصغيرة ؟ خلال هذه الاعوام كان يبصر هذه الأشياء ، وهى تنسج فى تتابعها البطىء خيوط حياته وتعطى هذه الحياة لونها وطابعها ومعناها ٠٠ ! وخلال هذه الأعوام كانت الأحداث الحقيقية ٠٠٠ الأحداث التى يمكن أن يقولها للناس كاعتذار عن شىء أو سبب لشىء ٠٠٠ هى وحدها التى تبدو كأطواق النجاة ٠ فحين أجرت زوجته جراحة خطيرة وهى حامل فى ابنته « ناهد » ، وحين أصيب هو فى حادث سيارة ، وفى كل مرة سافر فى رحلة صحفية أو أخرج كتابا ٠٠٠ فى كل هذه المرات كانت الرسالة الطويلة تجد مادة خصبة ، وكانت تملأ رأسه فى كل مكان ٠٠ فى الأتوبيس وفى الطريق ، فى المستشفى وفى مكان العمل ٠٠٠ ولكن ما يكاد يجلس الى مكتبه حتى يكون هناك شىء مطلوب غدا أو بعد ساعات ٠٠ ! شىء وراءه شخص يتكلم ، أو يدق جرس الباب أو جرس التلفون ، شىء يدفع بتلك الرسالة الى الغد ، فصديقه هناك ينتظر وكأنه لن يمل أبدا هذا الانتظار ، وكأنه لم يعد فى حياته سوى أن يقرأ هذه الرسالة ٠٠٠ ليصدق كل كلمة فيها ، ليهدأ ليقتنع ٠٠ ! لينتهى كل شىء !! صديقه هناك فى مدينة «س» ولن يقابله مصادفة فى الطريق ليعاتبه ٠٠ ! صديقه لم يطرق الباب بعد ، ولم يدق جرس التلفون ، وهو وحده دون كل الأصدقاء يبدو بلا صوت ، وبلا ملامح تغضب أو تعتب صديقه يتحول الى فكرة أو أمنية ، ويشحب أحيانا كما تشحب الأفكار والأحلام ويختفى من رأسه فجأة كما تختفى فكرة كانت تطاردنا فى كل لحظة ، ولكن ـ ويحدث ذلك فجأة أيضا ـ يظهر

صديقه وغالبا ما يحدث ذلك في اللحظات التي يوشك فيها أن يتسلل النوم الى عينيه ٠٠٠ ليقول له ٠٠٠

« ان رسالتك وصلتني ولكني لم أفهم منها كلمة واحدة اننا في مدينة « س » نتكلم لغة أخرى غير لغتكم وان لي هناك أصدقاء أفهم لغتهم ، وان رسالتك لم تكن تنقصنا » ٠

في هذه المرات كان سمير يفكر بان الرسالة الطويلة لن تجدي وأنها لم تعد أبدا في مستوى الموقف ٠٠! وأنه اذا كان يريد حقا أن يسترد صديقه فلا بد أن يسافر الى مدينة « س » في احدى الاجازات، وأن يقابل صديقه ، وفي مثل هذا اللقاء يمكن أن يجدا لغة مشتركة ، وأن يذللا معا الصعاب التي لا يشك لحظة واحدة في وجودها ٠٠!

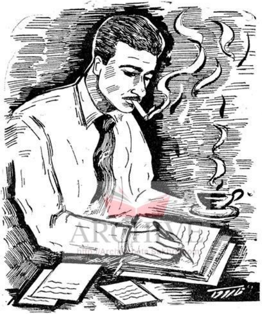
وكانت هذه الفكرة تمنح « سمير » راحة نفسية تنتهي عادة مع بداية الاجازة التي يكتشف في كل مرة أنه لم يكن ينتظرها وحده٠٠٠ فهناك أناس آخرون ينتظرون ، وفي مدن أخرى كثيرة ، هناك أبوه وأمه ٠٠٠ وأسرة زوجته٠٠٠ وشقيقته الوحيدة المتزوجة ، ويعود «سمير» من الاجازة، وتعود فكرة الرسالة الطويلة تحتل مكانها في رأسه ، ليس هناك من حل آخر ، انها الخيط الوحيد الذي لو ضاع من يده لفقد صديقه الى الابد ٠٠!

ويصبح لهذه الرسالة دوافع جديدة وغريبة ٠٠ لم يعد كل ما يهمه أن يسترد صديقه ٠٠! بل ان عليه أن يكتب الرسالة لكي يسترد احترامه لارادته٠٠! من أجل أن يشعر أنه قادر على أن يفعل شيئا تقف في وجهه جميع الأشياء ٠٠! من أجل أن ينقذ نفسه من سؤال لا يدري كيف انفجر ذات مساء في رأسه ؟

هكذا دون مقدمات وجد نفسه وجها لوجه أمام هذا السؤال ! هل هو حقا يريد أن يكتب رسالة لصديقه ؟ واذا كان يريد ذلك فلماذا لم يكتبها ٠٠٠ أجل لماذا لم يكتب تلك الرسالة ؟ هكذا كان يأتي السؤال دائما ، وكأنه صادر عن شخص آخر لايعرف شيئا عن ظروفه أو بعبارة أدق لا يعترف بها ٠!

وفي تلك اللحظة الغريبة كان كل شيء يبدو له زائفا ولا معنى له ٠٠٠ حياته ٠٠٠ وعلاقاته ٠٠٠ وكل ما يعمل ٠٠!

كان من الممكن لولا مصادفة صغيرة ان يكون هو في مدينة « س » بدلا من صديقه، وكان يتصور نفسه هناك وحيدا وبعيدا ينتظر تلك الرسالة التي لاتصل أبدا ، ويحس بهذا الانتظار وهو يتحول مع الأيام الى كراهية عميقة لهذه الرسالة، ورفض كامل لكل ما تحمل ، بل ورغبة في تمزيقها ، وتمزيق أي صلة بالحياة خارج مدينة « س » ٠٠ وكان يحس أن مدينة « س » ليست بعيدة عنه بالدرجة التي يتصور ، وانه من الممكن في أي وقت من حياته أن يصبح من رعاياها ، رغم وجوده في القاهرة وأنه في هذا الوقت تصبح مثل هذه الرسالة الشيء الوحيد الذي يجعل المرء قادرا على أن يواصل الحياة ، أجل فالمرء لا يحس أن حياته متصلة، وأنها حياة شخص واحد، الا من خلال شعوره بأن هناك شيئا يمكن أن يبقى دائما رغم كل الظروف ، شيئا نثق فيه ونطمئن اليه ، شيئا لايتغير خلال الزمن ٠!



وأمس فقط ، ضاعت الفرصة الوحيدة لكى يصنع باختياره هذا الشيء • !

كان ذلك حين زاره صديقه «رءوف» الذى عاد لتوه من مدينة « س » حيث أقيم بها معرض للكتاب العربى ••• قال رءوف :

ـ هل لك أصدقاء فى مدينة س ؟

أجاب سمير وهو يدارى قلقه :

ـ نعم !

قال رءوف :

ـ قابلت هناك مجموعة من الاصدقاء، كان معهم أشخاص لا أعرفهم ••• جاءت سيرتك ••• تحدثوا عنك بحماس كان بينهم شخص ظل صامتا طول الوقت سألته •••

ـ ألم تقرأ شيئا للأستاذ ؟

أجاب :

ـ جميع كتبه !

ـ لم تقل رأيك فيه ؟!

ـ ماذا يهم رأيي للأستاذ جمهور كبير لن أزيده أو أنقصه ؟!

ـ ولكني مهتم برأيك فهو صديقي وأريد أن أبلغه جميع الآراء في كتبه !

ـ أنا أيضا كنت يوما صديقه ، فهل ترى هذا شيئا هاما ؟

لم أدر كيف أجيبه ؟ شعرت أن في الأمر شيئا ... قلت محاولا انهاء الحديث :

ـ هل تريد أن أبلغه أي كلام ؟ قال بنبرة لا مبالية :

ـ سلامي !

***

وجد سمير نفسه بعد سماع هذه القصة يعيش في دوامة قاسية أصبح معها عاجزا عن أي شيء ... عاجزا حتى عن الشيء الوحيد الذي يمكن أن ينقذه منها ... عن كتابة رسالة الى صديقه .

وفكر في هذه الليلة أنه من المستحيل أن ينظم أفكاره المضطربة في رسالة طويلة ، ومع ذلك فلابد أن يصنع شيئا شيئا يسكت به هذا الضجيج الهائل الذي يمزق رأسه ، ولاحت له فكرة الرسالة القصيرة كطوق النجاة ... المهم أن يكتب أي شيء ! أي سطور ... المهم أن تمتد يد ، أن يتحرك شيء في هذا الفراغ ، أن تنبض كلمة أي كلمة ... ربما لو فكر منذ سنين أن يكتب رسالة قصيرة لكتب عشرات الرسائل ... ولما وجد نفسه يواجه هذا الموقف الصعب .. سيعتقد صديقه « هـ » ان هذه الرسالة ما كانت لتصله أبدا لو لم يحدث هذا اللقاء الغريب بينه وبين رءوف ! ومع ذلك فلا بد من كتابتها ... والافسيكون الأمر أكثر فظاعة لو أن هذا اللقاء لم يثمر سوى الصمت !

***

أشعل «سمير» سيجارة جديدة ... كانت علبة سجائره أوشكت النفاد قبل أن يكتب حرفا واحدا ... لا بد أن زوجته ستحضر الآن .. من الضروري أن يفرغ من هذه الرسالة قبل أن تصل ... وأمسك بالقلم في عصبية وراح يكتب :

« عزيزي هـ :

لا أدري كيف أبدأ هذه الرسالة ؟! وكيف أجعلك تصدق أنني منذ فارقتك ... أعني منذ أكثر من خمسة أعوام وأنا أحاول أن أكتب اليك خطابا طويلا يوضح كل شيء ... ولم تشهد هذه الأعوام سوى فشلي في تلك المحاولة ! ولهذا فلا أريد أن أكرر هذا الفشل لأنني حريص على أن يصلك هذا الخطاب بأي ثمن ... ساحاول هذه المرة يا صديقي أن أكتب لك سطورا قليلة ».

توقف سمير عند هذا الحد ... أعاد قراءة ما كتب ... لم يسترح لهذه البداية ... كيف يمكن أن يحس بها صديقه ؟ لا بد أن يستمر في كتابة الرسالة بأي ثمن ! لماذا تبدو الحقيقة صعبة التصديق الى هذا الحد ! ثم عاد يكتب :

« أريد أن أقول لك ... ثق أن كل شيء لم ينته بعد ... لا الوقت ولا صداقتنا ولا الرغبة في أن ننقذ مايمكن انقاذه ... انني أمد يدي اليك فلا تتركها معلقة في الهواء حاول أن تمد يدك ... وثق أنه بين يدينا ستدب الحياة في أشياء كثيرة » .

تنفس « سمير » بارتياح حين كتب هذه السطور ، الدوامة التى تدور فى راسه تتوقف فجأة ٠٠٠ لو لم يكتب حرفا واحدا بعد هذه السطور لكفى ٠!

أعاد قراءة ما كتب مرة ثانية وثالثة وفى المرة الرابعة وكانت عيناه تتوقفان عند هذه اكلمات ٠٠٠ « ثق أن كل شيء لم ينته بعد ٠٠٠أن ننقذ ما يمكن انقاذه ٠٠٠ أمد يدى اليك» ألا يمكن أن يكتب كلمات أخرى غير تلك التى يبدو خلالها كمنقذ لا يريد أن يضيع وقته ووقت من يحتاج الى عونه ٠! وعبثا حاول أن يجد فى رأسه كلمات أخرى ٠٠٠ لم يجد سوى الضجيج الذى عاد يدق رأسه مع أول احساس بالضيق من كلمات الرسالة ٠٠!

وحين دق جرس الباب ، وجد نفسه ينتفض فى فزع وكأنه يريد أن يسكت الدق ٠٠!

فتح الباب ودخلت زوجته :

ـ كيف حال ناهد ؟ ـ وحملها بين ذراعيه ـ ماذا قال الدكتور ؟

ـ اشتباه فى حمى معوية ٠٠٠ قالت زوجته هذه العبارة وهى تضع لفافة الدواءعلى المنضدة :

ـ كم تكلف الدواء ؟

ـ ثلاثة جنيهات !

حمل ناهد الى سريرها قالت زوجته وهى تسوى حولها الغطاء ٠٠٠

ـ سيتكرر الدواء وسنحتاج الى نقود ٠٠٠ حاول أن تكتب القصة فى موعدها ٠!

***

جلس سمير الى مكتبه ٠٠٠ أشعل السيجارة الأخيرة ٠٠٠ كيف يمكن أن يكتب قصة ورأسه ينتفض كالمحموم ، كيف يستطيع أن يسكت هذا الضجيج ليفكر فى مشكلة وشخصيات تتصارع مع هذه المشكلة ٠٠٠ وأن ينفعل بهذا كله ويكتبه ٠!! هو الذى يعجز عن أن يغير سطورا فى رسالة صديقه٠! وفجأة لمع فى رأسه خاطر بدا له غريبا فى أول الأمر لماذا لايكتب قصة عنوانها «رسالة» ٠٠٠ لن يحتاج الى البحث عن مشكلة او شخصيات ٠٠٠ ليس أمامه سوى أن يمسك القلم ويكتب ويكتب ٠!

وفكر أنه لو نجح فى كتابة هذه القصة ، فسيستريح دون شك وسيكف هذا الضجيج الذى يمزق رأسه ، ومن المؤكد أنه سيصبح قادرا على أن يكتب لصديقه رسالة حقيقية اذ ليس من المعقول أن تكون هذه السطور السخيفة، هى ما ينتظره صديقه بعد كل هذه السنين ٠! لا باس أن يؤجل الرسالة الى الغد ٠٠٠ لن تتاخر عن الغد بأى حال ، فمن الضرورى أن تصل لصديقه قبل أن تنشر القصة فى نهاية الأسبوع!

***

وفجأة بدت ملامحه وكأنه يشاهد منظرا بشعا للغاية ٠٠٠ وكأنما اختفى المنظر فجأة حينارتخت تلك الملامح بينما ظلت عيناه وحدهما تحدقان فى فراغ الحجرة ، وكان من يراه فى تلك اللحظة يخيل اليه أنه يتابع بعينيه حلقات الدخان المتصاعد من سيجارته التى تحترق وحدها وكأنهيريد أن يعرف أين يذهب هذا الدخان ٠؟ وكيف يصبح هكذا بعد لحظات وكأنه لا شيء !

الأبالسة

قصة

تأليف : ج . ب . بريستلي

ترجمة : عبد الرازق يسرى

شعر مستر باتسون وهو يدخل العيادة النفسية بالرضا حين جذب اليه دكتور سميث بدلا من شريكه دكتور ماينشتاين ليتولى فحصه . ودكتور سميث رجل فى الخمسين من عمره يلبس نظارة بدون اطار ويحمل فى يده قلما فاخرا اشار به الى مستر باتسون وهو جالس على مقعد امامه فى غرفة مكتبه وساله :

ـ ما عملك على وجه التحديد يامستر باتسون ؟

ـ اننى أقوم بأعمال التصدير وهو ما تشتغل به كل اسرتنا فنحن نتلقى الطلبات من الشرق الأقصى وغيره من الجهات النائية ثم نتولى شراء البضائع وتصديرها ونستفيد بوجه خاص من فهمنا للوائح الصادرات وقيود التجارة التى لا يحسن فهمها المشترون من تلك الجهات .

ـ يبدو لى انك ناجح فى اعمالك وان كان اكثر الناس وانا منهم يشكون من متاعبهم المالية فى هذه الايام . قالها دكتور سميث وهو يضحك ضحكة مصطنعة كانه ممثل فى رواية هزلية .

وهنا اشترك معه مستر باتسون فى الضحك وهو يقول :

ـ هذا صحيح .

ـ اذن نستطيع ألا نقيموزنا للمتاعب المالية بالنسبة لك .

ـ نعم . نعم بكل تأكيد .

ـ ما الذى تشكو منه اذن ؟

فقال مستر باتسون فى شىء من التردد .

ـ قبل ان اروى لك قصتى هل يمكننى ان اسالك سؤالا ؟

فقال دكتور سميث وهو مقطب الجبين :

ـ لا بأس ان كنت تظن ان فى ذلك اية فائدة .

فبادره مستر باتسون بقوله :

ـ هل تعتقد يا دكتور سميث ان هناك قوة شريرة فى هذا الكون تسعى جهد طاقتها لتدمير الانسانية مستعينة فى ذلك بأبالسة يظهرون بيننا فى صورة البشر ؟

فقال دكتور سميث :

ـ لست ارى ذلك بكل تأكيد فهذا وهم لا يؤيده اى دليل علمي وان كان من السهل ادراك السبب في سيطرة مثل هذه الفكرة السخيفة على عقل اى شخص يعانى من التوتر العاطفى ٠غير ان المجال لايتسع هنا لتفسير ذلك ٠ ويكفى ان اخبرك أنها محض خيال وان فكرة وجود قوة شريرة تكيد لنا فكرة خطرة، ولها نتائج شديدةالضرربالمجتمع فهل تدرك ذلك يامستر باتسون ؟

ـ فى بعض الاحيان حين يمكننى النظر اليها كما تنظر انت ٠ اما فى أغلب الاحيان فانى لا انظر اليها كذلك وهذا سر وجودى هنا ٠

ـ فقال دكتور سميث وهو يدون شيئا فى مذكرته :

ـ حقا لقد احسن صنعا من نصحك بطلب العلاج النفسى فأن هذه الاوهام كثيرا ما تتطور تطورات خطيرة ٠ غير انه لا داعى لازعاجك بذكر التفاصيل الفنية وحسبى ان اقول لك انك انت أو قرينتك جدير بالتهنئة على الاقدام على هذه الخطوة فى العلاج ٠ والآن من الأفضل ان تخبرنى بقصتك الكاملة دون أن تحذف شيئا قد يبدو مثيرا للسخرية اذ أنى لن استطيع ان اساعدك الا اذا كنت صريحا معى كل الصراحة ٠ وربما أوجه لك بعض الاسئلة غير أنى لا أريد بذلك الا زيادة الايضاح ٠

فاخذ مستر باتسون يستجمع ذكرياته ثم قال :

ـ منذ عام أو نحو ذلك دعانى ابن عمى الى تناول العشاء معه فى ناديه فلما انتهينا منه ذهبت الى بهو الاستراحة وهناك سمعت فيربرايت ذلك الرسام الشهير يذكر لجماعة من اصدقائه تلك الفكرة قائلا انه سمعها فى سوريا ٠

فعلت وجه دكتور سميث ابتسامة خفيفة وهو يقول :

ـ لعلك تقصد فكرة الثورة الشريرة التى تسعى الى تدمير الانسانية ؟

ـ بالضبط ٠ وقد قال فيربرايت ان الشاعر بليك كان اول من اعلن انها أخذت تعمل بيننا فى السنين الأخيرة٠

فرفع دكتور سميث حاجبيه وهو يقول :

ـ تعمل بيننا ! ماذا تعمل ؟

ـ ان هدفها الرئيسى على حد قول فيربرايت هو ان تجعل الناس يسلكون السبيل الذى سلكته الحشرات الاجتماعية فيتحولون الى مخلوقات اوتوماتيكية ،الى كتل من كائنات عديمة النزعة الفردية ، الى آلات من اللحم والدم ٠

فبدا على وجه دكتور سميث المرح وهو يقول :

ـ ولكن ماذا تقصد الثورة الشريرة من هذا العمل ؟

فاجاب مستر باتسون :

ـ انها تريد ان تدمر روح الانسانية وتمحو من الارض السرور ومحبة الحياة٠ هذا ما قاله فبرايت ٠

ـ ولكن الم تكن انت تعتقد مثل اعتقاده ؟

ـ انا لم اتمالك نفسى من الاحساس بصحة ما يقول ٠ وقد كنت قبل ذلك

لا ارى هذا الرأى ولاعبأ بهذه النظريات غير أنى بدأت ارى ان الأمور ليست على ما يرام وبعد ان كنت اعتقد ان الانسان هو الذى يوجه حياته كيف يشاء اخذت اجد شيئا فشيئا ان الناس يعيشـــون على خلاف ما يشتهون • انهم اشبه بمن يرسل ملابسه لمحل التنظيف فيعيدها له باهتـــة اللون كئيبة المنظر • هل تفهمنى يا دكتور ؟

ـ نعم • نعم • هذا صنف من الناس يعرفه الطب وقد يكون لسنك وطبقتك الاجتماعية اثر فى ذلك • فلا تنس ان الطبقة الوسطى قد تأثرت فى أعقـــاب الحـــرب من الوجهـــة الاجتماعيـــة والاقتصادية •

فأجاب مستر باتسون محتدا :

ـ هـــذا لا يعنينى فى شيء • فانا لا يضـــيرنى ان كانت هذه الطبقـــة الاجتماعية قد اصابها ضرر كثير اوقليل انما الذى اريد ان اقدره ••

ـ ان فكرة وجود قوة خفية شريرة لا تعتبر تعليلا مقنعا لتعاسة الناس •

ـ لقد ذكرت لك بداية الموضـــــوع فحسب واحب ان استكمله •

ان لهذه القوة اعوانا •

ـ اعوانا ! لعل فيربرايت هو الذى اوحى اليك بهذه الفكرة •

ـ طبعا ولكنى ارى انه لا بد لهـــذه القوة من وسيلتين لكى تجعلنا نســـلك سلوك الحشرات • احداهما ان تستخدم نوعا من الدعاية المستمرة لتمنعنـــا من الاقدام على اى امر جديد وايثار السلامة والبعد عن التأملات والقيام بالاعمـــال الروتينية والوسيلة الثانيةهى استخدام هؤلاء الاعوان •

ـ ما موقف هؤلاء الاعوان منا ؟

ـ انهم اشبه بالطابور الخامس الذى يعمل على الهدم فى كل مـــكان • فهم يكرهوننا ويمارسون العمل ضـــدنا زرافات ووجدانا ويهيىء بعضهم لبعض الوظائف ذات النفوذ •

ـ ما اسم هؤلاء ؟

ـ الأبالسة •

ـ لعلك تقصـــــد انهم مخلوقات خيالية أو اشـــباح قادرة عـــلى الشر والايذاء •

ـ قالها دكتور سميث بشيء من نفاد الصبر فأجابه باتسون :

ـ لا • لا • انا لست من السذاجة بحيث اتصور ذلك ، انهم اشـــخاص حقيقيون دائبون على العمل كالنحل •

ـ لو ان لهذه الفكرة ظلا من الحقيقـــة بحيث كان هؤلاء الاشخاص يســـعون حقا للتأثير فينا والسيطرة علينا لـــكنت يا مستر باتسون قابلت واحدا منهم على الاقل •

من قال انى لم أقابل منهم أحـــدا ؟ لقد قابلت منهم كثيرين، عشرة على الأقل من بينهم صهرى •

وفى هذه المرة لم تبد الدهشة عـــلى دكتور سميث بل أخذ يتفرس فى وجه مستر باتسون برهة ثم جعـــل يدون شيئا فى مذكرته وهو يقول :

ـ لقد قابلت عشرة منهم على الأقل•

وصهرك من بينهم ، كيف اكتشفت انه من طائفة الابالسة ؟ ٠

ـ لقد ظللت أعجب من أمر هارولد بضـــع سنين ولو أنى كنت اكرهه باستمرار فهو من اولئك الذين لايمكنك ان تفهمهم ٠ فأعمالهم لاتدل على وجود اى شعور انســانى لديهم او اى دافع يستحق التقدير ٠ انهم يتصرفون كما لو كانوا آلات اوتوماتيكية ٠

هل تدرك ماذا اعنى يا دكتور ؟

ـ يحسن ان تخرجنى من هـــذا الموضوع ٠ وحسبك ان تخبرنى عن رأيك فى هارولد ٠

ـ اجل ٠ انه عديم الاحساس ولست اجتمع به الا من اجل زوجتى ٠ حقــا ان موقفه ليس بالعدائى غير أنه لايستمع الى مثلا وانا اكلمه الا وهو متأفف واذا سألته أجابنى متثاقلا ببرود فلا أجـــد مفرا من التوقف عن محادثتــــه حتى فى شئونى الخاصة ٠ انه لا يشجعنى على الحديث معه بل يحملق فى بعينيه وهـــو صامت ٠ ومع انه مـــوظف بالمجلس البلدى من واجبه ان يعمل على ارضاء الناس الا انه يصدنى ولا يكاد يجدنى اتمتع بشىء الا ويفسده على ٠ فانا مغرم بالمعارض ولكنى اذا ذهبت الى احدها مع هارولد لا أشعر بأى متعة واذا رافقته لمشاهدة مباراة فى كرة القدم تحولت الى شىء ممل واذا دعوته الى حفلة عائليـــة صرت اعانى من وجـــوده ما اعانى واذا ذكرت له ما اعده من خطط لزيادة اعمالى بادر بتـدمير حماستى وافهامى انهـــا لا تستحق المجازفة وحثنى على أن أدع الامور تسير فى مجراها العادى ٠

كان هذا يحدث قبل ان استمع الى فكرة الابالسة فلما وعيتها بدأت اهتم بشـــئون المجلس البلدى لأرى مبلغ التأثير السيىء الذى يحدثه هارولد فى الاعضاء فكم من موظف كفء عمل هو ووكيـــل المجلس ـ وهـو من طائفة الأبالسة كذلك ـ على فصـــله أو ان استبدل به موظفا ضعيفا بحجة التوفير مع انى لاحظت أن المجلس لايراعى التوفير الا اذا اقتضى الامر الانفـــاق من أجل مقـاومة طائفة الأبالســة أما بالنسـبة للرسميات والمظـاهر فالمجلس لايعرف الوفر ، وهذا ما تشكو منه بلدتنـــا والدولة بأكملهـــا بل كثير من الدول الاخرى كذلك ٠

فقال الدكتور :

ـ ومتى اعتقدت يقينا ان هارولد من الأبسالة ؟

ـ كونت رأيى فيه بعد ان فـــكرت طويلا فيما قاله فيرابت ويعلم الله انى لم أكن اعتقد فيه ذلك من قبل ٠ واغلب ظنى ان نفسا من نفوس الابالســـة قد تقمصته وان نفوس الابالسة قد تقمصت كثيرين سواه ، فبهذا وحـده يمكن أن نعلل كثرة عـددهم فى وقتنـا الحاضر ولا ريب انهم يعرفون بعضهم البعض ويتعاونون تعاونا وثيقا ويتلقى بعضهم أوامر بعض وينفذونهـــا كما لو كانوا جيشا سريا منظما ٠

الفرصة الوحيدة الباقيـــة أمامنـا لمقـاومتهم هى كشف أمرهم للنـــاس واعلان الحرب عليهم ٠

عند ذلك تســـاءل دكتور سميث قائلا :



ـ كيف نقاوم هذا الجيش اذا كان سريا كما تقول ؟

ـ لقد فكرت طويلا فى ذلك وليس الأمر ميئوسا منه كما قد يتبادر الى ذهنك فبالبحث والاستقصاء يمكن معرفتهم كما عرفت أنا هارولد ووكيل المجلس البلدى ونحو عشرة غيرهما انى اعرف السؤال الذى يجول بخاطرك يا دكتور وهو « اذا كانوا كلهم من الموظفين العموميين • والجواب لا ولكن اكثرهم من الموظفين لأن السلطة كامنة فى هؤلاء كما ان منهم السياسيين كذلك ورجال المال • وكلهم يتسمون بتلك النظرة الخبيثة واللمسة الكريهة • ويمكنك ان تحكم على صدق ما اقول لو شاهدت مثلى مؤتمرا من مؤتمراتهم•

فقال دكتور سميث :

ـ اى مؤتمراتهم شاهدت ؟

ـ ان كنت مصرا على معرفة التفاصيل فانا على استعداد لذكرها• لقد استرقت السمع ذات يوم فوجدت هارولد ووكيل المجلس البلدى يزمعان التوجه الى قاعة موندى على بعد عشرين ميلا لحضور

مؤتمر لوضع خطة العام الجديد • ولم أعر هذا الموضوع التفـاتا فى بادىء الامر • غير انه عندما اقترب الموعدخطر لى أن أتتبعها سرا لأكتشف ما يدبره هؤلاء الأبالسة فى الخفاء فى ذلك المكان الريفى البعيد ، فذهبت اليه بالسيارة وتسللت من باب الخدم الى داخل المبنى ومن حسن الحظ لم يعبأ بقدومى احد حتى رأيت بابا مغلقا عالجته حتى فتحته فوجدته يؤدى الى غرفة لها شرفة تطل على قاعة المؤتمر • فزحفت حتى لايرانى أحد • وجعلت أطل من خـلال السور فرأيت نحو أربعمائة عضو من الأبالسة فى مؤتمرهم الجهنمى حيث تجـرى مناقشاتهم التى تحتمل دائمـا معنيين مما يجعل الأمر ملتبسا على السامع وهذا ما برع فيه الأبالسة • فهم يتظاهرون بأنهم مواطنون مخلصون ولكنهم يعملون على سلب كياننا الفردى وجعلنا نحيا حياة كحيـاة الحشرات • وقد جعلت اختلس النظرات اليهم اختلاسا لما كنت اعانيه من الرعب • فقد كنت اعلم ان اقل بادرة تبدر منى معناها الاعتقال وكنت احس بصوت زعيمهم وهو يخطب كانما ينساب الى عبر خط تليفـونى فيسرى فى دمى وعظامى قبل ان يطرق اذنى •

فقاطعه دكتور سميث قائلا :

ـ ماذا سمعته يقول ؟

ـ قبل ان اذكر ماقاله سأخبرك بشىء لن تصدقه • فعندما اختلست النظرة الأخيرة اليهم رأيت منظرا كاد يجمد منه دمى فى عروقى فقد رأيت مئات منهم وقد عادوا الى اشـكالهم الأصـلية فتحولوا الى ما هو أشـبه بحشرات شفافة لها عيون كأنها شـعلات من جهنم •

فعاد دكتور سميث يستحثه قائلا :

ـ ولكن ماذا سمعت زعيمهم يقول ؟ هذا ما اريد معرفته •

وهنا مسح مستر باتسون جبهتـه المبللة بالعرق وهو يقول :

ـ لقد سمعته يشكرهم على ما قاموا به من جهد نحو طمس صـفات الجنس البشرى • وصدقنى يا دكتور انه لم يبق لنا الا فرصة اخيرة لمحـاربتهم بكل ما اوتينا من قوة ـ قالها مستر باتسون وهو يلوح بذراعيه فى عنف •

عند ذلك ربت دكتور سميث عـلى كتفه مهدئا ورجاه أن ينتظره حتى يعود فلما تخطى عتبة الغرفة وجد دكتـور ما ينشتاين لا يكاد يملك نفسـه من الضحك عـلى ما سـمعه من خرافة الابالسة وبعد لحظة أطبق الطبيـبـان ومرضهما الضخم على مستر باتسـون فالبساه قميص المجـانين فى الوقت الذى كان يشعر فيه بلا ادنى شك انهم من الأبالسة •

الليلة السابعة

بقلم: عباس محمد عباس

فى تلك الليلة . كان عم رضوان يتنفس — ككل شيء حوله — فى صمت واسترخاء لعله يتصيد لحظات من النوم قبل ان يدهمه النهار .... وفجأة صكت السكون خبطة عمياء اذابها الصمت الكبير بسرعة وبغير اكتراث بيد ان عم رضوان انتفض على اثرها مذعورا واشعل الشمعة على عجل ليستكشف بنورها الخابى مصدر تلك الخبطة . وكان الامر كما توقع فقد اصطادت اخيرا تلك المصيدة اللعينة ذلك الفار اللعين .... واقترب عم رضوان بوجهه من المصيدة يرمق بعينه الواحدة الفار الصغير وهو يتخبط داخل سجنه بحركات مشدوهة تبحث عبثا عن الخلاص ... وفى حماس تناول عم رضوان صفيحة فارغة نهش الصدأ قلبها من ندرة الاستعمال ووضع عكازه تحت ابطه ثم انطلق خارج « الكشك » فى خطوات سريعة فبدأ — لقصر طبيعى فى ساقه اليسرى — وكانه يقوم برقصة همجية الحركات... ومن البحيرة الصناعية الصغيرة التى تتوسط الحديقة الكبيرة ملأ الصفيحة الى ما يقرب من منتصفها بالماء وعاد بثلهفا خافق القلب كأنه عاشق فى الطريق الى موعد غرامى تترصده المخاطر ...... وفى حذر فتح عم رضوان باب المصيدة فاندلق الفار فى ماء الصفيحة « يطبش » فى يأس وهلع وعيناه المستديرتان تلمعان فى راسه الرمادية الصغيرة وهى تظهر وتختفى فى الماء ومخالبه تخربش جدران الصفيحة كأنما تريد ان تحفر فيها منفذا للخلاص .... ووقف عم رضوان ظافر النظرة مهيج الخواطر يراقب الفار فى نضاله المرير .... وحينما بدأت حركات الفار تفقد حدتها وهلعها وقبل ان يستسلم تماما لمصيره انتشله عم رضوان من الماء واعاده الى المصيدة فى حركة خاطفة غير واعية .... وفى الليلة التالية سخر عم رضوان من انقاذه الفار بعد تلك الليالى المضنية التى قضاها مع مصيدته يتآمران ويفشلان ، ومن ثم ملأ الصفيحة ووضع الفار فى مائها وقد صمم على تركه يغرق ولكن حينما اوشك الفار على الغرق تماما عاد عم رضوان وانقذه من جديد ثم اعاده داخل المصيدة مع قطعة خبز ... وتكررت العملية بكل طقوسها فى الليلة الثالثة .. والرابعة ... والخامسة...

وفى صباح الليلة السادسة جلس عم رضوان خارج الكشك مستندا الى جدار اثرى قديم يطوى تحته الكشك فبدا الثلاثة — الجدار والكشك وعم رضوان — كاشياء لا مبرر لوجودها فى الحديقة .... وفى بطء مقصود لف

عم رضوان لنفسه سيجارة اخذ يجذب انفاسها فى تلاحق شره حتى توهجت بين اصابعه كجمرة النار ... وكالعادة وجد امامه « لمعى » الجنايني بقامته الربعة ووجهه الممتلىء وشاربه الكث وقميصه الكاكى المفتوح دوما على صدره برغم البرد .. وقال لمعى وعيناه تبتسمان مع شفتيه :

ــ صباح الخير يا عم رضوان .

وعلى غير العادة رد عم رضوان التحية ولكن لمعى الذى كان يحترف معاكسته استطرد بلهجة تدعى الاشفاق :

ــ امبارح ريس الجناينية قدم فيك شكوى علشان ماتنامش هنا لان الكشك ده مخزن موش لوكاندة !

وكظم عم رضوان غيظه المعتاد يحاول ان يشترى بصمته صمت لمعى ، ولكن لمعى استمر فى ثرثرته الضاحكة يضيف الى اكذوبته المزيد من التفاصيل حتى انهارت قدرة عم رضوان على الاحتمال فانفجر يشتم ويلعن لمعى بالفاظ غريبة وصوت جهير فقدت نبرته كل اتزانها. بينما وقف لمعى الى القرب منه ويداه فى خاصرته وبين شفتيه ابتسامة ساخرة بدت وكانها لن تغادر مكانها الى الابد ... واراد عم رضوان أن يحسم الموقف فمد يده الى جواره يريد أن يقذف لمعى بعكازه ولكنه اكتشف أن العكاز ليس فى مكانه .... وهنا جرى لمعى ضاحكا وانضم الى باقى الجناينية يحكى لهم المقلب بنفس مرتاحة وهم يتفرقون فى انحاء الحديقة لمباشرة اعمالهم بينما ظل عم رضوان يبحث عن عكازه حتى وجده معلقا على فرع شجرة يتارجح كجثة مشنوقة فأخذه فى غضب مقهور وشتائمه تتعالى بلا حساب لاعنة الايام السوداء التى جعلته يعمل حارسا فى هذه الحديقة ، وأمه التى انجبته لكل هذا الشقاء . بل ان النائب الذى ساعده فى الحصول على هذا العمل نال هو الآخر مالا يستحق من الشتائم واللعنات .... وعند الظهر استطاعت اشعة الشمس أن تفتح لنفسها فى سقف السحاب ثغرة غمرت منها الحديقة بدفء ناعم أغرى عم رضوان بالاستلقاء على النجيل الرطب ، وسرعان ما اسلمه الارهاق الى النوم اكثر من ساعتين استيقظ بعدها على صوت طرى ينادى :

ــ مجدى .. خليك بعيد عن السلك

وفتح عم رضوان عينيه ليبصر صاحبة ذلك الصوت الطرى وكانت زينب تلك المربية السمراء ذات الجسد الانثوى الفائر المحشور دوما فى فساتين ضيقة وقد جلست قبالته على مقعد خشبى اخضر بلون النجيل الذى يغطى الارض خلفها حيث كان مجدى يلعب بكرته الملونة ... وكالعادة استقرت نظرات عم رضوان على ساقى زينب ، وكالعادة ايضا ابتسمت زينب وهى تلقى على عم رضوان نظرة سريعة مستمرئة وتجاهلته بعدها تاركة ساقيها نهبا لنظراته الزانية .... وبصق عم رضوان بلا سبب ولعن فى سره زينب وساقيها اللتين لا تستقران على حال ولا تخجلان من العيون حتى ولو كانت عيونه هو... وبغتة قام عم رضوان صارخا كوحش تلقى طعنة قاتلة :

ــ يا ولد ابعد عن حوض الورد .

وكان الولد بالفعل بعيدا عن حوض الورد ولكن هذا لم يعفه من ضربة

شديدة صفعه بها عم رضوان على ظهره فأخذ الولد الضربة وفر بها مفزوعا وشتائم عم رضوان تتعقبه فى ضجيج ليس له ما يبرره .... وجاء لمعى ، وكما يحدث دائما استطاع ان يجد الى جوار زينب ما يمكن أن يعمله فراح يشذب فى حماس مصطنع حافة النجيل بمقص كبير أخذت ضرباته الفارغة تطن بطقطقة عالية ..... وبسرعة اندمجا — زينب ولمعى — فى حديثهما المعتاد بالكلمة والنظرة والاشارة وربما اللمسة .... وأفاق عم رضوان على كراهية غير مسببة تملأ نفسه حتى حافتها نحو لمعى وزينب والنجيل الاخضر والسماء التى بدأ يعاودها الغيم من جديد ... وبلا مناسبة قال عم رضوان :

— انتى يا بنت .. خدى الولد وروحى الدنيا برد عليه النهاردة .

وابتسمت زينب فى غير غضب ولمعى يجيب عنها :

— والله ما حد بارد الا انت .

ووقف عم رضوان عدة لحظات ينقر لمعى بنظراته الغاضبة ثم بصق على الارض فى اتجاهه بصوت مسموع وحمل عكازه وكراهيته وسار بخطواته المترنحة حتى استقر عند طرف الحديقة المقابل وامامه امرأة صغيرة الجسد بيضاء البشرة . انيقة الثياب تتحرك بين يديها ابرتى التريكو فى نعومة وعيناها تحتضنان — بنظرات مليئة بالرضا — طفلها القابع الى جوارها فى عربته الصغيرة السوداء ... وتمنى عم رضوان ان تكون له زوجة مثلها نظيفة ورقيقة . تعيش معه فى منزل نظيف وجميل .... وهرش عم رضوان ظهر كفه ... ثم صدره ... ثم اخذ يهرش كل جزء فى جسده واحساسه بالقذارة يبتلع كل مشاعره الاخرى ... ومرة ثانية لف لنفسه سيجارة وقبل أن ينتهى منها سمع همسا يدور خلفه :

— ما بلاش الدموع دى أمال

— يعنى أسيبهم يجوزونى على كيفهم ؟

— انا مقدرش أعيش من غيرك يوم واحد !

— ولا انا ... ولا انا ...

وتفتحت كل نفس عم رضوان لاستنشاق ذلك الحديث المعطر الباكى الذى يأتى اليه من خلف الحاجز الذى صنعته النباتات المتسلقة والذى يسميه الجناينية « ركن العشاق » لانعزاله عن باقى الحديقة مما يحميه من العيون .. وفى خفة اقترب عم رضوان من الحاجز ومن ثغرة يعرفها جيدا بين الفروع المتشابكة كأنما تقوم بعراك ابدى أخذ يراقب ما يجرى ... كانت الفتاة صغيرة وجميلة تلف رأسها فى منديل رقيق سمح لخصلة كبيرة من الشعر ان تستقر على جبينها وكان الفتى يجلس الى جوارها على المقعد كتفه فى كتفها وعيناه فى عينها وقد ارتدى « بلوفر » من الصوف الاسود تناثرت عليه نجوم بيضاء ... كان شبابهما حلوا ... حلوا الى اقصى درجة حتى بدا منظرهما فى عتمة الغروب المهاجمة كلوحة طازجة الالوان .. وقالت الفتاة بنبرة مخضبة بالدمع :

— انا حموت نفسي اذا ....

وقاطعها الفتى بأن وضع انامله

المرتعشة على فمها ... وتلقفت الفتاة كفه وراحت تغمر أطراف أصابعه بقبلات رقيقة متلاحقة ... وفجــــأة صرخ عم رضوان :

ـــ يا مجرمين

ثم استدار فى أعقاب صرخته حــول الحاجزوامسك بالفتى وهو يتابع صراخه:

ـــ انا حوديكم فى داهية ياملاعين.. انتم فاكرين نفسكم فين .. انتم ... انتم .. وتجمع الكثيرون ... وانطلقت من بينهم كلمات الاستفسار والاستهجان والاستعطاف تملأ الجو والفتى يقــاوم الموقف بفلول شجاعته والفتاة تهدىء فتاها ودموع مرتاعة تملأ عينيها ، وعـم رضوان يصرخ بصوت عال أفرغه الغضب من كل محاســـنه .... وجاء لمعى وخلفه زينب ... وفى هدوء وقــوة استطاع لمعى أن يفك قبضة عم رضوان عن صــدر الفتى ... وانصرف الفتى وخلفه الفتاة تدفعه كلما توقف وما اكثر ما توقف ناظرا خلفه يطمن عم رضوان بنظرات جارحة ومجروحة ... وتفرق الجميع ... وفى خطوات متعبة جر عم رضوان نفسه الى داخل الكشك واغلقه عليه وجلس صامتا متكوما .... حتى جاء عليه الليل .. وكان الجو باردا وفروع الاشــــجار فى الخارج تئن من ضربات الهواء بخشخشة جريحة ضاعفت من احساس عم رضوان بالوحشـــة والكآبة فاندفع يلعب مع الفأر لعبتـــه القاسية .. وكلما انتهت اللعبة يعاودها من جديد بضراوة اكثر وهو يراقب الفأر بنظرات فيها لون الدم ولون الصـــديد والليل يمضي بينما الامطار فى الخـــارج تهمى بشدة والحاح ... وفى المـــرة الخامسة ـــ وربما السادسة ـــ التى كان يقوم فيها عم رضوان بلعبته القاســـية مع الفأر سمع طرقا على الباب .وكذب اذنيه بادىء الامر ولكن الطرق كـــان حقيقيا فأخفى الفأر ثم فتح الباب . وقبل أن يجمع نثار نفسه كانت « وردة » قد خطت داخل الكشك وهى تقول :

ـــ اصلى مالقيتش حته استخبى فيها من المطر الا هنا .... والا فيه مانع ؟

وكان لديه ألف مانع الا ان المفاجـــأة افقدته القدرة على الكلام فأغلق الباب فى صمت حائر ثم جلس فى احد الاركان ينظر اليها فيما يشبه البلاهة وهى تجلس على الارض بعدان خلعت ملاءتها السوداء المبللة بماء المطر ... فمن كان يصـــدق أن وردة التى تبيع جسدها فى أحراش الحديقة الواسعة بقادرة أن تقترب مجرد الاقتراب من عم رضوان بعد تلك المعارك القاسية التى خاضتها ضده حينما أراد أن يطردهـــا دفاعـــا عن « شرف » حديقته .... وتململ عم رضـــوان فى ضيق وهو يتذكر شتائم وردة الفاجرة وطريقتها فى العراك التى اجبرته على ان يوقع معها معاهدة غـــير مكتوبة بأن يتجاهل ويتحاشي كل منهما وجـــود الآخر ... ودقق عم رضوان النظر فى وردة كان يراها لاول مرة بوضوح تحت حفنة الضوء تلقيها عليها الشمعة فبدت له حقيقة عمرها الذى ضم قبضته على مايقرب من الخمسين عاما لم تســـتطع اخفاء وجودها صبغة الشعر الفاضحة، ولا السنة الذهبية التى تبرق فى مقدمة فمها .. ووسط الصمت الذى امتد بينهما باردا كالثلج موحشا كجوف منجم مهجور انفجرت وردة باكية فى صوت أقرب ما يمكن الى مواء القطط . وشـــعر عم رضوان بالدهشة والضيق وهم بطردها

ولكنه قال لها بصوت لم يكن هو سيده :

— مالكَ ؟!

واجابته وردة بمزيد من البكاء فتقدم منها غاضبا وبعنف لم يقصده امسك بذراعها . فسكتت عن البكاء ورفعت نحوه عينيها مبللتين بالدموع وبينهما نظرة منكسرة كانما تريد ان تشحذ بها شيئا .... وارتبك عم رضوان وقال واصابعه تلين على ذراعها :

— مالكَ يا بنت الناس ؟

فقالت وردة فى صوت خفيض.... خفيض جدا :

— تعبت خلاص .... اول امبارح روحت زى ما جيت ... وامبارح بوليس الآداب كان مالى الجنينة ....والنهاردة اديك شايف المطر مش عايز يبطل . الدنيا وحشه ... وحشه خالص ...

ولم يجد عم رضوان ما يقوله فجلس الى جوارها صامتا ... ولما طالت به الجلسة ولم يجد شيئا يفعله حاول ان يقوم فامسكت به وردة — ربما من غير قصد — فعاد الى مكانه بلا كلام ولحم كتفها يضغط على لحم كتفه وبين عينيهما نفس النظرة المنكسرة التى تبدو وكانها تريد أن تشحذ شيئا .....

وفى الصباح الباكر وبعد ان رحلت وردة بوقت قصير . وقف عم رضوان امام الكشك يراقب بنظرات هادئة السماء التى ما زالت تكتظ بكتل السحاب السمراء ، وطرقات الحديقة الموحلة ، والاشجار المبللة الجذوع ، والازهار المنقطة ببقايا المطر .... وشعر عم رضوان بكل ما حوله مغسولا طازجا فامتلأت نفسه بحيوية طارئة دفعته الى السير فى الحديقة فترة طويلة من الوقت يصفر بفمه « ويشوط » الحصى بعكازه .... وحينما عاد الى الكشك اجتاحته رغبة غير مفهومة فى ان يطلق سراح الفار السجين .... وبلا تفكير كثير اخرج عم رضوان المصيدة من مخبئها ووضعها على عتبة الباب ... وفى حذر فتح باب المصيدة وحبس انفاسه فى انتظار خروج الفار الى الحديقة الواسعة .... ولكن الفار لم يخرج لانه كان قد مات .

حلم بلد غريب

بقلم : جراهام جرين
ترجمة : ابراهيم سوريال

كان بيت الهر بروفيسور محجوبا من جميع الجهات بستار من أشجار الصنوبر المزروعة وسط صخور رمادية ضخمة · وكانت المسافة بين البيت والعاصمة لا تزيد على عشرين دقيقة بالسيارة على طريق ضخم تتركه السيارة لتنعطف نحو الشمال بضع دقائق أخرى ، ورغم ذلك فانك تحس أنك موجود في أعمق أعماق الريف ، اذ يخيل اليك أنك خلفت وراءك المقاهي والاوبرا والمسارح على مبعدة مئات من الكيلومترات ·

وقد ترك الهر بروفيسور الخدمة منذ سنتين عندما بلغ الخامسة والستين ، فقد انتهى عندئذ عمله في المستشفى وأغلق عيادته في المدينة ، وعمله الآن قاصر على بعض المرضى المحظوظين الذين لابد لهم — لكي يصلوا اليه من ان يمتلكوا سيارة ، اما اذا كانوا من الفقراء (فهو لم يحتفظ بعملاء أغنياء قليلين فقط) فانهم يأخذون الحافلة ثم يتركونها ليقطعوا باقي الطريق سيرا على الأقدام ، فيبلغوا الأشجار والصخور بعد عشر دقائق .

في ذلك اليوم كان هناك واحد من هؤلاء العملاء الفقراء في عيادة الطبيب منتظرا معرفة مصيره · وكان أمام غرفة الانتظار حاجز هو عبارة عن باب يتداخل مصراعاه بعضهما في بعض ويفتح على صالة كبيرة لم يكن المريض قد دخلها من قبل · وكانت هناك مكتبة من الخشب الثقيل الداكن مملوءة بمجلدات داكنة ثقيلة أيضا ، يبدو أنها جميعا تتناول الطب (اذ لم يحدث أن أحدا رأى الهر بروفيسور يهتم بمؤلفات أقل دسامة ، أو أن أحدا سمعه يبدى رأيا ، حتى لو كان الرأى المطلوب يتناول أكثر الكتاب الكلاسيك احتراما . ولقد سئل يوما عن تسمم مدام بوفارى فاكد أنه لم يسمع اطلاقا عن كتاب مدام بوفارى هذا ، كما ابدى مرة اخرى نفس الجهل فيما يتعلق بعلاج مرض الزهرى في أشباح ابسن) . وقد كان مكتب هذا الطبيب داكنا ثقيلا مثل مكتبته ، والواقع ان مكتبا كمكتبه كان هو وحده الذى يستطيع — دون أن يتحطم — تحمل ذلك التمثال المصنوع من البرونز

المصبوب والذى يزيد ارتفاعه على قدم، والذى يستخدمه البروفيسور لتثبيت الأوراق . والتمثال لبروميثيوس مقيدا الى صخرته بينما انغرس فى كبده منقار نسر منشور الجناحين (وكان يحدث أحيانا أن يشير الطبيب الى التمثال فى مزاج بارد ، اذا ما أعلن لأحد العملاء اضطرابا ما فى الكبد) .

كان المريض يلبس بذلة من الصوف قديمة جدا وان كانت لا تزال تحتفظ بمسحة من أصل عريق ، وكانت أطراف أكمامها مستصلحة — أما حذاؤه السميك ذو الرقبة فقد خدمه مدة طويلة ، وكان المريض قد علق فى الممر معطفا ومظلة مطر ، وكان هناك تحت المظلة زوج من الأحذية التى تلبس فوق الحذاء العادى للسير فوق الجليد وكانت آثار الجليد لا تزال عالقة به .

كان عمره فوق الخمسين ، قضى حياته كلها خلف مكتب صغير فى أحد المصارف، وبفضل دأبه وأدبه وصل الى مركز صراف ثان ، وما كان فى استطاعته أن يصبح الصراف الأول ، اذ أن هذا الأخير كان يصغره بخمس سنوات على الأقل .

أما الهر بروفيسور فكان ذا لحية رمادية قصيرة ، يلبس نظارة باطار من الصلب من الطراز القديم ، وعلى يديه المكسوتين بالشعر نوعا ببقع بنية من أثر السنين . واذ كان نادر الابتسام فلم تكن هناك فرص كثيرة لرؤية أسنانه القوية السليمة . وبينما هو يداعب برونز بروميثيوس قال بصوت ثابت :

— فى زيارتك الاولى قلت لك ان العلاج بدأ متأخرا جدا بحيث لم يعد فى الامكان ايقاف تقدم المرض . وان تحليل الافرازات يثبت أن ...

— ولكن يا هر بروفيسور ، انك تعالجنى منذ أشهر عديدة ، ولم يعلم أحد بأى شىء ، ففى وسعى ان أواصل عملى فى المصرف . الا تستطيع ان تطيل علاجك قليلا ؟

فأتى الطبيب بحركة خفيفة من الابهام والسبابة كما لو كان سيتناول قطعة من الطباشير وقال :

— سيكون هذا خرقا للقانون ، فالمصابون بأمراض معدية يجب أن يقيموا فى المستشفيات .

— ولكنك أخبرتنى بنفسك يا هر بروفيسور أن هذا المرض واحد من أصعب الأمراض انتقالا بالعدوى .

— ورغم هذا فها أنت قد أصبت به .

فتساءل المريض كيف ؟ كيف ؟ وكان تساؤله يشى بالضجر المتناهى الذى يصيب انسانا وجه لنفسه سؤالا بعينه مرات لا يحصرها عد .

— ربما حدث ذلك عندما كنت تعمل فى المنطقة الساحلية . ففى الموانى تكثر الاتصالات المتنوعة .

— اتصالات ؟

— انى أفترض أنك رجل كالآخرين .

— ولكن ذلك كان منذ سبع سنوات .

— لقد شاهدت حالات يكمن فيها هذا المرض عشر سنوات قبل أن يظهر .

— ولكن ستكون هذه نهاية عملى يا هر بروفيسور ، لن يقبلنى المصرف بعد ذلك مطلقا ، وسيكون معاشى ضئيلا .

ـ انك تبالغ . ان مرض هانسن ممكن شفاؤه تماما بعد فترة معينة .

ـ ولماذا لا تطلق على هذا المرض اسمه الحقيقى ؟

ـ لقد قرر المؤتمر الدولى منذ خمس سنوات تغيير الاسم .

ـ ولكن الناس لم تغيره يا هر بروفيسور ، فاذا أرسلتنى الىالمستشفى فسيعرف الناس جميعا أنى أبرص .

ـ ليس لى خيار، ولكن اؤكد لك أنك ستكون هناك على ما يرام ، فهناك على ما أعتقد تليفزيون فى جميع الغرف ، كما أن هناك ملعبا للجولف تحت تصرف المرضى .

لم يبدو على الهربروفيسور أى دليل على الملل الااذا اعتبرنا عدم دعوته المريض للجلوس وبقاءه هو نفسه واقفا منتصب الظهر كجندى حراسة خلف بروميثيوس ونسره ، أقول الا اذا اعتبرنا ذلك دليلا على الملل .

ـ هر بروفيسور ، أقسم لك ، لن أقول كلمة واحدة عن ذلك لأى انسان ، وفى مقدورك أن تعالجنى تماما كما سيفعلون فى المستشفى ، انك تقول بنفسك ان فرص العدوى تكاد تكون معدومة ، ان لدى بعض المدخرات يا هر بروفسيور ، انها ليست مبلغا ضخما ، ولكنى سأعطيها جميعها لك .

ـ يا سيدى العزيز ، يجب أن تكف عن محاولة شرائى ، فان هذه المحاولة ليست مجرد اهانة لى فحسب ، بل انها تصرف يتسم بعدم الادراك من جانبك. آسف اذ يجب أن أطلب منك الانصراف الآن فوقتى مشغول تماما ...

ـ هر بروفيسور ، ليست لديك أية فكرة عن معنى هذا بالنسبة لى . انى أحيا حياة بسيطة ، ولكن عندما يكون الانسان وحيدا فى الدنيا فانه يعطى كل عاطفته لعاداته . انى أذهب الى مقهى على شاطىء البحيرة كل يوم فى الساعة السابعة وأظل هناك حتى الساعة الثامنة. الجميع يعرفوننى فى ذلك المقهى ، وقد أجلس أحيانا مع بعض السيدات ، وفى يوم الأحد آخذ الباخرة الصغيرة التى تسير فى البحيرة و ...

فأجاب الهر بروفيسور فى جفاف :

ـ يجب أن تكف عن عاداتك لمدة سنة أو سنتين .

ـ أكف ؟ هل قلت أكف ؟ ولكنى لن أستطيع استئنافها بعد ذلك مطلقا ، مطلقا ... ان البرص «كلمة» انه ليس «مرضا» لن يصدق الناس مطلقا أن من الممكن شفاء الانسان من البرص ، ليس فى مقدور الانسان أن يشفى من «كلمة» .

ـ سيكون فى حوزتك شهادة موقعة من سلطات المستشفى .

ـ شهادة ؟ ان فى استطاعتى أيضا أن أحمل جرسا صغيرا .

واتجه المريض نحو الباب ثم الممر حيث مظلته وحذاؤه الذى يستعمله للسير فوق الجليد، وجلس الهر بروفيسور الى مكتبه مصدرا آهة ارتياح لم يمتد أثرها خارج الحجرة . ولكن المريض ما لبث أن عاد أدراجه .

ـ ألا تثق فى قدرتى على الكتمان ياهر بروفيسور ؟

ـ انى أعتقد تماما ، وأستطيع أن أؤكد

لك ، أنك ستلتزم الصمت ، فهذا فى صالحك أنت • ولكن لا تستطيع أن تتوقع من طبيب فى مثل مركزى الاجتماعى أن يخرق القانون • فهو قانون معقول وضرورى، واذا لم يكن أحدهم قد خالفه فى مكان ما لما كنت أنت هنا اليوم• الى اللقاء يا هرس ••

وقبل أن يتم الطبيب جملته الأخيرة، كان المريض قد أغلق الباب الخارجى وبدأ فى السير بين الأحجار وأشجار الصنوبر متجها نحو الطريق الكبير صوب محطة الاتوبيس والعاصمة •

واتجه الهر بروفيسور نحو النافذة ليتأكد من رحيله ، فرآه محاطا بذرات الجليد المتطايرة فى رخاوة بين أغصان الشجر ، ثم رآه يطوح يديه كما لو كان يعرض على احدى الصخور فكرة جديدة ثم استأنف السير بخطى ثقيلة ، وبعد قليل اختفى عن نظر الطبيب • فتح الهر بروفيسور أبواب قاعة الطعام واتجه فى خطى ثابتة نحو البوفيه الذى كان هو أيضا مثل المكتبة قطعة أثاث ثقيلة • وبدلا من بروميثيوس كان هناك قنينة كبيرة من الفضة حفر عليها اسم الهر بروفيسور وتاريخ يرجع الى أربعين عاما، لقد كان ذلك تذكارا حصل عليه الطبيب فى لعبة السلاح • وبجانب هذه القنينة حلية للمائدة كبيرة من الفضة تحمل نقشا ،وهى هدية من هيئة المستشفى بمناسبة اعتزال الطبيب العمل• وتناول الهر بروفيسور تفاحة خضراء صلبة وعاد الى حجرة الفحص حيث جلس من جديد الى مكتبه وبدأ فى القضم مل، فمه : كروك ، كروك ، كروك •

***

فى نفس الصباح ، بعد ذلك بفترة وجيزة ، استقبل الهر بروفيسور زائرا آخر ، وصل الى المنزل فى سيارة مرسيدس بنز ، واستقبله الهر بروفيسور بنفسه عند الباب ثم اصطحبه الى داخل المنزل • واذ قدم للزائر المقعد الوحيد الذى يوفر بعض الراحة دون جميع قطع الأثاث فى مكتبه قال :

– يا هر كولونيل أرجو أن تكون زيارتك بدافع الصداقة فقط دون أية علاقة بالعمل • اتخذ الكولونيل مظهرا لاهيا حين أجاب :

– انى لا أمرض أبدا ، ان ضغط الدم عندى طبيعى ، ووزنى هو ما يجب أن يكون وقلبى متين . انى أعمل كآلة والواقع أن من الصعب على أن أتصور أن هذه الآلة ممكن أن تبلى مع الزمن • انى لا أحمل هموما وجهازى العصبى فى غاية الاتزان •

– لقد استرحت لمعرفة أن زيارتك للمجاملة يا هر كولونيل •

عقد الكولونيل ساقيه الطويلتين النحيلتين اللتين غطاهما قماش «التويد» الانجليزى واستطرد :

– ان الجيش هو المهنة الصحية أكثر من أية مهنة أخرى ، فى بلد محايد مثل بلدنا طبعا • فالمناورات السنوية تسدى لنا جميلا عظيما اذ تنشط أجهزتنا وتنظف دمنا •

– بودى أن أنصح بها مرضاى •

– نستطيع أن نقبل مرضى فى الجيش ••• ثم أضاف الكولونيل فى ضحكة جافة : اننا نترك ذلك للأمم المتصارعة، فهى لن تصل أبدا الى ما نحن عليه من فاعلية •

قدم الهر بروفيسور سيجارا للكولونيل ، فأخرج هذا مقص سيجار من غلاف جلدى صغير واستعد للتدخين ثم سأل :

ـ هل قابلت الهر جنرال ؟

ـ مرة أو مرتين ·

ـ سيحتفل الليلة ببلوغه السبعين ·

ـ حقا ؟ انه يبدو أصغر من سنه ·

ـ فعلا ، ولقد هيأ له أصدقاؤه ـ وأنا على رأسهم ـ مسرات غير عادية بهذه المناسبة · انك تعرف طبعا تسليته المفضلة ؟

ـ كلا ·

ـ لعبة الروليت ، فمنذ خمسين سنة يقضى معظم اجازاته فى مونت كارلو ·

ـ لا بد أن جهازه العصبى هو أيضا متين ·

ـ بالتأكيد · وحيث أنه لن يستطيع أن يحتفل بعيد ميلاده فى مونت كارلو بسبب عارض طارىء ، فلقد فكر أصدقاؤه فى أن يحضروا اليه المائدة الخضراء ·

ـ وكيف يمكنهم ذلك ؟

ـ لقد أعد كل شىء بطريقة مرضية · سيصل من مدينة «كان» أحد المختصين فى ادارة اللعب مع مساعدين والادوات اللازمة · وكان أحد أصدقائى سيعيرنا منزله فى الريف ، فأنت تعلم أن كل هذا يجب أن يحدث فى الخفاء تماما بسبب لا معقولية قوانيننا · من الممكن تصور أن البوليس سيغمض عينيه فى مثل هذه المناسبة ، ولكن كبار الموظفين غيورون جدا من الجيش · ولقد سمعت مدير البوليس يعلن مرة فى احتفال دهشت اذ وجدته مدعوا اليه ، سمعته يعلن ان رجاله هم الذين حاربوا فى الحروب الوحيدة التى خاضتها بلادنا ·

ـ لم أفهم ماذا تقصد ·

ـ أوه ! لقد كان يشير الى الجريمة ··· مقارنة خالية من المعنى ، اذ ما هو الشىء المشترك بين الجريمة والحرب ؟

ـ لقد كنت تقول انكم أعددتم كل شىء بطريقة مرضية ·

ـ نعم ، مع الهر مدير عام البنك الوطنى · ولكن اليوم ، فجأة ، تحدث الى بالتليفون ليقول ان أحد أطفاله ـ بنت كما يجب أن تتوقع ـ أصيب بالحصبة ، وهكذا فكل منزله الآن فى حالة طوارىء صحية ·

ـ سيخيب أمل الهر جنرال ·

ـ ان الهر جنرال يجهل كل هذا · فهو لا يعلم سوى أننا نعد احتفالا فى الريف تكريما له ·

فاجتهد الهر بروفيسور فى اخفاء شعوره بالسخرية كان يعتبره عيبا أصابه من مهنته وقال :

ـ اذن فقد أتيت الى لترى ماذا كنت أستطيع أن أوحى اليك بـ ··

ـ بكل بساطة ياهر بروفيسور ، أتيت اليه لاستعير منزلك من أجل الحفلة هذا المساء · ونستطيع أن نحدد المشكلة فى عبارات بسيطة جدا ، ان المنزل الذى يقام فيه الحفل يجب أن يكون فى الريف ، ولقد شرحت لك السبب · كما يجب أيضا أن يشتمل على صالون فسيح بدرجة

تسمح بوضع الموائد ، وسيكون لدينا منهاثلاث على الاقل،اذ سيكون هناك مائة مدعو • وكذلك يجب طبعا أن يكون صاحب المنزل شخصا لا يعترض عليه الهر جنرال • توجد مساكن أكبر كثيرا من مسكنك ، لكن لايمكن أن يفكر انسان فى أن يجعل الجنرال يدخلها كضيف • ولا نستطيع كثيرا فى هذه الظروف أن نلجأ الى التوسل •

ـ هذا بالتأكيد يشرفنى جدا ياهر كولونيل ولكن •••

ـ أظن أن هذه الأبواب تنزلق فتعطى اتساعا أكبر كثيرا للصالة ؟

ـنعم ، ولكن •••

ـ آسف ، ماذا كنت تقول ؟

ـ لقد فهمت أن الاحتفال كان يجب أن يتم هذا المساء •

ـ نعم •

ـ لا أدرى اذن كيف يمكن أن يكون هناك وقت كاف •

ـ هذا أمر يتعلق بسرعة الحركة والنقل • اركن الى الجيش فى هذه الأمور •

ثم أخرج من جيبه مفكرة صغيرة وكتب كلمة «أنوار» وأخذ يوضح معناها للهر بروفيسور :

ـ يجب أن نعلق بعض الثريات • هل أستطيع أن أرى الغرفة الأخرى من فضلك ؟

وأخذ يذرعها بساقيه الطويلتين المغطاتين بقماش التويد •

ـ انها ستكون « قاعة خاصة » جميلة عندما تتداخل الأبواب وتوضع الثريات مكان هذا المصباح الموضوع وسط السقف والذى أرجو أن تسمح لى أن أصفه بأنه عادى تماما • أما مفروشاتك فاننا سننقلها الى أعلى، الى الدور الأول، وسنحضر بالطبع مقاعدنا الخاصة • كما أن هذه المائدة يمكن على أى حال أن تتحول الى بار • يبدو أنك كنت تلعب السلاح قديما يا هر بروفيسور •

ـ نعم •

ـ لقد كان الهر جنرال يحب لعبة السلاح كثيرا • قل الى الآن ، أين تظن أن باستطاعتنا وضع الفرقة الموسيقية؟

ـالفرقة الموسيقية ؟

ـ ان فرقتى هى التى ستقدم الموسيقيين • أظن أنهم ـ على أسوأ الفروض ـ يستطيعون أن يجلسوا على السلم •

واتجه الى نافذة غرفة الاستقبال وتفحص أرجاء الحديقة الشتوية التى كانت تحيط بها غابة الصنوبر المظلمة •

ـ هل هذا كشك ، ذلك البناء الذى أراه هناك ؟

ـ انه لكذلك •

ـ ان النوتة الشرقية هى التى تتلاءم مع المناسبة واذا عزف الموسيقيون فى الكشك ، وتركنا احدى النوافذمفتوحة قليلا ، فسوف تصل الينا الالحان فى هدوء •

ـ ان البرد •••

ـ انلديكمدفأة جيدة جدا، والستائر سميكة •

ـ لاتوجد فى الكشك أية تدفئة •

ـ يستطيع الرجالأن يلبسوا معاطفهم الرسمية • وكما تعلمفان العزف نفسه بالنسبة للاعب الكمان •••

ـ هل سيحدث كل ذلك هذا المساء؟

ـ هذا المساء ٠

وابتسم الهر بروفيسور ابتسامة سريعة مفتصبة لاخفاء ما يعانيه من نقص فى الشجاعة وقال :

ـ لم يحدث لى حتى الآن أن خرقت القانون ٠

ـ ولن تجد مناسبة أفضل من هذه لتفعل ذلك ٠

***

بدأت سيارات نقل الأثاث تصل قبل نهاية النهار بوقت طويل ٠ وكان أول ما وصل هو الثريات وأكواب الشراب التى ظلت فى صناديقها وسط مدخل البيت فى انتظار وصول عمال الكهرباء ثم وصل الخدم فى نفس اللحظة التى وصلت فيها عربة نقل تحمل أربعة وسبعين مقعدا صغيرا مذهبا ٠ وذهب الحمالون الى المطبخ حيث شربوا بعضا من الجعة قدمتها لهم مديرة منزل الهر بروفيسور فى انتظار ظهور العربة التى ستحضر موائد الروليت الثلاث ٠ أما العجلات نفسها والجوخ الأخضر وعلب « الفيشات » المصنوعة من البلاستيك ، ذات الألوان والأشكال المنوعة ، فقد أحضرها بعد فترة الموظفون المختصون الثلاثة ، رجال جادون يرتدون بزة سوداء ، فى سيارتهم الخاصة الانيقة ٠ ولم يسبق للهر بروفيسور أن رأى مطلقا كل هذه السيارات تقف أمام منزلة . فأحس أنه غريب ، انه مدعو، وتلكأ أمام نافذة غرفته مشفقا من لحظة نزول السلم ورؤية العمال ٠ لقد كان الممر الطويل الذى ينفتح عليه باب غرفته شبه مسدود بقطع الأثاث التى نقلوها من الدور الارضى ٠

ومع بدء هبوط شمس الشتاء الحمراء خلف أشجار الصنوبر السوداء بعد الظهر ، ازداد عدد السيارات فى الممر الكبير ٠ لقد وصل أولا صف طويل من سيارات الأجرة ، واحدة بعد الأخرى ، ذات لون أصفر فاقع كانها عقد من العنبر، وخرج منها فى غير نظام عدد كبير من الرجال الضخام مرتدين المعاطف العسكرية ومعهم آلات موسيقية كانت فى معظم الأحيان ترتطم بأبواب السيارات فكان لا بد من اخراجها منها بحرص وبصعوبة، لقد كان عسيرا فى الواقع تصور كيف تسنى ادخال الفيولونسل ٠٠٠ لقد كان الجزء الأعلى من هذه الألة يخرج أولا كأنه النصف العلوى « لمانيكان » ، وبعد ذلك تظهر الكتفان عريضتين جدا ٠ والتف الموسيقيون فى دائرة مرتدين معاطفهم الطويلة ، وقد صوبوا أقواسهم كأنها بنادق معدة للانطلاق، فى حين أخذ رجل قصير ممسك بمثلث يصيح مصدرا لهم الارشادات ٠ وبعد لحظة كانوا جميعا قد غادروا مكانهم أمام المنزل وانبعثت من كشك الحديقة المبنى على الطراز الشرقى أنغام متنافرة صادرة عن الآلات التى يضبطها الموسيقيون ، وبدأت الانغام تطفو فوق الجليد٠ وفى الممر سمع صوت شىء ينكسر، واذ نظر الهر بروفيسور الى الخارج ، رأى أن ذلك كان أحد مصابيح السقف الذى لم يعجب الهر كولونيل ، وقد وقع من فوق مائدة صغيرة حيث لم يكن موضوعا فى اتزان تام ٠ أما المكتب الثقيل والمكتبة ذات الألواح الزجاجية والدواليب الثلاثة الخاصة بغرفة الفحص فقد كانت عندئذ تكاد تسد الممر تماما، وتناول الهر بروفيسور تمثال بروميثيوس البرنزى ووضعه فى أمان داخل غرفته رغم أنه كان أقل ما فى

المنزل قابلية للكسر · ومن أسفل كانت تتصاعد ضوضاء المطارق وصوت الهر كولونيل مصدرا أوامره · ورجع الهر بروفيسور الى غرفته حيث جلس على سريره وأخذ يقرأ « شوبنهور » لفترة وجيزة ، بغية تهدئة أعصابه ·

***

وبعد ما يقرب من ثلاثة أرباع الساعة ذهب الهر كولونيل الى الهر بروفيسور فى غرفته ، ودخل الى الغرفة بخطوة نشطة ، مرتديا رداءه الرسمى الطويل الخاص بالسهرة لذلك ظهرت ساقاه أكثر طولا وأكثر نحافة مما كانتا تبدوان من قبل ·

ـ ان ساعة الصفر تقترب ونحن مستعدون تقريبا · لن تستطيع أن تتعرف على منزلك يا هر بروفيسور ، فقد تغير كلية، سوف يحس الهر جنرال بنفسه فى جو أكثر بهجة وتحررا ، وسوف يقدم الموسيقيون منوعات من شتراوس و أوفنباخ مع بعض أنغام ليهار التى يسهل على الهر جنرال تمييزها عن غيرها· ولقد راعيت أن نعلق على الجدران بعض اللوحات المناسبة · وعندما تنزل وترى القاعة الخاصة ، ستتبين أننا لم نكن مشغولين بمجرد تمرين عسكرى عادى ، فان الاهتمام بالتفاصيل هو علامة الجندى الممتاز ـ ان منزلك هذا المساء ، يا هر بروفيسور ، هو كازينو على شاطىء البحر الأبيض ، ولقد فكرت فى اخفاء أشجار الصنوبر بطريقة أو أخرى ، ولكن لم أجد وسيلة لمحو الجليد الذى يتساقط باستمرار ·

ـ مدهش ، مدهش فعلا ·

واذا قال الهر بروفيسور ذلك، تناهى الى سمعه نغم من « هيلين الجميلة » آتيا من الكشك البعيد ، ولم تكن السيارات تكف عن التوقف فى الشارع الكبير ، فشعر أنه بعيد عن منزله كما لو كان يسكن بلدا مجهولا ·

ـ أود أن تسمح لى بأن أسلمك كل شىء هذا المساء ، فانى بالكاد أعرف الهر جنرال ، ولهذا فسوف أتعشى فى هدوء بشطيرة أتناولها فى غرفتى ·

ـ هذا مستحيل قطعا ، انك المضيف، والهر جنرال يعرف الآن اسمك ولو أنه لا يتوقع طبعا هذا المنظر المعد لاستقباله ··· آه ، هاقد بدأ المدعوون فى الوصول لقد طلبت منهم المجىء مبكرين بحيث أنه فى لحظة دخول الهر جنرال يكون كل شىء على أكمل وضع ، فالعجلات عندئذ تدور ، والرهان مدفوع ، والموظفون المشرفون يصدرون نداءاتهم ··· ، وينبسط ميدان المعركة أمام الهر جنرال تعال يا هر بروفيسور ، هيا بنا نبعث بعض النشاط حول الموائد ···· لقد حان وقت نزولنا معا لافتتاح الحفل ·

كان السيرفى الشارع غيرمأمون تماما فوق تلك الطبقة الرقيقة من الجليد المتساقطة حديثا ، وكان الاوتوبيس القادم من العاصمة يسير بسرعة لا تفوق سرعة عداء يقوم بالتدريب ويخشى أن تضار احدى عضلاته قبل المنافسة العظمى · وكانت قدما الرجل المريض مثلجتين رغم أحذية الجليد ، وربما كان يحس البرد نتيجة التفكير فى المحاولة عديمة الجدوى التى كان على وشك أن يقوم بها · لقد كانت حركة المرور فى الطريق هائلة ذلك المساء : سيارات أجرة صفراء غالبا ما تسبق الأوتوبيس، وسيارات صغيرة « سبور » مليئة

بشبان لابسين زيا متماثلا أو ملابس السهرة ، ضاحكين مغنين ، وسمع تحذيرا صادرا فى كبرياء غير عادية منبعثا من صفارة قوية وربما كانت فى سيارة بوليس أو اسعاف ، فارغم هذا التحذير الاوتوبيس على أن ينتحى جانبا فى ثقل ثم على أن يقف محتكا بكتل الجليد الزرقاء ليفسح الطريق بسيارة مرسيدس ضخمة ، وتبين المريض داخل السيارة رجلا جالسا منتصب الظهر ، رجلا عجوزا كان تاريخ شاربه الرمادى الطويل يرجع الى حياد ١٩١٤ وكان يلبس زيا رسميا قديم الطراز ويضع على راسه قلنسوة من الفراء تغطى أذنيه .

نزل الرجل المريض بسرعة على جانب الطريق ، لقد كان البدر مكتملا تقريبا، ولكن لكى يتبين طريقه فى الغابة ، كان لا بد له من الاستعانة بمصباح الجيب الذى يحمله معه دائما ، اذ لم تعد أنوار السيارات كافية لارشاده فى الطريق الخاص المؤدى الى بيت الهر بروفيسور وبينما كان يسير محاذيا لخط الجليد على جانب الطريق ، أخذ يتمرن على تظلمه الأخير الذى سوف يتقدم به، فاذا فشل هذا التظلم ، فلم يكون أمامه سوى الذهاب الى المستشفى ، الا اذا وجد من الشجاعة ما يسمح له بالدخول فى ماء البحيرة المثلج وعدم الخروج من هناك . لم يكن لديه سوى قليل من الأمل ، وعندما حاول تخيل الهر بروفيسور جالسا أمام مكتبه ، غاضبا متحملا بصعوبة هذه الزيارة المفاجئة المتأخرة عندما حاول تخيل ذلك لم يفهم السبب فى أنه لم يستطع أن يتخيل سوى أجنحة النسر نصف المنشورة ومنقاره الغائر فى امعاء السجين متعلقا بها .

وبدأ يترافع فى صوت خفيض تحت الأشجار : « ليس فى هذا خطر على أى شخص يا هر بروفيسور . لقد قضيت حياتى كلها وحيدا . ليس لى عائلة – لقد ماتت أختى الوحيدة فى العام الماضى – انى لا أرى أحدا ولا أتحدث الى أحد خلاف عملاء المصرف . كل ما هناك جلسة مع بعض السيدات من وقت لآخر . أستطيع أن أزيد من عزلتى أكثر اذا حكمت بأن هذا لازم يا هر بروفيسور . وفيما يتعلق بالمصرف ، فانى معتاد باستمرار على لبس قفازات لتقليب الأوراق المالية ، فمعظمها قذر جدا . سألتزم بكل الاحتياطات التى تشير بها على اذا وافقت على أن تستمر فى معالجتى سرا يا هر بروفيسور. انى رجل يحترم القوانين ، ولكن الروح أكثر أهمية من الحرف ، أليس هذا صحيحا ؟ سوف احترم الروح فى اخلاص .

***

كان منقار النسر الذى لا يرحم قابضا بقوة على بروميثيوس، واستطرد المريض فى حزن، كما لو أنه يريد أن يمنع تكرار عبارة لن يطيق سماعها مرة ثانية : «انى لا أحب التليفزيون يا هر بروفيسور ، انه يجعل عينى تدمعان ، كما أنى لم ألعب الجولف اطلاقا .

وتوقف تحت الأشجار ، وناء غصن بثقل كتلة من الجليد فسقطت على مظلته محدثة صوتا « فلوك » . وخيل اليه ، وان كان هذا شيئا قليل الاحتمال لدرجة كبيرة ، انه سمع موجات موسيقى بعيدة حملتها اليه الريح ثم أبعدتها عنه فورا .

بل لقد خيل اليـه أنه تبين فيما سمع أغنية مأخوذة من « الحياة الباريسية » ، احدى أنغام «الفايس» تريد لحظة قصيرة فى هذا المكان الذى يلفه الجليد والليل من جميع جوانبه • ولم يكن قد رأى هذا المكان الا فىوضح النهار، والآن يتساقط الجليد ماسا وجهه وتلتمع النجوم فوقه بين أشـجار الصنوبر ، فظن أنه أخطأ الممر السليمواقتحم منطقة مجهولة يدور فيها حفل راقص •

ولـكن عنـدما بلغ منحنى الممر أمام المنزل تبـين المدخل وشـكل النـوافذ والانحـدار الحـاد الذى يتميز بـه السـقف الذى كان الجليد بين لحظـة وأخرى ينزلق منه ويسقط محدثا صوت رجل يقضم تفاحة • كان هـذا كل ما استطاع أن يتبينـه اذ لم يكن سبق له قط أن رأى البيت بهذه الصورة، مليئا بالأنوار المشـتعلة وبضوضاء الاصوات البشرية • ربمـا كان نفس المهندس قد شيد مسكنين متجاورين ثم أتى الزائرة عنـد دخوله الغـابة ، فاتخـذ الطريق الخاطىء• ولكى يتأكد، اقترب من النوافذ وكان الجليد الصلب يتفتت تحت نعليه كالبسكويت الجاف •

***

وخرج ضابطان شابان يبدو عليهما بوضوح أثر الشراب ، خرجا مترنحين من الباب الرئيسى الذى كان قد ظـل مفتوحا • وقال أحدهما :

ـ لقد خاننى رقم ١٩ ، هـذا الرقم اللعين •

ـ أما أنا فرقم صفر ، لقـد ظللت مخلصا للصفر طيلة ساعة كاملة ، ولم يحدث مرة واحدة أن •••

أخرج الشـاب الاول مسدسـا من الجراب المدلى الى جانبه وشرع يهزه فى ضوء القمر • وقال :

ـ ان الشىء الوحيـد الذى ينقص البرنامج هو حادث انتحـار ، فبدون حادث انتحار سيظل الجو ناقصا •

ـ خذ الحذر •• ربما كان المسدس محشوا •

ـ انه لكذلك • من هذا الرجل ؟

ـ لاأعـرف •• من المحتمـل أنه البستانى ، لاتعبث كأبله بهـذه الآلة .

ـ ان ما ينقصنا هو النبيـذ الذى

وحاول أن يضع المسدس فى قرابه، ولكن المسدس انزلق ووقع فى الجليد، ثم سوى الرجل قرابه الفارغ بعنـاية عظيمة وقال : «قليلا من النبيذ الذى يثر قبل ان يتبدد الحلم » .

وعاد الضابطان الى المنزل سائرين فى خط يتلوى يمنة ويسرة ، وكان الشىء القاتم قد حفر لنفسه جيبا فى الجليد •

اقترب المريض من النافذة ، ولو انه كان قد استدار فى الاتجاه السليملكان قد اكتشف انهـا نافذة مكتب الهر بروفيسور ، لـكن تولد لديه فى تلك اللحظة اعتقاد جازم انه بلغ فى الظلام منزلا غير الذى كان يريد ، فبـدلا من الحجرة الصغيرة المربعـة ذات المكتب والمكتبة الثقيلين والدواليب المصنوعةمن الصلب ، رأى قاعة طويلة تضيئها فى قوة ثريات من البللور المصقول ، وقد زينت جدرانهـا بلوحات تشى بذوق مشبوه: نسوة صغيرات مرتديات أقمصة



نوم شفافة ، وقد انحنين فى أوضاع مائلة فوق مجارى ماء واخذن يخضن بين الزهور المائية .

وكان هناك جمع كبير من الرجال يلبسون الزى الرسمى أو ثياب السهرة يتدافعون حول ثلاث موائد روليت ، وكانت نداءات الموظفين تبلغ مسمعه مختنقة فى الظلام ! ضعوا رهانكم أيها السادة ، ضعوا رهانكم ، فى حين كانت فرقة موسيقية بعيدة تعزف فى الحديقة السوداء «الدانوب الازرق الجميل» كان المريض واقفا فى الجليد دون حراك ، وقد وضع وجهه لصق زجاج النافذة ، وأخذ يفكر فيما اذا كان قد أخطأ البيت ولكن كلا ، انه لم يخطىء البيت ، انه أخطأ البلد . لقد كان يحس انه لن يستطيع العثور مرة أخرى على طريق العودة .. لقد كان بعيدا جدا عن بلده .

أمام احدى الموائد كان يجلس العجوز الذى رآه فى السيارة المرسيدس بنز ، وكان يداعب باحدى يديه شاربه .. وبالاخرى صفا من «الفيشات» الموضوعة أمامه ، وكان يعدها ويعيد ترتيبها فى حين كانت الكرة تدور ثم تقفز لتستمر فى الدوران ، وكان يدق بقدمه متابعا نغم «الارملة الطروب» . ومن البار انطلقت سدادة احدى زجاجات الشمبانيا وارتطمت بالثريا فى اللحظة التى صاح فيها الموظفون من جديد « ضعوا رهانكم أيها السادة » .

وفى تلك اللحظة رأى المريض الهر بروفيسور واقفا مستندا بظهره الى النافذة من الطرف الآخر من القاعة الضخمة خلف الثريا الاخرى ، ونظر كل منهما للآخر طويلا وقد باعدت بينهما الضحكات والصيحات وبهرة الانوار .

ولم يميز الهـــربروفيسور المريض بوضوح ، اذ لم يكن يرى سوى خيال وجه ملتصقا بالجانب الخارجي للزجاج ولكن كان المريض يراه في وضوح تام على ضوء الثريا ، بل كان في استطاعته أن يرى ماارتسم على وجهه من تعبير ·· ذلك التعبير التائه الذى يصـــدر عن شخص دخل الى حفل غير الذى كان يريد رفع المريض يده كمـا لو انه يريد أن يحيط الآخر علما انه ضل الطريق هو أيضـا ، ولكن بالطبع لم يستطع الهر بروفيسور أن يرى اشارته في الظلام · ورغم انهما كانا يعرفان بعضهما من قبل معرفة وثيقة ، الا أنه كان مستحيلاتماما بالنسبة لهما (وكان المريض يدرك ذلك جيدا) أن يتلاقيا في ذلك البيت الذى وصل اليه كل منهما حين ضل الطريق نتيجة حادثة غريبة · لم يكن في ذلك البيت غـرفة فحص ، ولا ملفات ، ولا مكتب ، ولا بروميثيوس ، بل ولا طبيب يقدم اليه استرحامه ، وصاح الموظفون «ضعوا رهانكم أيها السادة ··· ضعوا رهانكم ·

قال الهر كولونيل :

– ياعزيزى الهر بروفيسور ، لاتنس أنك ضيفنا ، وهكذا يجب عليـك أن تراهن معنا ولو مرة واحدة ·

ثم أخذه من ذراعه واصـطحبه حتى مائـــدة اللعب حيث كان يجلس الهر جنرال مصاحبا الايقاع واحد ، اثنين ، ثلاثة ، على أنغام «ليهار» ·

– ان الهر بروفيسور يود أن يجرب حظه معنا يا هر جنرال ·

فأجاب الجنرال : «ان حظى ضئيل هذا المساء ، تفضل ·· ورسم باصابعه رسما على الجوخ ·· الجأ الى رقم الصفر»·

دارت الكرة وقفزت ودارت ثم توقفت وصـــاح الموظف «صفر» وبدأ فى جمع النقود ·

وقال الهر جنرال : انك على الاقل لم تخسر ياهر بروفيسور ·

وبعيدا جدا ، وراء ضوضاء الاصوات سمع صوت انفجار ضعيف ·

وقال الهر كولونيل : « ان السدادات تنطلق ، أتريد كاسا أخرى من الشمبانيا ياهر جنرال ؟

فقال الهر جنرال بابتسامة باردة الى درجة كبيرة : لقد كنت أتمنى أن يكون ذلك طلقة رصاص ، آه الايام الجميـلة التى ولت ·· انى أذكر ذات مساء فى مونت ·· ألقى الهـــربروفيسور نظرة نحو النافذة حيث اعتقد منذ لحظة مضت انه كان هنا شخص ينظر الى داخل المنزل شخص ذو مظهر ضائع مثله ، ولكن لم يكن هناك أحد ·

جبل الثلج

بقلم : محمد حسن عبد الله

« لا تشغل نفسك كثيرا بما يبدو من جبل الثلج · حدق فى الأعماق بحذر · واشدد قبضتك على الدفة » ·

كان مصرا على أن أضحك ·· ألا أفارقه غاضبا ·· وحزينا ، وما كان هو سبب عذابى ·· وما كان باستطاعته أن يجتث جذور ذلك العذاب ... ولو استطاع لما توانى مهما كلفه الامر ·· ولقد بذل ـ فى صدق أخوى ، كل ما يستطيع فى سبيل تحويل العبسة التى تكسو وجهى الى بسمة أو علامة ارتياح ·· ولكن عبثا يحاول ·· ان قلبى فيما يخص هذا الجانب كقلوب النساء !! متوحد الاتجاه .. اذا ضحك انغمر فى السرور ونسى كل شىء عدا اللحظة المرحة التى يعيشها ·· واذا عبس تجهم ويئس وخال الدنيا ظلاما فى ظلام ··

ولقد كان (حسين) الطيب بما يبذله من محاولات للتسرية عنى جديرا بأن أتحامل على نفسى فاتجاوب معه ـ ولو تظاهرا ـ ولا أدعه هكذا حائرا لا يدرى ماذا يفعل ··

ـ أترى يا رفعت ·· كل السائرين فى الشارع ضاحكون متشابكوا الأيدى الا أنا وأنت !! نعبس وكأننا نحمل الدنيا على رءوسنا .. ونتباعد كأننا زوج مع زوجته عائدا من بيت حماته!·

وابتسمت ·· فعد ذلك انتصارا له واعترض طريقى واضعا يده على كتفى بينما تحاول اليد الاخرى استخلاص الحقيبة من يدى وهو يقول فى مرح :

ـ النبى تبسم ·· ما رأيك وقد حللت العقدة أن تعود ! ؟ انتصر على شيطانك واطعنى .. انت تعرف على اى حال تركت اخوانك ..

ـ أرجوك يا حسين ـ لا تضايقنى·· انت زوج أختى ·· لكنك فى قلبى أخ ·· لو كان ما أحببته أكثر منك ·· لكن ·· هذه المرة ·· دعنى أمضى ··

ـ ألم تحضر معك كتبا تكفيك أسبوعين ؟ معنى ذلك أن نيتك كانت متجهة للبقاء هذه المدة ·· و ··· أنت تعرف انه لايدلنا فيما حدث .. فما ذنبنا أن تحرمنا من ···

ـ مم أحرمك يا حسين ؟ ·· هل ··

آه ·· كنت أريد أن أقول : هل تسخر منى ؟ لكن كيف اقولها وانا على يقين من أن ذلك أبعد ما يكون عن تفكيره ·· وانه مخلص فى حبه لى ،

صادق فى اعزازه ووده ، يبذل ما يبذل عن رضا وطيب خاطر ٠٠ بل انى لأحس فى لهجته البريئة انه يعتبر قبولى لمعاونته تفضلا منى ٠٠ لا منه٠٠ ويرى فى زياراتى له ٠٠ شرفا وتكريما ٠٠ لكن أحاسيسى الخاصة لم تكن ترحمنى ٠٠ كنت أشعر فى تلك اللحظات باننى عبء عليهم ، وانني أحملهم من أمرى مالا يطيقون أو يريدون ٠٠

ـ من أجل خاطرى ابق معنا يوما ٠٠

ـ من أجل خاطرى دعنى أذهب ٠

كنا قد بلغنا ميدان المحطة ٠٠ وسيارات التاكسى تملأ جوانبه ٠ وما ان وجدت سيارة تقصد القاهرة وينقصها فرد واحد حتى طغت الفرحة فوق ملامحى وكأنى أنقذت من مأزق٠٠ فنظر حسين الى سرورى فى أسى وقال :

ـ الى هذا الحد صرنا نضايقك ؟

قلت وأنا أضع الحقيبة على المسند الخلفى : ليس أنت يا عزيزى ٠٠ اننى الذى أضايق نفسى وما أريد أن أضايقكم ٠٠ غدا ستعرف ٠٠ وتعذرنى وان لم تعرف فستعذرنى أيضا ٠٠ إنا واثق من ذلك ٠ ٠ أنت مخلص ٠ ، وطيب ٠٠ هذا رأيى فيك ٠٠ اليوم٠٠ وغدا ٠٠ والى أن أموت ٠

كنت أتعجل لحظة الوداع لأخلو الى نفسى ٠٠ ان فى قلبى آلاما كثيرة أعرف أن التخلص منها مستحيل ٠٠ ولعلى لم أكن أسعى الى التخلص منها ٠٠ كنت فقط أريد أن أنظمها فأستحضرها الى خاطرى مشكلة وراء مشكلة ٠٠ وأتملاها ٠٠ وهكذا أظل أتأمل وأجترها فى تلذذ الى أن تهدأ نفسى وأستريح ٠

وما كادت السيارة تتحرك وأصافح حسينا من نافذتها حتى بادرت باغلاق الزجاج ونظرت خلفى فوجدته لا يزال واقفا حيث كانت السيارة ، وخيل الى ـ برغم الضوء الباهت ـ ان فى عينيه دموعا وان قلبه كسير حزين .. فوددت لو توقفت السيارة حتى أعود فأعانقه !! لكنها كانت تنطلق ٠٠

كنا خمسة ـ غير السائق ـ وقد اشتبك الراكبان فى المقدمة الى جواره فى السيارات .. أما الراكبان فى المؤخرة ـ حديث معه حول معدل السرعة ومعدل الريح .. وخواص كل نوع من انواع غيرى ـ فقد أسند الراكب الى جانب الباب راسه الى الزاوية وأغمض عينيه ..والذى فى الوسط خلع حذاءه ووضع قدميه على ظهر المسند الأمامى واسترخى فى اهمال وراح يدندن فى خفوت حتى توهمت فى لحظة ما انه مطرب فى طريقه الى احياء حفل .. وانه يمرن حنجرته !! لكنى نفيت هذا الظن عندما اكتشفت كثرة ما يعترض اللحية من حشرجات وانسداد .. ان الطريق الى القاهرة يستغرق ساعتين. والثبات على وضع واحد طوال الرحلة أمر ممل .. ومن هنا فقد فعل كل فرد ما يحلو له .. وانصرفت انا الى ما يحلو لى ..

كان الليل ساكنا والحقول تترامى على جانبى الطريق المظلم الذى تمزقه أضواء السيارة المنطلقة ثم تتركه يلتئم من خلفها ـ وكانت أضواء المدينة تبدو من بعيد ـ خلفنا ـ وكأنها أشباح قائمة فى صحراء مخيفة٠٠ وما كادت السيارة تعتدل على طريق القاهرة الرئيسى حتى

احسست بأنى حققت رغبتى وصرت وحيدا برغم الأجسام الخمسة التى تركب السيارة ، فالقيت بجسمى المكدود الى المسند فى ارتياح شديد ٠٠ لم أتعجل استعادة وضعى وتأمله ؟ ان الطريق الى القاهرة طويل٠٠ ولكن قصتى أطول٠٠ وأنا لا املها .. انها تروقنى برغم أنه لا جديد فيها ٠٠ هل أنا معجب بنفسى فاذكر آلامى لأتذكر صمودى واحتمالى؟ أم أننى أكرهها فانذكر آلامى لأعذبها بها ؟ لا أدرى !! كل الذى أدريه أننى فتى معذب ليس بينى وبين القدر خصومة ٠٠ انه لا يتعمدنى بايذائه ٠٠ لكننى – ولغير ما سبب معروف – اجدنى أفكر تفكيرا محزنا واصبغ كل ما يعترضنى بلون قاتم ٠٠ او جعلونى قائد معركة لتمنيت أن أكون أول شهيد أكثر من ان أكون البطل الظافر ٠٠لماذا يروق لى أن ارى دمعة تسكب من اجلى أكثر مما ارى نظرة اعجاب ترمقنى ؟؟ لا أدرى ! بعض الناس يقولون ان سبب حزنى هو أننى لم أر أمى فاستقر احساس اليتم فى قلبى ! وبعضهم يقول ان السبب هو ضعف جسمى الذى يجعلنى أحس بالضآلة وأختى عطيات تزعم أن سبب ذلك هو فشل قصة حبى ! وعطيات ككل النساء لا ترى الا الاسباب القريبة ٠٠ أو السبب الاخير٠ ولعلى اخترت الدراسة فى قسم علم النفس لأحل مشكلتى وأفهم نفسى ٠٠ وبعد سنوات ثلاث من الدراسة أسائل نفسى : من أنا ؟ فأخير جوابا ٠

ما كدت أكتب الكلمة الاخيرة فى الامتحان حتى كنت أنكر فى عطلة ممتعة فى مدينتى الصغيرة بعيدا عن مدينة الضياع التى أشعر فيها كأنى نظرة تائهة فى محيط ٠٠ هناك منزلنا الصغير ٠٠ يعرفنى البقال والجزار والمكوجى ٠٠ وتعرفنى أسر الشارع وفتياته واطفاله ..ماأكاد أغادر البيت حتى ألقى التحايا يمينا ويسارا .. وأتلقى « صباح الخير » « ونهارك فل » وكأنها ورود تنثر فى طريقى ..وعندما رأيت القاهرة أعجبت بروعتها ٠٠ لكنى كرهت ضياعى فيها ٠٠ حتى البواب الذى أنقده ايجار الشقة كل شهر لا يكاد يعرف اسمى كاملا ٠٠وأصحاب البيوت ينظرون الى باستعلاء : « نحن آسفون ٠٠ لا نسكن العزاب !! »

– يا سادتى ٠٠ كل متزوج كان أعزب !!

– لكنه لم يسكن عندنا الا مع زوجته ٠٠ وأصبح من حقه أن يخشى عليها ٠

– هل أتزوج من أجل السكن !؟ يا ناس أصابعكم ليست مثل بعضها٠٠

– آسفون ٠٠ اننا لا ندرى أى اصبع انت !!

وربما أسير فى شوارع المدينة القاسية ساعات وساعات فلا يحادثنى أحد ٠٠ كأنى غريب عن دنيا البشر ٠

كانت أضواء السيارات التى تقابلنا فى الطريق تتراءى لى من مقعدى فى الخلف منعكسة على الزجاج الأمامى فى عمودين رأسيين ٠٠ وكلما تقاربت السيارتان المتقابلتان تضخم العمودان من أعلى وتقاربا من أسفل وتمايلا على جنبيهما الى اليسار حتى يمحيا بموازاة السيارة الاخرى لنا ثم مضيها منخلفنا وكانت هذه الحركة الرتيبة تجذب بصرى فأراقبها فى تلقائية غير واعية ،

لكنى تنبهت فى لمحة على أن العمودين المرسومين على الزجاج لم يميلا الى اليسار ٠٠ وسمعت فرامل شديدة انخلع لها قلبى ٠٠ وانحدرت سيارتنا الى أقصى يمين الطريق ثم توقفت ، لكن السيارة الاخرى لم تأبه بنا ٠٠ فتطلع اليها سائقنا بغيظ وقذف مؤخرتها ببضع شتائم جارحة متهما سائقها بأنه مسطول ابن مسطول ٠٠ آه ياسائقنا لو تعرف ٠٠ اننى الآخر أعيش فى حذر لذيذ وجو سحرى من أطياف أمهاتى الثلاث آآآ ان احساسى نحو اخواتى احساس الابن نحو أمه ٠٠ كنت أشعر دائما اننى جزء منفصل عن أصل كبير٠ فما أكاد أعود الى مدينتى الصغيرة ــ وأطرق باب البيت طرقاتى المعهودة ٠ ويفتح الباب وتعم الضجة أركان الجنة الصغيرة وألتقى مع الشقيقات فى عناق طويل ٠٠ حتى أشعر بأنى أكمل نفسى ٠٠بأننى أضم اليها أجزاءها الضائعة٠٠ ثم يأتى حسين ٠٠ زوج أختى الكبرى٠ فيشد على يدى فأحس بقلبه يعانق قلبى ٠٠ ويعلن الرجل الطيب بأنه لن يبارح البيت ذلك المساء من أجلى ٠٠ انه فى شوق الى ٠٠ وأنا أيضا يا حسين ٠٠٠ لكن ٠٠ أرجوك ٠٠ دعنى مع اخواتى٠٠ انك لا تعرف ٠٠ ان هناك سؤالا حائرا ما زال يتقافز على طرف لسانى ٠٠ لن أقوله بحضرتك ٠٠ اخرج أرجوك ٠٠ يا الهى ٠٠ كم يضايقنا الذين نحبهم من حيث لا يشعرون !!

ونزل حسين ليشترى فاكهة ٠٠ انها فرصتى ٠٠ بلا لف أو دوران ٠٠الوقت ضيق وأختى تعرف كل شىء ٠

ــ كيف هى يا عطيات ٠

ــ من

ــ ومن غيرها ؟

قالت وعلى فمها بوادر بسمة حزينة: المرآة ؟

ــ ومن غيرها ؟ اننى لا أرى صورتى الا فى عينيها الضاحكتين ٠٠ لولا وجود حسين لملتكم على السهر معى هذه الليلة فى الشرفة برغم برد (طوبة)٠٠ لعلها أن تطل من نافذتها ٠

ــ ولو أطلت فلن تجد صورتك فى عينيها ٠

ــ لماذا ؟

ــ دعك منها ٠٠ اصرف النظر ٠

ــ بالله لا تعذبينى ٠

ــ ستجد فى المرآة صورة رجل آخر ٠

ــ ماذا ؟

ــ لقد تزوجت !!!

٠٠ لقد تحطمت المرآة ٠٠ صارت شظايا وقطعا صغيرة غير متناسقة فصار لى ألف وجه ووجه ٠٠ فى كل قطعة وجه على نسق معين ٠٠ لكنه ليس النسق الطبيعى ٠٠ لقد تحطم قلبى هو الآخر فصار شظايا ٠٠٠ مقتولة لا قاتلة ٠

وبكت أصغر اخواتى ٠٠٠ وحاولت عطيات أن تنهرها لكنها لم تستطع أن تمضى ٠٠ وقامت الوسطى الى حجرة أخرى تقاوم شهقاتها ٠٠ واحسست أنا باختناق شديد وبقلبى ينسحق تحت ثقل جبار ٠

وسمعنا أقدام حسين تصعد السلم فاستمدنا هدوءنا سريعا٠٠ والتى أمامى

بقراطيس البرتقال وأبى الفرو .. ثم جلس الى جانبى .

ـ لقد جمعت لك حوالى ثلاثين نكتة كل منهـا تضحك بلدا .. لقد كتبتها فى ورقة حتى لا أنساها .. خد عندك يا عم .. نمرة واحد : كان فيه راجل رفيع جدا ... الله !! مالكم ياولاد ؟؟

قالت عطيات فى وجوم : لا شىء .. لا شىء .. اكمل النكتة .

ـ اكمل النكتة !! ماذا جرى ؟ لقد تركتكم فى أمان الله منذ ربع ساعة !

ـ ولا زلنا فى أمان الله ... اكمل.

ـ ماذا حدث يا رفعت ؟ هل هو شىء يتعلق بالامتحان ؟

ـ تقريبا .

ـ يا شيخ .. وماذا يهمك من ذلك؟ انك بلا شـك قـد أديت واجبـك .. والنتيجة ليست من صنعك .. ثم لماذا تتعجل النتائج وتحزن من الآن وتعـكر علينا فرحتنا بك .

ـ لقد كان الامتحان قاسيا وجاء على هيئة لا أتوقعها .. ولن أنجح فيه .

ـ ولماذا تؤكد عدم النجاح !!؟

كثيرون يظنون أنهم أخفقوا بينما يكون طريقهم هو النجاح بعينه ... فهـل اطلعت على الغيب لتعرف هل الأحسن ما أردت أو ما أراده القدر ؟

اسمع النكتة اسمع .. ولا يهمك.. هه .. يا خبر .. هـل يضـنيك أن ترسب فى مادة ! ؟ لقد كنت أنا بطل الوزن الثقيل فى هذه اللعبة ..والعجيب اننى ظللت محتفظا بالبطولة الى أن تخرجت .. الى الشارع .. اسـمع النكتة .. كان الرجل رفيعا جدا .. هه .

وظـل حسين يلقى بنكته حتى انتهى من الثلاثين وأنا أسمع ولا أطـرب .. أو أشرد ولا أسمع .. وقمت الى فراشى فتعذبت فيه الى الصباح .. عينـاى مفتوحتان .. وذاكـرتى مرهقة بتذكر كل ما كان منها .. كلماتها .. لفتاتها .. أمانيها فى حبنا .. وخيالى معـذب اذ يراها بعينه النفاذة أسيرة ..حزينة .. مضـيعة .. أوه يا الهى .. لماذا أعطيتنا القدرة على التذكر والتصور ان كانت الذكرى عـذابا !! لم لا أقص قصتى على حسين !! انه أخ طيب .. ولكن ماذا يستطيع أن يفعل من أجلى ؟ ان ربع نفقاتى يدفعها هـو صراحة .. والربع الآخر تدفعه أختى ـ امرأته ـ من ورائه ، وان كنت لا أظنه يجهل ذلك حتى الآن وخصوصا أن مرتبه ليس من الضخامة بحيث يضل فيها جنيهان كل شهر .. وما أستطيع أن أفكر فى أبى .. انه مذ تزوج فارقنا جميعا الى بيت زوجته وصار كل نصيبنا منه زيارة ليلة الجمعة وبضع جنيهات فى أول الشهر .. ولا يدع لنـا فرصـة لمناقشته فى شىء .. لقد جعلوا منى رجلا يحمل الهم قبل الأوان .. لم أشعر يوما اننى فى سن التاسعة عشرة .. اننى أفكر فى اخواتى الساهرات من أجلى .. والتى تدخر مصروفها لتعطيه لى .. وحسين نفسه الذى يجعـل زيارتى له فخـرا ومصـدر سرور ، ولا أراها الا عبئـا ومصدر خسارة!! وكل رصيدى تمنيات طيبة أحملها لهم جميعا بين ضلوعى .. لـكنها على أى حال ـ لن تسـمو الى



مستوى تضحيتهم العظيمة ٠٠ انهم يقتطعون من طعامهم ليعطونى ٠٠ أما أنا فسأعطيهم ما بقى منى ٠٠٠ وشتان ما بين الموقفين !! آه ما هذا الذهول ؟ هل أنا فى حاجة لمزيد من الآلام لأسترجع الماضى على هـذا النحو المؤسف ؟ أما كفانى هم هذه الليلة ٠٠

وفى الصباح كنت أقف فى الشرفة حافيا أشعث الشعر متهدل الثياب ٠ لكنى كنت يقظا تماما ، وكانت كل خواطرى تتجه الى النافذة التى أشرقت منها الشمس على قلبى ذات صباح فادفأته ٠٠٠ ثم غابت الى الأبد ٠٠

ـ يا خسارة ٠٠ هانت عليك هـذه الشرفة حتى تقف فيها دون أن تغسل وجهك ؟

ـ ولماذا أغسله يا عطيات ماذا فى الحياة من جديد حتى أجدد نفسى لاستقباله ؟

ـ فى الحياة مستقبلك وشبابك وأيامك الزاهرة ٠٠ وبسمة الدنيا العريضة ٠٠ عام واحد وتتخرج ٠٠ وعام آخر ويمتلىء جيبك بالمال ٠٠ وتتهافت عليك الحسان فتختار من يريد قلبك ٠

ـ لقد اختار قلبى وانتهى الامر ٠٠ وما أظننى بمستطيع أن أختار غيرها

ـ أنت واهم ٠٠ انك ستحب غيرها ٠٠ وربما غيرها أيضا ٠٠ وانها ٠٠ والله ٠٠ لا تستحق منك كل هذا الأسى ٠٠ انك لم تتزوجها على أى حال لتحزن لفراقها كل هذا الحزن ٠

ـ بل اننى تزوجتها ٠

ـ تزوجتها ؟!

ـ نعم تزوجتها ٠٠ ألفتها روحى ٠٠ ورضيت ٠٠ وعاشت معها ٠٠ فماذا يبقى !؟ ربما كانت الصلة الجسدية بين الزوجين تخلق فيهما من الأحاسيس ما يزيد الحب أو ينقصه لكن الحب هو الوضع الانسانى المتعادل ٠٠ هو الانسانية الحقيقية ٠٠ وقد عثرت على انسانيتى فى حبها ٠ الحب احساس لا يتوقف على الرؤية الخارجية ٠٠ هناك من هى أجمل منها بلا شك ٠٠ لكنها لن تروق لى مثلها ٠٠ انها مسألة احساس ٠٠ ان تهافت السياح على ايطاليا مثلا ليس معناه أن ايطاليا أجمل من مصر !! ولكن معناه أنهم يجدون احساس الراحة متوافرة هناك عن هنا ٠

ـ لا ٠٠ معناه أن ايطاليا استطاعت أن تجذبهم فاكتفوا بها ظنا منهم انه ليس هناك مثلها ٠٠ وغدا تجد « ايطاليا » أخرى تجذبك وتعطيها نفس الاحاسيس وربما أكثر !!

ولمعت فى ذهنى صورة خاطفة لزميلة فى الكلية أظهرت نحوى شيئا من الود لكنى لم احاول مجاراتها لما كان يملأ قلبى من هيام بالمرآة فى المدينة الصغيرة ٠٠ عجيب ٠٠ أأنكر فى الأخرى ولا زال قلبى ينزف من الأولى !؟ كلمة عابرة من أختى تقولها لتغرى قلبى تحولنى من فتى مخلص الى غادر لا قيمة عنده للذكرى ٠٠ ولا وفاء ؟

ـ صدقنى ـ الزمن ٠٠ الزمن يا رفعت يصنع أشياء كثيرة ٠

ـ الزمن هو الذى أفسد كل شىء ٠٠ لو أن الزمن تقدم بى عاما أو تأخر بها عاما لكنت تخرجت ولأمكنتنى ظروفى من الوقوف الى جانبها فى شجاعة وحماية نفسى وحمايتها من المصير التعس الذى نساق اليه ٠٠ كل البلاء من الزمن ٠

ـ سامحك الله يارفعت ٠٠ لو نظرت الى الوراء لرأيت نفسك منذ سنوات طفلا حزينا يتيما تثير رؤياه الشجن ٠٠ لكنك الآن ٠٠ رجل ٠٠ مكتمل ٠٠ ولك مستقبل ٠٠ كلك مغريات ٠٠ أليس غريبا أن تعتبرنى أختى صاحب مغريات وأرى نفسى ضائعا لانعدام المغريات !! هل هو « الكعكة فى يد اليتيم عجبة » أم أن فى هذه المواهب حقيقة لكنى لا أراها لشدة التصاقها بى:

عندما تتحطم المرآة نرى كل شىء فى غير مقاييسه الطبيعية وتختل صور المرئيات ٠٠ وتبدو المعالم متنافرة شائهة ٠٠ لم تعد مدينتى الصغيرة جميلة كما كانت ، لم أسمع تحيات أحد ٠ لم أبتسم للأطفال ٠ بل أزعجنى صياحهم فى الشارع وأرهق وحدتى ٠٠ لقد تحطمت مرآتى الخاصة التى كنت أرى صورتى مستكنة فى قرارتها ، وعدت انسانا ضائعا ٠٠ برغم اخوتى ٠٠ وكان ضروريا أن أرحل ، لكن عطيات حاولت أن تنثر دموعها فى طريق عودتى حتى تحملنى على البقاء الى انتهاء العطلة ٠٠ لكن ٠٠ هل أنا حقا فى عطلة ؟ بالعكس ٠٠ اننى فى السجن ٠٠ سجن من عذابى ٠٠ ولكن أحدا لم يستسلم ٠٠ ولا أنا ٠

ـ ارحمونى ودعونى أسافر بلا ضجة ٠

ـ دعه يا حسين ٠٠ دعه لحاله ٠ لقد كان يزورنا من أجلها وقد انكشف الغطاء ٠٠ دعه يذهب ٠

الثعلب

متولى

للكاتب الايطالى المعاصر : اجنازيو سيلونى

ترجمة : ابراهيم فتحى

كان دانيل فى حظيرة الخنازير يقدم عونه الى أنثى خنزير جاءها المخاض حينما سمع زوجته فيلومنا تناديه من داخل المنزل الذى يبعد قرابة ثلاثين ياردة • وجاءه صوتها : « دانيل •• هناك من يريد التحدث اليك » ولكنه لم يعبأ بندائها رغم أنها كررته ، فقد كان منهمكا فى عمله كل الانهماك، فوق أنه أصدر أوامره بألا يزعجه أحد مهما تكن الاسباب • وفى النهاية حينما لم تتلق زوجته ردا كفت عن النداء •

وكان دانيل قد اتخذ كل دواعى الحيطة لكى يتم الميلاد فى يسر بقدر ماتسمح الظروف ولكن مسألة الميلاد من المسائل التى لايقين فيها • فهو قد جعل أنثى الخنزير تتبع نظاما خاصا فى الطعام منذ اليوم السابق ، كما أعطاها جرعة كبيرة من زيت الخروع مغالاة فى الحيطة ، ومع ذلك فقد كان يخشى أن يصبح الميلاد عسيرا ، ويصيب الضرر مؤخرة الأنثى فيؤدى ذلك الى نضوب اللبن • وكان قد استدعى أجوستينو لمساعدته ، واجوستينو وان يكن يعيش هنا فى تسينو (سويسرا) منذ سنوات الا أنه قادم من برجامو (ايطاليا) فهو يحترف البناء ولكنه يستطيع القيام بأشد الأعمال غرابة حينما ينتهى موسم البناء •

وبدأت الولادة بداية مبشرة ، فبين أيديهما خنازير ثلاثة صغيرة ضئيلة كأنها الفئران، ولم يكن أمام أجوستينو مايقوم به الا أن يجد اسما مناسبا لكل خنزير صغير ، ولكن الخنزير الرابع الصغير لم يرغب بعد فى القدوم ، فاضطر أجوستينو أن يمسك بالأم من فمها بينما مد دانيل ذراعه لاخراجه لكى يفسح الطريق لما سيجىء •

وقال أجوستينو مشيرا الى الخنزير الصغير الذى لم يرغب فى المجىء •• سنسميه بنيتو (موسولينى) •

فأجابه دانيل : مستحيل •• فقد بعناه الى متجر ايطالى

فرد أجوستينو : أيها الحيوان الذى يحسب لكل شىء حسابا •

وفى تلك اللحظة ارتفع نداء لويزا صغرى بنات دانيل : **بابا هنا من يرغب فى الحديث اليك** ! »

وواصل دانيل رعايته للخنازير ، فقد كان من الضرورى تجنب كل احتمالات العدوى • وهو فوق ذلك كان قد أفهم أسرته ، أنه حينما يعمل يستغرق فى عمله ولا يحب أن يزعجه أحد لأى سبب من الاسباب ، لذلك فلم يجب نداء لويزا أيضا ، واستمر فى مزاولة عمله ، فوضع الكائنات الصغيرة فى عناية داخل صندوق كبير مبطن بالقش ثم غطى الصندوق بغطاء من الصوف • أما أجوستينو فكان يزيل ما تخلف عن الولادة من آثار ، ويعيد الحظيرة الى نظامها الاول • ثم ارتفع صوت سيلفيا كبرى بنات دانيل منادية: بابا ••• هنا من يريد التحدث اليك ، وكانت تسير فى الطريق متجهة الى الحظيرة •

ووصلت بعد لحظة تصحبها كاترينا الحائكة ، وهى عانس تقدمت بها الأعوام نزحت من فلورنسة ، ولكنها كانت تعمل منذ سنوات طويلة فى مينوسيو لكسب قوتها ، وكانت تكسبه فى أكثر الاوقات ، لا بحياكة الثياب بل باعادة تفصيلها وباصلاحها • وانفجر دانيل صائحا حينما وقعت عيناه على كاترينا: هل تقصدين أن تقولى انكم تزعجوننى منذ ساعة كاملة من أجل هذه المرأة ؟

ولم يكن من المعروف عن كاترينا سرعة البديهة فى التعبير عن نفسها •• ولم تأبه سيلفيا بلوم والدها وأجابت : كاترينا تريد أن تتحدث اليك •

واتجه أجوستينو وسيلفيا ناحية المنزل ، تاركين كاترين وحدها مع دانيل وبدأت كاترينا حديثها : « أنت تعلم أننى امرأة لا أهتم بغير شؤونى الخاصة» فرد دانيل ونبرات صوته لا تدعو الى التشجيع فى الاسترسال : « لا علاقة لى بشئونك » . فأجابت : « ولكنك تعرف أننى لم أتدخل طول سنوات معيشتى فى تسينو فى شؤون أحد » • فرد دانيل وهو يستدير متجها الى المنزل « هذا الامر لا يعنينى » •

وبمجرد أن اتضح لكاترينا أن دانيل مصمم على ألا يصغى اليها قررت أن تتخلى عن المقدمة وأن تدخل فى الموضوع: « جاء لزيارتى سيد ايطالى وطلب منى أن أصبح جاسوسة » •

وتوقفت خطوات دانيل •

واخذت كاترينا نفسا عميقا ، وبدأت تحدثه عن هذا السيد الايطالى الذى التقت به مصادفة ذات مرة فى أحد المكاتب فى لوكارنو وعما قاله لها :

« لقد قال لى أنت تعيشين فى تسينو منذ سنوات ، وأنت تعرفين كل الناس، وعملك يتطلب منك أن تذهبى الى كل مكان ، فأنت تدخلين مئات المنازل ، وتسمعين مئات المحادثات • وأنت امرأة عجوز وحيدة ولا يخشى أحد أن يقول أى شىء فى حضورك •• فأجبته بأن هذا صحيح .. الجميع يحترموننى لأننى لا أهتم الا بشئونى الخاصة •• فواصل حديثه بنفس الطريقة ثم قال : اذا كنت مستعدة لكى تجمعى معلومات عن نشاط بعض الايطاليين المعادين للفاشية الذين يعيشون فى تسينو بين اسكونا وبيلنزونا ، فانك تستطيعين أن تأملى فى ادخار شىء من المال لشيخوختك » •

وكان دانيل قد استفاق الآن من ذهوله وظل يحدق فى كاترينا متفحصا

وهى ترتجف وتنشج بالبكاء طوال حديثها قائلا : « لماذا تأتين الى بهذه القصة ؟ » • فتساءلت المرأة : « ماذا تقصد ؟ » فيجيب دانيل : « أنا من تسينو ولا تعنينى شئونكم الايطالية •• لماذا أتيت الىّ ؟ من أرسلك ؟ » •

فأجابت المرأة وهى تنشج : « ولكنك تعرفنى منذ ثلاثين عاما ، وتعرف أننى أكسب قوتى بطريقة محترمة ، وأنت تعرف أننى لا أهتم الا بشئونى الخاصة» فقاطعها دانيل رافعا صوته : « ان ما اريد أن أعرفه هو من أرسلك الى ؟ » • فأجابت كاترينا : « لم يرسلنى أحد » ثم أضافت بهدوء : « أنا آسفة لازعاجك •• لن أمكث أكثر من ذلك » •

واستدارت فأولته ظهرها ، وبدأت تسير مبتعدة فى الطريق المؤدى الى جوردولا وميوسيو ، وتبعها دانيل وواصل الحديث معها بعد لحظة : « اذا لم يكن قد أرسلك أحد ، فلماذا أتيت الى ؟ » • فقالت كاترينا وهى تنظر الى الأمام مواصلة السير : « كنت أبحث عن النصيحة » • فسألها دانيل : « أى نوع من النصيحة ؟ » فأجابت المرأة بعد أن كفت عن السير : « هل أقبل عرض السيد الايطالى أم أرفضه ؟ أنا لا أعرف ماذا يجب أن أفعل • لم يسبق لى فى حياتى كلها أن أصبت بهذا القلق والاضطراب •• فاذا وافقت الرجل كسبت مالا قليلا عن طريق الاساءة الى الذين لم يسيئوا الى أبدا • واذا رفضت فسيعتبروننى معادية للفاشية ، ويضطهدوننى بكافة الطرق •• أنت تعرفنى منذ ثلاثين سنة وتعرف أننى لست فاشية ولست معادية للفاشية • وانت تعرف أننى أكسب عيشى دائما بطريقة محترمة ، واننى لا أهتم الا بشئونى الخاصة » •

وظل دانيل غارقا فى أفكاره •• واصلت كاترينا سيرها بآلية ، ودانيل يتبعها من جديد • وكان أجوستينو ينتظر فى نهاية الطريق •

وقال دانيل للمرأة : « لا تخافى •• اخبرى أجوستينو بما قلته الآن ، وافعلى ما يطلبه منك » • وظل دانيل يرمقهما وهما يسيران فى اتجاه جورولا ، ثم عاد الى حظيرته ليرعى خنازيره ••

❊❊❊

وذات يوم كان دانيل يعمل معابنته فى أعراش الكروم حينما ظهر أجوستينو ، ولم يكن دانيل قد رآه منذ مولد الخنازير الصغيرة ، وكان دانيل قد انتهز فرصة يوم من أيام الفراغ لانقاذ كرومه من أن تدمرها الآفات ، فكان يبحث عن مواضع الاصابة مستخدما فرشاة معينة ، وابنته تتبعه حاملة وعاء يملؤه الماء المغلى ، تصبه على مواضع الاصابة • وكان أجوستينو يقود عربة نقل تحمل طوبا • فأبطأ صائحا : «هذا العمل يسير سيرا حسنا » • فأجاب دانيل دون أن يدرك مقصده على الفور: « أى عمل ؟ » • فقال أجوستينو وهو يلوح بيده مواصلاقيادة سيارته : «أنت تعلم ما أعنيه » • فهز دانيل رأسه وقال لابنته « ان الايطاليين رائعون كرماء على سجيتهم شجعان ولكنهم يتكلمون كثيرا جدا » ، وعقدت ابنته سيلفيا العزم على أن تقول شيئا قد رغبت فى قوله منذ زمن طويل فقالت : « يا أبى ، أنا أعلم أنك تفعل الكثير من أجل حرية ايطاليا رغم أنك لا تتحدث عن ذلك •• واننى

أشتاق كثيرا لان أساعدك » فأجابهـا الوالد : «اجمعى هذه الفروع ثم أشعلى فيها النار • هذا هو كل ما يجب عليك أن تقومى به الآن » • وأطاعت سيلفيا، وتطلع دانيل اليها وهى تقبل من بين الكروم منحنيـة وهى تجمع الفروع فى حرص وعناية صانعة منها كومات صغيرة •• لقد احتفلت بعيد ميلادها العشرين فى نوفمبر ، وظل دانيل يتطلع اليهـا يملؤه الفخـر والخوف فقد كانت هى أثمن ما يملكه وفى نفس الوقت لايستطيع أن يكون على يقين من مصيرها •

***

لم يلتق دانيل بصديقه أجوستينو بعد ذلك الا صباح أحد أيام الآحاد بعد مرور فترة قصـيرة • وكان دانيـل وفلومينا يتحدثان عن ثعلب يشن غارات ليلية على حظائر الدجاج فى كادينـازو وروباساكو ، وكانت المرأة تقول : «لقد وجـدوا ما يقرب من خمسين دجاجة مقطوعة الرقبة » فعلق زوجهـا قائلا : « اذا كان يقطـع الرقاب ويمتص الدماء فلن يكون ثعلبا بل ابن عرس » ، وأقبل سائق عربة من كاوينازو وسالوه الرأى، فادلى بدلوه : انه ثعلب لا شك فى ذلك • بل ربما كان هناك أكثر من ثعلب ، ففى احدى الحظائر لم يترك الا عددا من ريش الذنب » فقالت فلومينا لزوجها « علينا أن نحرص على دجاجنا •• فى العـام الماضى كان المرض هو الذى أتى عليها •• ولم يكن ينقصنا من المصائب الا الثعلب» فقال دانيل « سننصب فخا لاصطياده» وفى تلك اللحظة أقبـل أجوسـتينو فانتحى بدانيل جانبا وأخبره أن الامور تسير على ما يرام ، فقد عملت كاترينـا بنصيحتى وفعلت ما أشرت عليها به ، وسيأتى الجاسوس لالتهام الطعم •••

يجب أن تكون فى انتظارى فتسـاءل دانيـل وقـد ثارت عواطفه « ما هى فكرتك ؟ » فأجاب أجوستينو « يجب أن ننصب فخا » ولم يستطع دانيل أن يمنع نفسه من الابتسـام عند سماع كلمـة « فخ » فهى الكلمة الوحيدة فى حديثه مـع أجوستينو التى سمعتهـا فلومينا ، وسرعان ما وثبت عليهـا ، فقالت لأجوستينو : « الفخ لا يكفى ، فالثعلب ماكر ، ويظل يدور حول المكان باحثا قبل أن يقرب الطعم ، وحتى بعد ذلك فهو لايلتقطه بأسنانه فورا ، ولكنه يحاول أن يجذبه اليه بأقدامه • انهـا فكرة حسنة أن ننصب فخا من الصلب ولكن لابد أيضا من أن ننثر حوله بعض الطعام السـام ، ولم يفهم اجوستينو للوهـلة الاولى ماذا تهـدف اليه تلك القصة • فالتفت دانيل الى زوجته قائلا « لا نستطيع التاكد من جدوى الطعام السام أيضا •• فمهما يكن الثعلب جائعا فهو لن ياكل قطعا متناثرة من الطعام ، وحتى اذا ابتلع قطعة من اللحم السام او جوزة سـامة فليس من المؤكد ان السم سيحدث أثرا • فـلا أحد يعرف الكمية المناسبة من الاستركنين لقتل ثعلب مجهول • فاذا كان ثعلبـا قويا وكان الاستركنين ضعيفا فلن يصاب الا بآلام عابرة فى المعـدة لا تمنعـه من افتـراس الدجـاج ، أمـا اذا كان الاسـتركنين أقـوى من اللازم فكل مايحـدث هو أن يتقيأه الثعلب ويفرغ معدته ويزداد اشتهاؤه للدجاج » وقال أجوستينو بعد أن أدرك آخر الامر عن أى شىء يدور الحديث « بعبارة أخرى ، فمن المسـتحيل أن يصطاد الانسان ثعلبـا » فأجاب دانيل : « انه ليس

مستحيلا ولكنه أمر شديد الصعوبة ، ثم أضاف « ولم يحدث أبدا أن كان الكلام كافيا لاصطياد ثعلب » ٠

وعادت فيلومنا الى المنزل حيث كانت صغرى بناتها تناديها ، وذهب الرجلان الى البستان لمواصلة حديثهما ٠ فقال أجوستينو : « وأخيرا وافقت كاترينا على أن تقوم بالعمل بعد زفرات وتنهدات كثيرة ، ولقد ذهب الجاسوس الايطالي لزيارتها مرة ثانية أمس ، وترك لها عنوانا في « بالانزا » لتستخدمه في الكتابة اليه حينما تتجمع لديها الانباء» وتساءل دانيل : « ألم يعطها أسماء ويطلب أن تتجسس عليها بشكل خاص• فأجاب أجوستينو : « الظاهر أن ذلك لم يحدث حتى الآن ولكنه طلب منها أن تعرف أسماء العمال الايطاليين الذين يعبرون الحدود كل يوم ليتصلوا بأي من الذين تحيط الشكوك بأفكارهم السياسية أو بالاجئين ، وقد أخبرها أيضا أنها ستحصل على مبلغ كبير من المال اذا استطاعت أن تساعده في اكتشاف أسماء الذين يهربون الكتب الثورية والمنشورات الى ايطاليا من سويسرا» وتساءل دانيل : « ألم يخبرها بأن شخصا معينا كان موضع ريبته ؟»

وأجاب أجوستينو : « فيما يبدو لم يحدث ذلك حتى الآن » ثم أضاف « لقد وعد كاترينا بأنه سيبحث عن وسيلة تمكنها من الاستقرار في زيورخ اذا ما حدث وارتبط اسمها بشيء يدينها الناس من أجله ٠ لقد عاشت في تسينو منذ ثلاثين عاما وهي بطبيعة الحال تحلم دائما بأن تعاود الحياة في مدينة كبيرة» وتساءل دانيل « هل تعتقد كاترينا أن لى أية صلات بالايطاليين الثوريين ؟ » ٠

فأكد له أجوستينو أنها لا تعتقد : «لقد ظلت في كل مرة أتحدث اليها تتنهد وتتأوه وتخبرني بأنها لا تهتم الا بشئونها الخاصة ، وأنها لن تفعل غير ذلك في المستقبل وأن السنيور دانيل رجل مهذب حقيقة وقد تعطفت عليك بأنك من أصلاء أهل تسينو ، وأنه لا علاقة لك بالسياسة ومن الممكن أن تثبت ذلك » ٠

وكانت سيلفيا ترقب والدها من حجرتها في الطابق الأعلى وهو يتحدث الى أجوستينو ونادت « هل أستطيع النزول » ؟ فقال الاب « تستطيعين بطبيعة الحال » ٠ وجاءت الفتاة الى البستان وحينما اقتربت من الرجلين غيرا موضوع الحديث ، وتحدثا عن الطقس ٠

وكل مساء كان دانيل ينصب فخه المصنوع من الصلب خارج حظيرة الدجاج وينثر قطع الطعام السامة ، ولكن الثعلب لم يظهر له أثر ٠ وكذلك كانت الحال مع ثعلب أجوستينو فلم يكن متعجلا في أن تصطاده الشراك التي تنصب له وعلى أية حال فان دانيل لم يسمع شيئا عنه ٠ وكان دانيل معتادا أن يقول ويعيد القول : «ان حياة رجل الريف هي حياة من الصراع المستمر ، صراع مع الطقس غير المواتي والآفات والطيور ، ولكن أسوأ أنواع الصراع هو الصراع مع الثعلب » وبعد أن انتهت الحملة على آفات الكروم ، تفرغ دانيل لاستئصال آفات أشجار الفواكه ، فخفف عنها ما تنوء به من فروع ذابلة، ولحاء يابس ميت وطحالب، كما كانت سيلفيا تقتل ديدان الاخشاب

التى كانت تستخرجها من الثقوب مستخدمة قطعة من السلك وحينما تم تطهير كل سيقان الاشجار ، جاءت فلومينا وطلتها باللون الابيض ٠

وقال دانيل لابنته : الآن قد قمنا بحماية الاشجار من التربة حتى الفروع ولكن كيف نحميها مما يهبط من أعلى٠ من السماء ؟

وفجأة لمح أجوستينو عند الباب الامامى ، وهو يمازح سيلفيا منتظرا قدوم الاب فتساءل دانيل : « ما هى آخر الانباء ؟ » وأجاب الرجل « لقد نصبنا الشرك » ٠

ـ والثعلب ؟ ـ سنصطاده الليلة ٠ وتنهد دانيل : « لو كان فى استطاعتنا التأكد من اصطياد كل الثعالب ! ٠ ومضى أجوستينو يسهب فى شرح الطريقة التى سيتم بها اصطياد الثعلب: « أرسلت كاترينا تخبره أن لديها أنباء هامة ورتبت أن تلتقى به فى الساعة التاسعة من هذه الليلة فى «ريفابيانا» بالقرب من البحيرة ، خارج الكنيسة القديمة ، وسأحافظ على الموعد وسيحافظ عليه معى اثنان آخران » وتساءل دانيل « ألا تعتقد أنه يحسن ابلاغ البوليس » فرد عليه الآخر « سيكون هذا تصرفا أخرق ٠٠ فسيترامى الخبر الى القنصلية الايطالية فى الحال وسيفلت الثعلب » ولم يكن دانيل يعرف اجابة على هذا الاعتراض ، فمن المعروف أنهناك عناصر لا ثقة فيها بين صفوف البوليس ٠ ولكن المخاوف كانت تساوره نتيجة للمصاعب والاخطار التى ستحدق باللاجئين الايطاليين فقال « يجب أن يقوم رجال من أهل تسينو بالعمل » ولكن أجوستينو اعترض قائلا : « ان معنى ذلك اشراك عدد كبير ٠٠ ثم ان من الواجب اقامة فخ ايطالى للثعلب الايطالى » ٠

وفى هذا المساء سافر دانيل بالقطار الى لوكارنو ، وكان يسير متمهلا حوالى الساعة العاشرة الى جوار البحيرة فى اتجاه ساليجى منتظرا أجوستينو الذى سيقبل حاملا أخبار انجاز العملية ٠ وحوالى الساعة العاشرة والنصف أقبل « لوكا » وهو نجار من مينوسو بدلا من أجوستينو قائلا : لقد أصيبت يد أجوستينو بجرح طفيف ، فلم يأت حتى لا يجذب الأنظار الى ضمادته ٠ وكان دانيل شديد التلهف : وماذا عن أخبار الشخص الآخر ؟ ٠

« تركناه ملقى هناك ٠ لقد جاء الى مكان اللقاء ومعه اثنان تركاه منفردا مع كاترينا بعد أن وعداه بالرجوع بعد ساعة ، فانتظرنا وراء الكنيسة حتى اختفينا فى اتجاه «نافجنا» ٠ وفى تلك الأثناء بدأت كاترينا فى الأنين والتنهد واخبار الجاسوس الكثير من الهواء القارع ٠٠ وبين الأكذوبة والأكذوبة واصلت احاطته علما بأنها لم تتدخل ولن تتدخل فى شئون أحد ، وأنها لا تعرف الا شيئا واحدا وهو أن الكتب والأوراق الثورية تهرب الى ايطاليا من دير الفرنسسكان، دير مادونا ديل سباسو فى لوكارنو !»٠ ودفعت تلك القطعة الروائية البارعة دانيل الى أن يضحك من كل قلبه ٠ وواصل لوكا : « ومضى أجوستينو وحده اليه وتركنا وراء الكنيسة وكان من المقرر أنه لن يستخدم مسدسه الا اذا حاول الرجل أن يبدأ باستخدامه

واتجه أجوستينو اليه كما لو كان يمر بمحض الصدفة ، ولما كان الظلام سائدا فقد أشعل سيجارة وتعرف عليه فى ضوء عود الثقاب فناداه : « هذا وجه مالوف أنت جاسوس ايطالى • وألقى بالسيجارة بعيدا وبدأت المعركة وغادرت مخبأنا فاسرعت كاترينا بالفرار » وسأل دانيل : « هل اشتركت فى المعركة ؟ » فأجاب لوكا « لم يكن ذلك ضروريا •• لقد واصلنا المراقبة لنتأكد من أن أحدا لم يأت • وسرعان ما تغلب أجوستينو على خصمه ، فقد طرح الرجل أرضا وظل ينهال باللكمات على رأس الرجل بما يكفى لتحطيم صخرة • كنا نعرف مقدار قوة أجوستينو ولكن لم تكن لدينا فكرة عن كل هذه الكراهية التى تملأ قلبه » • فقال دانيل : « لا تنس أن الفاشست قتلوا أخاه • ولكن كيف أصيبت يده ؟ » •

ـ لقد عضها الجاسوس • فقد أطبق بأسنانه على يد أجوستينو اليسرى وظل متشبثا بها ، فصوب أجوستينو بيده الاخرى ضربات مجنونه الى فك الجاسوس ولكنه ظل متشبثا بيد أجوستينو ، فقبض أجوستينو على عنقه وظل يخنقه • وتساءل دانيل فزعا : هل قضى عليه ؟ ـ يبدو الأمر قريبا من ذلك ـ اذن يجب أن يختفى ربما كان الافضل أن يذهب الى فرنسا •

وقرر دانيل نتيجة لهذا التحول فى الاحداث أن يقضى الليل فى لوكارنو ثم يذهب فى الصباح الى بلنزونا ، ولكى يجنب أسرته أن تقع فريسة للقلق ، تحدث اليهم مستخدما تليفون مقهى فردت سيلفيا فى الحال : انه لحظ عظيم أن تتكلم •• منذ ساعة وأنا أبحث عنك فى كل مكان ، وتساءل دانيل مندهشا: ماذا حدث ؟ فأجابت سيلفيا : لم يحدث لنا شيء • ولكن سيارتين اصطدمتا على مقربة من المنزل فى الطريق الى جوردولا، وأصيب رجل باصابات خطيرة •• وقال الطبيب ان اصابته من الخطورة بحيث لا يمكن نقله بعيدا ، فقام الناس ببعض الاستفسارات وأجمع الجيران على أن منزلنا هو المنزل الوحيد الذى يمكن أن يقيم فيه مؤقتا •• وقالت أمنا اننا لا نستطيع أن نستضيف فى منزلنا رجلا غريبا وأنت بعيد ولكننى أجبتها بأنك كنت ستوافق بكل تأكيد ، فقال دانيل « بطبيعة الحال » أين يقيم الآن ؟ » وأجابت سيلفيا فى الطابق الاول فى حجرتى ••• وأنا أنام الآن مع لويزا •

ـ هل حالته خطيرة ؟ ـ لم يقطع الطبيب برأى وسيرسل الليلة ممرضه رغم أننى عرضت أن أقوم بكل شيء ـ من أين أقبل هذا الرجل •• ما اسمه ؟ وأوضحت ابنته أنه لا يزال غائبا عن الوعى • •ولابد أن ينتمى الى أسره غنية لأن الطبيب أراد أن يقدم لأمى نقودا على الفور • ورد دانيل : « يؤسفنى أننى لن أستطيع الحضور الى المنزل اليوم لمساعدتكم ، فأنا مضطر للبقاء هذه الليلة فى لوكارنو والى أن اذهب فى الصباح المبكر الى بلنزونا لانجاز عمل عاجل ولكنك تعلمين أننى أثق بك بكل ما يطلبه منك الطبيب •• قومى به عن طيب خاطر » •

وخاطب دانيل أسرته فى صباح اليوم التالى ليسأل عما اذا كان الجريح لا يزال على قيد الحياة فأجابته لويزا لان سيلفيا كانت قد ذهبت لشراء بعض الأشياء ، تحسن المسكين قليلا وجاءت ممرضة فى

الليلة الماضية ولكن سيلفيا لم تنم الطبيب جاء منذ لحظة ، وأمسك الطبيب بالسماعة فقال له دانيل : يا دكتور كن حر التصرف في استخدام المنزل .. يؤسفني أنني لست معكم في مثل هذا الوقت ، ورد الطبيب : « أستطيع أن أقول أن الرجل سيشفى بكل تأكيد . لقد أصيب في رأسه أصابات بالغة الخطورة .. ولكن يمكن القول الآن انه لن تكون هناك مضاعفات .. ولابد من تعويضكم عن كل المصروفات التي تحملتموها . وسأل دانيل : ماذا عن الرجل ؟ أين يسكن أهله ؟ فقال الطبيب انه مهندس ايطالي من بولونا اسمه امبرتو ستتلا ربما تكون قد سمعت عنه لقد جاء الى سويسرا ليدرس توليد الطاقة الكهربية ، فقال دانيل كائنا من كان الرجل ، فأسرتي ومنزلي في خدمتك ولم يضيع دانيل وقته فقد حاول في بلينزونا على الفور ان يكشف الى أي مدى وصلت تحريات البوليس بالنسبة الى محاولة القتل في ريفابيانا في الليلة الماضية ، وكان من الذكاء بحيث لم يبدأ هو الحديث في الموضوع بل كان ينتظر أن يبدأ الآخرون . ثم مضى لمقابلة محاميه واصطحبه الى المحكمة لتسوية بعض الامور الشكلية التي لاتتطلب أي اسراع ، وكان يتوقف في الشارع ويتحدث الى كل المعارف الذين قابلوه . واشترى جريدتين من جرائد الصباح ولكنهما لم يكتبا كلمة عن حادث الليلة الماضية . وكان من الواضح أن أحدا في بلنزونا ، لايعرف شيئا عن الحادث .

واستجمع دانيل شجاعته في النهاية وفاتح محاميه في الموضوع : لقد سمعت عن حدوث مشاجرة سياسية بين الايطاليين في الليلة السابقة عند أطراف لوكارنو .

فأجاب المحامي : اذا كان ذلك قد حدث حقيقة ، فلا أحد يعرف عنه شيئا هنا ، ولا يمكن أن يكون حادثا خطيرا والا لكنا قد سمعنا به جميعا فالعلاقات بين الفاشست وأعدائهم متوترة هنا للغاية . وكان دانيل قلقا شديد القلق ، ولكن هذه الاجابة ردت اليه الطمأنينة ، فلا شك في أن خيال لوكا قد بالغ في تصوير الامر أكبر مبالغة . وقال دانيل لنفسه : ان هؤلاء الايطاليين رائعون كرماء على سجينهم ولكنهم يتكلمون كثيرا . ووصل به تفكيره الى أن الامور لم تزدد سوءا ، والا كان على أجوستينو وكاترينا أن يغادرا سويسرا . ودفعه ذلك الى أن يشعر بالضيق لانه اضطر الى أن يقضي ليلة بعيدا عن بيته كما أضاع يوم عمل كامل بلا ضرورة . وفي القطار في طريق العودة كان بعض الفلاحين يناقشون موضوع الثعلب الذي يشن الغارات على الدجاج في ماجادينو .

فقال أحدهم : ان الثعالب شديدة الدهاء ، أكثر دهاء من الانسان بكل فخاخه وقال آخر : هناك نوع جديد من الفخاخ ، اختراع ايطالي . فرد الاول قائلا : انه يصنع ضجة عظيمة ولكن لا جدوى منه . فقال دانيل : ان هذا صحيح .. انه يصنع ضجة عظيمة دون جدوى .. انه لايصنع الا ضجيجا هائلا .

***

صعد دانيل الى الطابق الاول بمجرد أن وصل الى البيت لكي يرى الجريح . وعلى باب الحجرة وجد سيلفيا تعترض الطريق واضعة اصبعها على شفتيها لكي

تحمله على الصمت ، وهمست فى أذنه « يجب ألا يتعرض المريض لاى ازعاج ٠٠ يجب ألا يستقبل زوارا أو يتبادل أية أحاديث ٠ فقد قال الاطباء يجب ألا يستثيره أى شىء على الاطلاق» فقال دانيل خائب الامل : « اذن فليس هناك ماأستطيع القيام به » فهمست :«تستطيع أن تخلع حذاءك قبل أن تهبط الدرج حتى لا تحدث أية ضجة » ٠

وخلع دانيل حذاءه وهبط ثم خرج الى حديقة المنزل، وبدأ يعمل فى مكان ظليل خصصه للنجارة ، ومضى يقطع الاخشاب لتدعيم السور ، ولم يكد يبدأ حتىأقبلت سيلفيا تجرى وقد ارتدت خفين فى قدميها : « هل جننت يا أبى فى البيت رجل خطير الاصابة وأنت تصنع كل هذه الضجة ! » فالقى دانيل بفاسه بعيدا وسأل ابنته هامسا : « على الاقل ٠٠ هل أستطع عزق الارض ؟ » فاومأت سيلفيا برأسها موافقته ثم عادت الى الطابق الاول من جديد ٠ أخذ دانيل أدواته وبدأ يعمل فى أحد جوانب البستان ٠ ولم يمض زمن طويل حتى رأى ابنته الكبرى تغادر المنزل حاملة سلة فعاد فورا الى المنزل خالعا حذاءه ، وصعد الى أعلى فخرجت الممرضة من حجرة المريض ، وسمحت له بالدخول قائلة (لحظة واحدة فقط) ولم يستطع أن يرى فى سرير سيلفيا الضيق الا رأسا ضخما مغطى بالضمادات ، وعلى الرغم من أن ذلك المنظر لايعد مادة للسخرية فلم ستطع دانيل أن يبعد عن ذهنه صورة رجل الجليد ، فلم تكن أمامه الا كرة بيضاء ضخمة ، بها ثقب صغير مكان العين ، وثقب آخر أكبر قليلا مكان الفم ٠

وقالت الممرضة وهى تشير الى طريق الخروج : « هذا يكفى » وبينما دانيل يهبط متمهلا وحذاؤه فى يده قابلسيلفيا التى كانت قد عادت لتوها ، فسألته فى لوم : أين كنت ؟ ، فقال : « هل تكلمين والدك بهذه الطريقة » ، ثم عاد الى عمله فى البستان ٠ وبينما هو مستغرق فى عمله خرجت اليه زوجته وبدأت شكاتها قائلة : « لقد فقدت سيلفيا عقلها ، فهى لم تغمض عينيها ولم تأكل شيئا منذ الامس » فأجاب دانيل « انها تتبع عقلها الحقيقى ٠٠ ان لها قلبا نبيلا » فقالت الام (قلبها نبيل أكثر مما ينبغى) فرد الاب : (كيف يحدث لاى انسان أن يكون قلبه نبيلا أكثر مما ينبغى ؟) ٠ وكان دانيل معجبا بابنته فظل يرقبها يملؤه الاعجاب والخوف ، وكانت هناك بعض الازهار نامية فى ظل جدار البستان المتخصص ، وجاءت سيلفيا وقطفت بعضها لحجرة المريض ٠ واعترضت فيلومنا فى هدوء : ولكنه لايستطيع رؤيتها ، فعينه تحجبها الضمادات ، فقالت سيلفيا : « ولكن ياأمى أنت تستطيعين رؤية الازهار حتى اذا كانت عيناك مغلقتين » ٠

وأنفق دانيل الجانب الاكبر من يومه يعمل فى كرومه فوق التل، وحينما عاد فى المساء سأل عن المريض فأخبرته سيلفيا أنه يتماثل سريعا للشفاء ، وأن الممرضة تم الاستغناء عنها وأنها هى ستمرضه بنفسها، وذهب دانيل ليراه مرة أو مرتين ولم تطل الزيارة عن لحظات قصيرة ٠ وكان المريض يبدو رجلا مهذبا وديعا ، ورغم المشاغل الكثيرة التى تزدحم فى رأس دانيل فلم يستطع أن يمنع نفسه عن ملاحظة ما طرأ على سيلفيا من تغير ٠

وقالت له زوجته ذات مساء وهى

تؤنبه : « يجب أن تقلل بعض الشيء من اهتمامك بالاشياء الاخرى وأن تزيد من اهتمامك بابنتك » • أجاب دانيل : « ان سيلفيا لم تعد طفلة وهي فتاة عاقلة » فردت عليه زوجته ! « هي عاقلة ولكن لاخبرة لها بالحياة » وكانت الام تحس بالقلق منذ زمن ولـكنها عزمت على أن تلقى به بعيدا عن صدرها ، وجلس دانيل يفكر ويطيل التفكير ثم سأل زوجته بعد لحظات : « هل تعتقدين أنني يجب أن أتحدث اليها » ؟ فأجابت الام « نعم » قبل أن يفوت الاوان » •

وفي اليوم التالى كان على دانيـل أن يأخذ كيسا من بذور البسلة الى صديق فى (كوما) فى (فال فيرزاسـكا) فاصطحب معه سيلفيا • ولم يكن هذا العمل الا ذريعة لما يريد فأنهاه على وجه السرعة ورفض كل أنواع الحفاوة التى قدمت اليه ، وقال الاصـدقاء الذين قابلوه : أنا أفضل أن أقطع المسـافة ماشيا مع ابنتى ، فهى تبدو شاحبة فى الايام الاخيرة ، وفى حاجة الى استنشاق من المنعش ، كما أن ذهنها فى حاجة الى مناقشة بعض المسائل •

وبدأ الاب والابنة السير فى اتجـاه جوردولا ، صامتين ، وكان الطـريق يتعرج صاعدا أعلى النهر الذى يغطيـه المزيد وهو يشق طريقه أسفل الوادى• وتساءلت سيلفيا : الا تستطيع السير بجوار النهر ؟ فأجابها دانيل لاأعتقد ؟ ولكنه كان يجب أن يقوم بما تريده ابنته فاضاف : نستطيع المحاولة ما دمنا لسنا فى عملية فوجدا ممرا متحـدرا كانه السلم ،يتعرج ويتلوى ثم يهبط الى جوار النهر ، والنهر يلقى بتياره الذى يعلوه الزبد على أسواره الصـخرية • وعلى مسافة قريبة كان النهر قد كون بحيرة من الماء الهادىء الصافى بلغ من صفائه أنك تستطيع أن تـرى كل حجر فى قاعه ولم يـكن الاب وابنتـه قـد تبادلا الا عبارات قصيرة لامعنى لها ودفع ذلك الصمت بدانيل أكثر مما دفعـه أى شيء آخر الى أن يحقق من ضـخامة التحول الذى طرأ على سـيلفيا • وعلقت سيلفيا على ما حولها قائلة : ياالها من أحجار جميلة ! مشيرة الى لسان رملى يمتد باتساع قدم تحت الماء • فاوضح لها الاب الامر قائلا : انه بيض السمك •ففى نهاية سبتمبر تترك الاسماء المنـاطق العليـا من النهر وتسبح فى اتجـاه المصب ، وتبحث الاناث عن أماكن رملية لاتحيط بها الاخطار لتضع بيضـها •• فهى تفسح بأذيالها مكانا بين الاحجـار وتضع البيض الذى يلتصق بالصخور »
ـ أهذه هى طريقة توالد هذا النوع من الاسماك ؟

ـ ان الذكور لاتلقح البيض الا بعـد ذلك ••فالذكور تتبع آثار الاناث وتنشر سائلا لبنيا كثيفا فوق الاحجـار التى يلتصق بها البيض ، ويبدأ الفقس بعـد أيام » وظلت سيلفيا ترمق اللسـان الرملى حيث تتـحقق المعجزة والدهشة تملؤها وقالت : انه أمر رائع البساطة • ان الاسماك لاتذهب لعقد قرانهـا فى الكنيسة يا ابنتى العزيزة • ولم يتبادلا فى طريقهما الى المنزل الا تلك الكلمات •

وتساءلت زوجة دانيـل هل تحدثت اليها ـ نعم ـ حسنا ؟ ـ لا شيء •

وذات يوم غادر المهندس الحجرة لاول مرة وتمدد فى البستان فوق كرسى،وكانت كاترينا ودانيل عائدين معا من جوردولا حينما كان المهندس ينادى سيلفيا ، وما

أن سمعت كاترينا صوته حتى جمدت في مكانها لاتأتي بحركة ، ثم مضت تنظر من خلال السياج الذى يفصل الحديقة عن الطريق ، ثم قالت وجسمها يرتعد كله ، ياسيد دانيل .. ياسيد دانيل .. هذا الرجل هو الجاسوس الذى حدثتك عنه. فصاح دانيل . انت مجنونة وأخبرها كيف حملوا الرجل الى منزله فى غيابه. وعادت كاترينا من جديد الى السياج تتفحص الرجل المريض الذى كان يتحدث الى سيلفيا ويمازحها . ثم قالت « انه الرجل بكل تأكيد ـ أنا ذاهبة قبل أن يرانى » ، فقال دانيل ووجهه يعلوه الشحوب : « حسنا .. اخبرى أجوستينو أن يأتى هنا .. وسأعمل ما يجب حتى لايراه الرجل » وبعد لحظات جاءت سيلفيا وتحدثت الى والدها « ان مريضنا تحسن كثيرا .. سيكون شيئا جميلا اذا ما تحدثت اليه فى بعض الاحيان وسترى أى رجل رائع قذفت به المصادفة الى منزلنا .. فأجاب دانيل محاولا اخفاء مشاعره : بكل تأكيد . يجب أن أتحدث اليه .. نستطيع جميعا أن نتناول العشاء معا .

وأثناء العشاء كان الوضع متوترا ثقيلا ، فلم يكن دانيل يستطيع أن يتحمل رؤية هذا الرجل جالسا بين ابنتيه ، فاعتذر متعللا بصداع خفيف . وبعد دقائق لحقوا به وجلسوا جميعا فى البستان . وسأل المهندس الزائف مضيفه : « ما هى أخبار الجرائد ؟ اننى لم أر صحيفة منذ أسابيع . » فأجاب دانيل : تحدث مأساة كل يوم تقريبا.. فقد كان هناك حادث من حوادث القطارات فى فرنسا بالأمس .. ومات مئات من الناس » فقال (المهندس) ملتقطا كلمات دانيل : هناك مأساة كل يوم ولكن تلك الطريقة التى يسير بها الناس إلى مصائرهم أشد وقعا من ذلك . ولنأخذ مئات الناس الذين قتلوا فى حادث الأمس ، لقد كان هناك فى نفس القطار طلبة وفلاحون ومندوبون تجاريون وضباط وأطباء وباعة لوازم السيدات ومحامون . لقد كانوا فى نفس القطار ومع ذلك لم يكونوا فى نفس القطار . فالفلاحون كانوا يفكرون فى أسعار السوق والمحامون فى الاوسمة والضباط فى أن يجدوا لأنفسهم زوجات غنيات ، وكان الاطباء يتشاجرون فى الخيال مع عملائهم والطلبة يحلمون بأربطة عنقهم الجديدة أحلام يقظة ، فكل انسان كان يسافر فى قطاره الخاص ... ففى المسائل الانسانية يسافر كل انسان فى قطاره الخاص وفجأة يجد الجميع أنفسهم فى قطار واحد ، قطار الموت . وتنتهى أربطة أعناق الطلبة تحت أحذية الفلاحين ويخترق سيف الضابط صدر المندوب التجارى ، وتختفى النماذج القديمة لبائع لوازم السيدات فى الدخان واللهب . لقد كانوا جميعا فى نفس القطار دون أن يشعروا .

فقال دانيل « ولكن سلطات السكة الحديدية اسرعت بتحطيم الوحدة التى خلقها الموت ، فقد وضعت الجثث التى تلبس معاطف من الفراء وحدها بعيدا عن الجثث الأخرى . وسألت سيلفيا : اذن فمحكوم على الناس أن يكونوا أعداء حتى بعد وفاتهم ؟ فأجاب المريض : هناك هوة بين طبيعة الانسان ، وبين مصيره وبين ما يصنع منه المجتمع . لقد تملكتنى هذه الفكرة طول الوقت الذى كنت أصارع فيه الموت .. كل منا يسافر فى

قطاره الخاص ومع ذلك فنحن جميعا فى نفس القطار

فأجاب دانيل : ان مجتمع اليوم يقوم على انفصال الانسان عن الانسان وعن التناحر بين الانسان والانسان • ان الكثرة الساحقة من البشر محرومة من نتاج عملها فما تكاد ثمار العمل تترك أيدى العاملين حتى لا تصبح ملكهم بل ملك أعدائهم ان ثمار العمل تصبح عدوا للعامل •• وتصبح الأشياء التى لاحياة فيها أوثانا يجب أن يركع أمامها الانسان • وتساءلت سيلفيا : هل يجب أن تستمر الأمور على هذا النحو ؟ وأجاب المريض : حينما كنت صبيا كنت آمل أنا أيضا فى نوع من المجتمع يختلف عن الذى نعيش فيه •

ونهض دانيل ومضى يعمل فى البستان ، فالربيع يقترب وأمامه عمل كثير فكان يدفع بالجاروف فى الارض غاضبا ، ويخطو فوقه بقدمه اليمنى ضاغطا بكل قوته ، ثم يقذف بقطعة الأرض الرطبة ، وتناثرت على وجه دانيل القلق المعذب حبات كبيرة من العرق • وظل الجريح ممددا فى الحديقة حتى ظهرت أوائل النجوم فوق « مونت سفرى »

وقال فى هدوء مخاطبا العائلة التى تجلس حوله•• مضت سنوات كثيرة•• كثيرة منذ أن نظرت الى السماء آخر مرة ••فدخلت سيلفيا الى المنزل وعادت ومعها كتاب قائلة : أنت تذكرنى بالحدث الذى يصوره تولستوى فى الجزء الأول من الحرب والسلام ، فالأمير اندريه كان قد جرح فى نوفمبر عام ١٨٠٥ فى معركة بين الروس والفرنسيين وهذا مايقوله تولستوى عنه : ـ

« ثم فتح عينيه مرة ثانية آملا أن يكتشف نتيجة الصراع بين جندى المدفعية والرجلين الفرنسيين ، وأن يعرف هل قتل جندى المدفعية أحمر الشعر أم لايزال حيا ، وكان يريد أن يعرف أيضا هل استولى الاعداء على المدافع أم تم انقاذها • ولكنه لم يستطع أن يرى شيئا الا السماء العالية فوق رأسه ، ولم تكن السماء صافية الآن ولكنها كانت بعيدة نائية تطفو السحب الداكنة فى رقة فوق صفحتها •• وقال الامير أندريه لنفسه : كم هى وادعة هادئة رائعة •• وما أبعدها عن صراخنا وتدافعنا وقتالنا ولم يكن موكب السحب الوقور الذى يعبر سماء لا حدود لها يمت بأية صلة الى صراع الجندى الفرنسى مع جندى المدفعية وقد ارتسمت الاستماتة والتحفز على وجهيها •• كيف حدث أننى لم أتطلع من قبل الى السماء•• وما أسعدنى الآن بتطلعى اليها بعد كل ذلك •• فكل شىء خادع خاو لا حقيقة فيه ماعدا لا نهائية السماء •• فبعيدا عنها لا وجود لشىء •• ولكن السماء نفسها لا وجود لها •• فليس هناك الا السلام والسكينة •• وليقبل الله شكرنا على ما منحنا » • وكان القمر قد أشرق غامرا وادى ماجادينو بطوفان من نوره• وقالت لوبزا ان للقمر عينين وأنفا مثلنا، فقالت سيلفيا لأختها الصغيرة تعلمها : هذه جبال وبحور

فقال (المهندس) : اذا كان سكان

القمر ينظرون الى الارض فى تلك اللحظة ، فلاشك فى أنها ستبدو لهم كما يبدو لنا القمر ، فكيف تبدو مدن الأرض الكبيرة اذا نظرنا اليها من تلك الأعالى ؟ ستصبح ايطاليا أشبه بالفصلة - وسويسرا أشبه بالنقطة ، علامتا ترقيم لا أكثر . وتساءلت لويزا : « وكيف يبدو موسولينى من كل هذا العلو ؟ وتساءلت دانيل أوكيف يبدو السعيد موتا .. وضحك الجميع وفى العوم التالى حينما رأى دانيل صديقه أجوستينو قادما، ذهب الى لقائه وقاده الى المنزل من الباب الذى يقع على جانب البستان ، حيث كان المهندس ممددا فى ضوء الشمس . وصعد الرجلان الى حجرة لويزا واختبأ أجوستينو وراء الستارة ونظر الى الجاسوس دون أن يتعرض لان يراه . وهمس أجوستينو انه الرجل بعينه . ثم أضاف وهو يفرك يديه : «على اقل تقدير لن يفلت منا هذه المرة» فقال دانيل : «أنت تمزح بكل تأكيد» . وكان صوت دانيل غريبا بحيث جعل اذنى اجوستينو تنتصبان فقال : ان الثعلب فى المصيدة ، فهل سندعه يفلت منها .. لقد وقع فى يدنا آخر الامر واحد من الذين اغتالوا رفاقنا فى ايطاليا فى السجون ومنافى الجزر وذلك دون ان نمد يدنا للامساك به ، فهل ندعه يفلت ؟ » وكان رنين الغضب واضحا فى صوت أجوستينو ، فأجابه دانيل فى هدوء : انه فى بيتى .. ضيفى » . وقال اجوستينو : انه جاسوس فرد دانيل بنفس الهدوء : لقد كان جاسوسا ، ولكنه الآن ضيفى .. اتى الى بيتى متوسلا ان نأويه باعتباره رجلا يحتضر .. ولقد شفى وهو فى منزلى . ولم يستطع اجوستينو ان يصدق اذنيه فقال : لماذا التردد ؟ انت تعرف جيدا بأية وسائل يحاربنا الفاشست . انهم لايعترفون بأية قيم اخلاقية . فقال دانيل : أنا اعرف .. ولهذا السبب فلست فاشيا - لقد هزمنا لاننا نتمسك بالقيم الاخلاقية - ولكننا سننتصر بها .

وازاء هذا العناد لم يستطع أجوستينو الا ان يهز راسه فى صمت ثم سأل : كم من الوقت سينفقه هنا - ربما قضى اسبوعا آخر فهو لم يزل شديد الضعف - اذن فهناك من الوقت مايكفى للحديث عنه قبل أن يفلت .

وكان دانيل قد قرر الا يقول شيئا لعائلته مما دار من حديث ، فهو لم يكن يريد أن يجعل القلق يساورهم ، واخذ فى اعتباره أيضا الا يلاحظ ضيفه شيئا وكانت احدى اخوات زوجته قد وضعت لتعتنى بالمريض .

وقالت البنت الصغيرة للمهندس الزائف : انت تقيم هنا منذ اسابيع ومع ذلك فانت لم تركل مافى المنزل فأجاب حدث ذلك لاننى كنت الازم الفراش دائما .

وطافت به لويزا كل الاماكن ، المخزن الذى يضعون فيه البطاطس والبصل والفواكه وادوات الفلاحة ، وحجرتها الخاصة التى تقتسمها الآن مع سيلفيا واسترعى التفات المهندس صورة ذات اطار تزينها زهرتان حمروان من الورق :

ــ من هذا ؟

ــ مايتوتى

وجلس المهندس على كرسى .

ــ ومن هو مايتوتى ؟

ــ كان رجلا يقف الى جانب الفقراء لذلك قتله موسولينى .

ــ هل أنت معادية للفاشية ؟

ــ بطبيعة الحال .

ــ وسيلفيا ايضا ؟

ــ انها تفوقنى فى ذلك .

ــ ووالدك ؟

ــ انه يفوقنا جميعا فى عدائه للفاشية ولكنه لايتكلم انه رجل عمل .

ثم أخذته لويزا الى الطابق الثانى :

ــ هذه حجرة ابى وامى .

ــ وماذا عن هذه الحجرة التى هناك ؟

ــ ليس مسموحا لاحد ان يدخلها .. أبى يمنع دخولها . فيهـا الكثير من الاوراق ولايريد ان يعبث بها احد .

وعادت لويزا مـع المهنـدس الى الحديقة ، وأمضى نصف سـاعة يذرع الممر ثم استقر على راى ، وذهب الى لويزا قائـلا : هل تسمحين بأن تقومى بارســال برقيــة لى ؟ وأعطى الفتــاة الرســالة والنقــود وقال انــه متعب سيذهب الى فراشه فورا .

وفى اليوم التالى حملت سيلفيا ، أفكار المهندس ولكنها لم تتلق اجـابة فالباب كان مغلقا ، فلابد ان شيئا قد حـدث ، وبـدات سيلفيا فى الصباح واقبلت السائلة كلها لترى ماالخبر . وحطم دانيل الباب . وكانت الحجرة فارغة والسرير مرتبا لم يمسسه احد واختفت الحقائب ، وصاحت سيلفيا : لقد ذهب وأضـافت لويزا : لقد ذهب دون ان يقـول وداعا ، وقالت فيلومنا مشيرة الى الفـراش لابد انه رحل فى الليلة الماضـيـة ، وقفز دانيـل قفزتين وصل الى الطابق الثانى حيث سمعته أسرته يصرخ غاضبا كانه مجنون وفى هديره العاصف كان يقول : اللص .. الوغـد .. الخائن .. لقـد اخـذ كل أوراقى .

واندفع الجميع الى الطابق الاعلى ، وكان كل شىء مبعـثرا . ومحتـويات الادراج ملقاه على الارض .

وفى هذه اللحظة أقبل أجوستينو ، ولم يكن يعرف شيئا عما حدث ولكنه كان شاحبا مضطربا . وقال دانيل : لقد فر الجاسوس فى الليلة الماضية ، آخـذا معه كل أوراقى ، وبينهـا تلك الأوراق عن حركة عبور الحدود ، يجب أن نحذر الرجال الذين سعبرون فورا . ليس أمامنا دقيقة نفقدها .



فقال أجوستينو : قبض على ثلاثين عاملا فى محطة لويتو ، فى الصباح الباكر وكانوا جميعا قادمين الى سويسرا ليعملوا أثناء النهار ثم يعودوا الى ايطاليا وحملقت سيلفيا فى والدها أجوستينو ، فى ذهول وحيرة كما لو كانت ترى مشهدا تمثيليا .

وبدأت تصرخ باكية : لا .. لا .. ليس هذا صحيحا . ان الأمر مزاح .. قل يا أجوستينو . استحلفك بالله ان الامر ليس صحيحا .

واستجمع دانيل نفسه قائلا : يجب ان نفكر فورا فى انقاذ الذين لم يقبض

عليهم بعد . ثم خرج الرجلان مهرولين ولم يعد دانيل الا فى ساعة متاخرة من الليــل .. وكانت فلومنــا ولويزا جالستين بجوار الموقد ، وسيلفيا جالسة فوق صندوق فى نهاية المطبخ المظلم . وقال دانيل وهو واقف بجوار المطبخ : ان مهربينا قد قبض عليهم فى الصباح البــاكر ، وهاجم البوليس مستودعا للكتب عند الظهيرة ، وفتش البوليس منزل كاترينا . ويبدو أن أجوستينو قد قبض عليه وسيطرد من سويسرا . ألم يات البوليس هنــا بعد ؟ فقالت فيلومنا لا . وجلس دانيل عند عتبة الباب . وهبط الليل وظهرت النجوم . وصاح الديك أول مرة ولكن أحدا لم يفكر فى الذهاب الى الفراش ، ولم يكن أحد راغبا فى أن يذهب الى الطابق الاول الذى ظل يشغله المهندس ، حتى البارحة . وصــاح الديك مرة ثانية ، وظلت فيلومنا ولويزا جالستين بجوار الموقد ، وسيلفيا جالسة فوق صندوق فى نهـاية المطبخ المظلم . ظل دانيــل جالســا عند العتبــة ، وكانوا جميعــا يشبهون ساهرين حول ميت مسجى فى فراشه . وصاح الديك مرة ثالثة .

ومزق الصمت صرخة حيوان حادة ، تشبه نباح كلب يقاسى آلاما مبرحة تلتها صيحات الدجاجات جميعا ، وقفز دانيل واندفع هابطا الى الحديقة متجها الى حظيرة الدجاج ، فرأى ثعلبــا قد أمسك الفخ بأحد مخالبه ، وكان الثعلب مقوس الظهر يحاول استخدام أرجله الثلاث الطليقةفى تحرير الساق المقيدة ، وحينما رأى دانيل مقبلا بدأ يقفز فى جنــون من جانب الى آخــر غير عابىء بالسلسلة التى تمسك بالفخ . وصاح دانيــل « أخيرا » وأمسك بفأس ملقاة بجوار حظيرة الدجاج وبدأ يهوى بها على الثعلب كما لو كان يقتلعشجرة بلوط ، فانقض على رأس الثعلب وظهره وبطنه وسيقانه وواصل ضرباته حتى بعد أن تمزقت الجثة وتحولت الى كتلة دامية .

الأستاذ والدوامة

بقلم: ابراهيم اصلان

ومر وقت طويل على استيقاظ الاستاذ من نومه . ومع ذلك ، فانه لم يكن قد انتهى من مواصلة احلامه بعد . يتقلب على الفراش ويتمرغ . ويضرب الهواء بساقيه .. ويصفق.. ويضحك . ويتحدث مشيرا بيديه .. ويتمسع .. ويتجهم .

وعندما تنبه الى أن عينا «أم محمد» ترقبانه خلال فرجة الباب ، كان منهمكا فيما يشبه الرد على تحية جماهير .. غفيرة . ولم يؤخذ ، بل استمر فى حركته ، مطورا اياها بشكل تدريجى الى ان اتخذت طابع من يطرد عن وجهه شيئا .. كالذباب . وهكذا .. الى أن انتهى الامر باستكانة اعضائه وسمة الوقار والتجهم المعهودين على وجهه. ثم نادى بلا مبالاة . وبدون أن ينظر الى الباب الذى لم تكن المراة قد غادرته بعد .

— يا ام محمد .. أم محمد ..

ودخلت ام محمد : صباح الخير

كان ممددا على ظهره وذراعاه الهزيلتان تستريحان على بطنه الرجراجة الهائلة التى كانت تتمايل وتتبعج فى كل اتجاه ، وبدون ان يحرك راسه المستدير الذى يمتد حتى عنقه بطيات سميكة . مال بعينيه الراكدتين وهو يقول : — ازيك .. يا ام محمد.

وتململت المراة الضامرة داخل جلبابها وهى ترد فى ريبة : — ازيك انت .

وتحركت الى نهاية الغرفة المستطيلة. فانقلب هو على بطنه وتتبعها فى انزعاج. ولكنها تناولت كوبا . واثناء خروجها خيل له ان نظرتها كانت تحمل شيئا من اللوم .

(ام محمد عاقلة ... كنت اظنها ستفتح النافذة ... لقد فتحتها بالامس..!!.. كان يجب على ان امنعها .. حقيقة .. لماذا لم امنعها ؟... زمان .. كانت نوافذ الفيلا تظل مغلقة طيلة اسبوع فى انتظار ذلك اليوم .. دكتور يذهب .. ليحضر آخر ...

حالة طوارىء .. استعداد تام ... مفروض ..)

وارتفع رنين الملعقة داخل الكوب أثناء دخول ام محمد .. وبنفس اللهجة الخائفة المتمهلة : - « ايه ده .. ياام محمد .. ؟ »

قالت : - « دى كباية لمون .. »

تناول الكوب فى عجالة ووضعه على المنضدة بجوار الفراش . واوشك ان يسألها شيئا عندما امتدت يدها المعروقة وهى تقول فى ارتباك وبدون ان تنظر اليه : - « خد .. »

قال وهو يسبغ نظراته على قبضتها الصغيرة : - ايه ده.. يا ام محمد ؟.»

- « ده .. ده .. ده سكر .. »

- سكر .. ليه .. انت مش حليتى اللمون .. يا ام محمد ؟

فمسحت وجهها المتغضن بكفها الخالى .

- خد بس .. دا سكر نبات ... امال .. اصل لقيته فى الدرج.. ماهو بتاعك .. »

انهمك فى الضحك فجأة .. واخذ يتفحص كفيه بسرعة.. ويتأمل اظافره .. ويبحث عن شىء بين ساقيه .

- هىء .. امبارح .. هىء هىء.. الله .. يا خبر .. ما تخليه .. هىء . ماتنسيش المكوجى.. هىء هىء.»

وتمادى ، الى ان اغرق ، واستلقى مرة اخرى على ظهره ، ووضعت هى الكيس الصغير على بطنه . ولما خرجت اقلع عن ضحكه ، واخذ يرقب الباب فى حذر .

(ام محمد طيبة ... ليمون ... وسكر نبات ... شىء مفيد فعلا للحنجرة .. زمان .. لم اكن افكر فى استعمال مثل هذه الاشياء .. عشرات الادوية .. استفسارات ... معجبات .. افواج .. لم تصلنى خطابات منذ فترة طويلة .. اى والله افواج ..)

ولفه الصمت ، وفكر فى شىء : - يا ام محمد .. ام محمد .. »

ودخلت .

- قولى لى يا ام محمد ... هو النهارده ايه فى الايام .. »

- النهاردة ؟ .. الخميس .. ما انت عارف .. »

استطرد قبل ان تنهى جملتها : - الخميس ؟.. الله .. دا على كده تبقى الحفلة النهاردة .. »

- « آه.. النهارده ان شاءالله ..»

- طيب ابقى روحى .. يا أم محمد .. للمكوجى ..

- حاضر .. انا رايحاله حالا .. حاضر ..

(ام محمد غلبانة .. سأشترى لها الطرحة البيضاء التى طالما طلبتها منى . سأشتريها اليوم .. ولكن الحفل سينتهى متأخرا ... سيكون دورى بلا شك .. بعد ان ينتهى الاخرون ..هىء.. نجوم اليوم .. تذكرونى.. كنت احدد الساعة التى سأغنى فيها . طبعا .. كنت اغنى وحدى .. ولكننا

اليوم كثيرون.. انا.. انهم لم يسالوني لانهم يعلمون انني لم اعد مشغولا .. وقتي ملكي الآن ... دبروه لي ... لا افلام .. لا رحلات .. لا مشاكل مخرجين ومنتجين .. لا احاديث .. سأسدد الايجار .. لا مهنئين ..)

وانزلق وهو يجر معه ملاءة السرير .. واتجه الى الدولاب الصغير ... وبصق بجواره .. وشب على اصابع قدميه وتناول العود ... وعاد للفراش .. واخذ يضبطه .. ويضع اذنه عليه مختبرا .. بينما أصابعه تعبث بالأوتار وتبعث بالانغام . ودخلت أم محمد لاهثة

– المكوجي .. حايجيب البدلة .. والقميص .. كمان شويه ..

(أم محمد عجوز .. هي التي تبقت .. والعود .. الارث الوحيد .. كل شيء سيعود كما كان .. لقد اعددت العدة لذلك – وأخفت ضحكته عينيه عندما تذكر حال افراد الفرقة الموسيقية عندما كان يدربهم على لحنه الجديد – هيء هيء .. ذعروا .. كانوا يظنونني تجمدت .. كبعضهم .. قديم ... فاتهم انني في تلك الفترة الطويلة كنت أرقب التطور الفني واقيمه.. وادرس مشاعر الجماهير ... أذواقهم .. انا اعرف الآن مايعجبهم وما لايعجبهم أيضا .. سأبدا بلحن من الحاني القديمة.. ثم اعقبه بلحني الجديد ... سيرون .. المفاجأة .. هيء .. معذورون – وخيل له ان الصفحات الفنية في الايام التالية قد أصبحت ولا حديث لها الا عن ذلك التطور المدهش للفنان الكبير، واستعادته للمجد بلحن مخدوم، ملائم لروح العصر وطبيعة الجماهير – ولكني سأحدد علاقاتي مع الناس .. الاصدقاء .. آه .. الكلاب ..

وامام المرآة ، كان يمر بأصابعه متحسسا الاخاديد والقنوات التي احتفرتها الايام ، متأملا الشيب وقد غزا ما تبقى من شعر رأسه « هذه اشياء لا يلاحظها الجمهور .. هيء.. مفاجأة .. سيكونون مشغولين بما هو اهم من ذلك ... يا ام محمد ... ام محمد ... »

وعندما دخلت ، القت نظرة سريعة على الفراش ، ولما راته يستحلب شيئا في فمه ، قاومت رغبتها في اظهار اغتباطها وابتعد عنها..وأخذ يدور حول نفسه. وبينما هي تبتسم في خيلاء ، كانت تفكر ، وتتحاشى النظر الى بطنه الضخمة التي استأثرت بقامته القصيرة ولم تترك لساقيه الا ذلك النزر اليسير .

كانت المغنية الحسناء على خشبة المسرح .. تتلوى وتمط في اغنيتها .. وتجعل لكل كلمة من كلماتها .. ذيلا.. طويلا .. حارقا ، وتتأوه .. والصيحات المنتشية تقاطعها في الحاح .. وتطلب المزيد .. والاستاذ يطل براسه من فرجة في ستار جانبي .. ويرقب كل ذلك .. ويفرك كفيه .. ويجري بين الكواليس طالبا من افراد الفرقة – للمرة الالف – الاستعداد .. شارحا لهم الامر ، طالبا من الكورس اعادة ترديد الكلمات التي سوف يرددونها وراءه . وزاد اضطرابه . واخذ يجري ويمسح عرقه عندما ادرك من صيحات الجماهير ان المغنية قد انتهت من دورها ..

واخذ افراد الفرقة الموسيقية اماكنهم .

وارتفع صوت المذيع الداخلى – سيداتى .. آنساتى .. سادتى .. الان .. وبعد غيبة طويلة .. يعود نجم الغناء الشرقى .. الذى طالما اطربنا.. الاستاذ – وصرخ وهو يقول – عبد الحميد معتوق ..

وتقدم الاستاذ .. بخطى ثابتة .. رافعا يده ملوحا للجماهير .. بهدوء وروية .. رامقا الصالة الكبيرة بعينين واثقتين . وتوقف امام مكبر الصوت ، وتهيأ افراد الفرقة ... وانتظروا اشارته ... ولكنه اكتشف ان سماعة المكبر اعلى من مستوى راسه ، فمد يده فى حركة عفوية وجذبها الى اسفل، ولكنها لم تستجب . ولم يفصح مظهره من اى اضطراب . ومال بجانب وجهه واخذ يغمز بعينه الى عازف – القانون الذى لم يفهم قصده .. فأخذ بضغط ثانية على السماعة ويجذبها بكلتا يديه. بلا جدوى .. ولما هرع عامل الاضاءة لمعالجة الأمر ، تراجع هو وقد ارتسمت على وجهه المتقع بسمة امتنان عميقة.

لحظ على الفور أن موجات التصفيق كانت تتكسر فى اماكن وتركد فى اخرى. حتى انه تمكن بعد التفرس الشديد من تحديد تلك الاماكن التى كانت تعرب عن استحسانها . وذلك بعد ان انتهى من المقطع **الذى** قال فى نهايته ..

« من امتى كان الندم بيرجع اللى راح » ..

« وازاى حايقدر يطير اللى مالوهش جناح » ..

وبالرغم من شعوره ببعض الاستياء عندما تنبه الى ان هناك أكثر من اثنين يتبادلان الاحايث وبالرغم من ان احد المستمعين لم ينهرهم – كما كان يحدث – فانه كان يعلق على لحنه التالى اهمية خاصة ، ولما تنبه الى انه قد انشغل اثناء عزف الفاصل الموسيقى بين المقاطع فى اشياء كان من شانها ان تخرجه من جو كلمات الاغنية وتؤثر على اهمية تعبيره عما تحمل من معان ، اخذ يطرد عن راسه هذه الخواطر ، وشغلته هذه المطاردة عن اى شىء آخر . لذلك، اخذ يعيد المقطع الواحد اكثر من عشر مرات ، وفى نهاية كل مرة .. كان يتضح له انه لم يكن يدرى على وجه الدقة ان كان قد قام بالاداء كما يجب .. وهل هو نسى بعض الكلمات فعلا .. أم لا . ولكنه عندما لاحظ أن موجة الملل لم تترك حتى ذلك الركن المتعاطف .. آثر الانتهاء . وصفقت بعض الاكف .

تراجع الى الخلف خطوات ، ونظر الى الجماهير المحتشدة فى صمت ، ورفع حاجبيه الى اعلى – وخلع على وجهه ابتسامة عريضة ، واخذ يهز راسه – كان واضحا انه يضمر شيئا – ثم استدار بوجهه الى الخلف ، وفى حركة رشيقة .. اشار بيده . وعلى الفور ، ارتفعت الانغام . وتقدم بهدوء .. ولم يكن قد تخلى عن ابتسامته بعد . وامسك بعامود مكبر الصوت الحديدى .. وضمه الى صدره ... وانساب صوته ..

يا حبيبى تعالى فى حضنى ..

تعالى نروح السيما ...

.اللحن ، من تلك الالحان الراقصة.

حتى أن الاستاذ عبدالحميد كان قد بدأ فى الاهتزاز والتمايل والاندماج . معبرا عن معانى الكلمات التى كان يرددها . تعبيرا حركيا .. بالوجه واليدين والجسم كله .. يدفع حبيبه كلتا يديه فى دلال .. ثم يعود لضمه وتحسسه فى حنان ، ويعقص رقبته معاتبا ..

خلاص أنا زعلان منك ..

ما دام انت يا روحى لئيمة ...

القاعة انقلبت .. انفجرت .. صفير وصراخ وتهليل وضحكات مجنونة . وكان هناك بعض الذين اشتدت عليهم الوطأة .. يرقصون .. ويرقصون ويضربون الأقربين ، والجميع فى ثورتهم الضاحكة الصاخبة ، يتقبلون الكلمات والرقصات .. بترحاب .. أما هو ، فقد بدا واضحا ان هذه الانفجارات المدوية قد اكسبته شيئا معينا .. يقبل ويدبر ويدور . ويحاول القفز فيجانبه التوفيق .. ويجرى يمينا .. ويسارا ، وينقض بسرعة على مكبر الصوت .

خايفة من ماما قولى لها ..

انك حتروحى تذاكرى ..

ويتقهقر لاهثا . وكانها الموجة العاتية المنطلقة هى التى تعبث به وتطوحه على هذا النحو ، وقد بدا للعيان أنه قد فقد السيطرة نهائيا على بطنه ، كانت كانها على وشك الاندلاق . والجماهير التى استوت على الاقدام يشتد تدافعها وتكالبها . والاطفال فوق اكتاف الكبار يحتضنون الرءوس ويتلفتون فى شىء من الفرح وكثير من الدهشة ، وكان البعض يصرخ ، والبعض يبكى فى صمت ، وأفراد الفرقة الموسيقية توقفوا عن العزف تماما من زمن واخذوا يتابعون مايحدث من فوق مقاعدهم ، ويتاملون الاستاذ فى رعب وقد جحظت عيونهم عندما تعثر فى الاسلاك الكهربائية الكثيرة المتشابكة على خشبة المسرح ، التى ارتطم بها . وحاول القيام .. فتعثر ثانية .. واخيرا .. افلح فى خلع قدميه من بين الاسلاك . وعندما وقف كان الصمت والوجوم يخيمان على المكان ..

ثبت فى مكانه مقطوع النفس .. منفرج الساقين .. مفتوح الفم .. ناظرا الى لاشىء .. بعينين كانهما سؤالان تقادم عليهما العهد ..

وعلى البعد .. فى آخر الدنيا .. كانت هناك دوامة صغيرة .. تدور فى صمت .. ولا تنى عن الاقتراب والاتساع .. وتقترب .. وتقترب .. وتزداد عمقا .. وتنساح فيها العيون .. آلاف العيون .. والاشياء .. وتتسع .. وتفور . وتقترب .. ياالله .. عين حقيقية .. كبيرة . تملأ عليه الوجود .. وتتأمله .. وتتحرك أهدابها الطويلة .. وتلتمع .. كان بحيرة صافية من الدموع تغمرها .. ومن الجفن الاجعد .. العالى .. انزلقت أم محمد .. فوق المحجر العسلى الكبير .. صغيرة .. هابطة .. بطرحة بيضاء .. وجلباب أخضر .. واشارت له بشىء فى يدها .. قبل أن تختفى .. واخذ ينحدر .. وينحدر .. ويستجمع الاشياء .. يتمناها .. وعندما أوشك أن يصيح مناديا ..

اسدلت العين أستارها ..

وهكذا انتهى الربيع

قصة عراقية

بقلم سميرة خضر السبياتي

بدأت تباشير الربيع مشرقة ضاحكة في وجه الطبيعة ·· وداخلت النفوس موجة من الفرح والسرور علت وجوهها النيرة .. وعزف الامل لحنه الاول على قيثارة الربيع .. فشـــدت النفـوس بعضهــا لبعض ·· وغنى الطير وهزج العندليب مستبشرا بالربيع حيث اريجه يملأ الفضـــاء ·· وهناك فوق السهول الخضراء تفرقت السعادة ولاح الامل ·· وها هم غداة الربيع يروحون ويجيئون ويرقصون للالحان التى تسكبها الافنان·· وها قد لاح الربيع بثوبه الاخضر الموشى بالسندس والياسمين وقد توجه الله بتاج الحكمة والطهر والبراءة ·· وتلك السماء الزرقاء التى ما تبسمت الا لهذا الموسم الذى يدر على العالمين السعادة ويبشرهم بالامل والنجاح والتفاؤل وهنـاك حيث الكل يبيع نفسه لضمير الربيع·· والكل يحب ويشدو بلحن أمل الغد ·

وهناك مع رقصـــة الربيع على عين الغدير · تعيش لقصة الربيع·· ووروده اليانعة المتفتحة عن اكمامها لتزين حديقة قصر الاستـــاذ (المؤلف الوقـــور) وهو جالس كعـــادته ويكتب قصة ليقدمها قريبا لجمهوره المحب لمؤلفاته .

وهاهو الربيع يخفى بين طيات ثوبه مفاجأة لهذه الفتاة التى تمر من امام دار (المؤلف الكبير) ·· وكانت كلما تمر تلقى نظرة اعجاب واكبار لفنه القصصى ·

كانت الفتاة في ربيع عمرها الحـادى والعشرين صامتة بالرغم من وجودها فى كلية الحقوق لان المعروف عن طـلاب كلية الحقوق لايقف لهم لسان ولايصمت عن الحـق حتى ياخـذ حقـه المظلوم ويأخذ بيده حيث نور الحق والعدالة .. وكانت هى تأخـذ الحق بصمتها وكان وحيا يحل مشكلة موكلهـا عند مجابهة منصة القضاء .. ولكنها كانت عنيدة بل متكبرة عمياء عن الحقـائق التى تجابههـا وتجهل وجـودها ···· كانت تثور لاقل سبب تافه وصفاتها هذه نتجت بسبب حادثة حدثت لها فى صغرها وقد اثرت عليها ..

كانت وحيدة أبيها بعد وفاة والدتها الحنـــون ·· وكانت الشعلة الوحيدة

التى استقبل بهـــا سامى نور الحياة بعد وفاة زوجته الشابة الوفية .

وهنـاك وعنـد بداية الربيع حيث ربيع الحب والسـعادة يضـمك من اعمـــاق قلوب البشر .. واما الكل فيسجد لحكم القدر .

جاء صادق الى ابيها وكان شـــابا جميلا . دقيق الحس وكان ابن جارهم القديم الطيب .. كان صادق جامحا عنيفا طموحا . شهما . نبيلا . وكان يعبر عن حيوية الحياة وجمالها بمرحه وابتسامته العـذبة . وهمه الوحيـد أن يبنى مستقبله وسعادته كالبنيـان المرصوص . لاتزعزعه عواصف الايام وعذابات الحياة .. نال صادق شهادة التخرج من كلية العلوم واخـذ بعـد نفسـه ليقدم على دراسة الادب رغبـة فى نفســه أو طموحا بداخله .. وهنا رحب به سامى لجيرته القديمة ولانه ابن الشـيخ مصطفى .. وهنـا فتح سـجل الذكريات ليذكروا صحبة الجيرة وليانسوا بذكرياتهم بعضا من الساعات .. وأخذ صادق يتردد على دار سامى .

وفى احدى الامسيات زار صـــادق سامى فرحب به كعادته منذ معرفتهما .. ثم دارت أحاديث شتى بينهم ثم قال صادق .

والله ياعم انك رجـل طيب وانى عرفت عن حيـاتكم كل شىء واتصلت بمعارفكم وأخبرونى بانكم من عـــائلة طيبة وشريفة بالرغم ممـا كان والدى يقص على نبلكم وطيبتكم .

ماذا تقصد ..؟؟

اقصد باننى اتمنى ان اتقرب لعائلتكم بطلب يد حنان .. ان وافقت ..

مبروك ياصادق فانها منذ اللحظة الاولى لك .. ولى الشرف اذ أنا انتسبت الى عائلة الشيخ والدك .

ثم انتهت الزيارة وصادق لاتسـعه الدنيا من الفرح .

وهنا تبدأ قصة هذه الفتـاة حيث كان صـــادق خطيب حنـــان يتردد على دارهم ويخرج مع حنان باستمرار .. وكان صادق طموحا حتى فى الحب .. وفى أحد الايام .. أشـار عقرب الساعة الى العاشرة والنصف ولم تأت حنان فاخذ ابيها يجـول ويصـول فى الغرفة ذهابا ومجيئا .. وهو صامت وكانه يحرك كلامة ليوجهه الى حنـان على تأخرها هذا وهو يعد الدقائق تلو الدقائق .. وفى تلك اللحظـة طرقت الباب ففتح البـاب فاذا بحنـان .. سلمت عليه ثم قال لها بهدوء .. يكدره غضب صامت ..

ـ حنان بكلمك .. أبوك الشـخص الذى يرعاك ويحبك الحب الابوى من بعد حب الله لعباده .. رجائى ألا تتاخرى ثانية ولاتكثرى من الخروج مع صادق .. فان كلام الناس واشاعاتهم ياحنان .. أتسمعينها .

ـ ولكن ياأبى مالى .. والناس .. ان اشاعاتهم لاتنتهى وكلامهم كثير وعلينا أن نقضى على هذه الاشـاعات .. الا يؤمنون بالواقع .. اارتكب جريمة اذا

خرجت مع خطيبي ... أليس هو خطيبي ياأبي ؟

نعم .. ولكن .

ولكن ماذا ... (اشتد غضبها وكان هذا التعرض يحدث لأول مرة بتصرفاتها من قبل أبيها) .

والآن عرفت لماذا تتعرض بتصرفاتي وتمنعني .. ومن يروج الاشاعات حولي .

أليس هو بعينه ياأبي ؟

وانتفض في جلسته ووجهه ترتسم عليه آيات الغضب .. وقال من هو ؟؟

ـ انه .. انه فاضل صديقك .

وهنا اطرق وجهه وصده عن نظراتها .. لانه يعرف بان أكثر من هذا الكلام يغمى عليها بسببه ويجعلها تتعرض وتتوسد الفراش .. ولذلك انسحب جانبا ليجلس على الكرسي وليهدأ من غضبها . ولكنها قالت :

الم تعرفه ؟ .. أليس هو بعينه الذى خطبني ورفضته وأشاع عني بانني سافل ورفض هو الخطبة .. وبعد كل هذا تسمع حديثه وتصدق كلامه وأخذ الغضب والحنق يثور في نفسه ولكن لايستطيع اظهاره .. ثم قال :

ولكن يا حنان انه صديقي ولا يجوز ان تتكلمي عليه كان زمان هكذا ولكنه الآن فاضل ثان غير ما كان وأصبحت له زوجة وأولاد .

اما حنان فلم يهدأ روعها وبدأت تلعن فاضل الشخص الذى كرهته .

ـ كفى .. كفى يا حنان فانك قد ارتكبت اثما ومعصية نحو الرجل الذى رعاك وأحبك .

ان هذه سنة الله .

ولكن الله وهب لنا العقل لنفكر فيما نعمل .. والعين لتنظر وتتجنب الوقوع في الخطأ ووهب لنا المنطق لندافع به عن انفسنا .

انه خطيبي ياأبي فليتكلموا مايشاءون

كفى ياحنـــان انك تقتليني بسم بطيء .

ـ وذهب مسرعا الى غرفته وكأنه لايطيق رؤية ابنته وهي تقف في وجهه وتلعن وتتحدث بأسلوبها التهكمي .

سافر صادق الى أهله ليمكث عندهم اسبوعين ، وكثر خروج حنان بمفردها لانها ضاقت ذرعا بالعيش مع أبيها في البيت وانها اعتادت الخروج مع خطيبها صادق . وحجتها الوحيدة لأبيها هو أنها مخطوبة .. وأخذ والدها يمنعها من الخروج بمفردها بأسلوب .

وفي أحد الايام والوقت عصرا وحنان في غرفتها تقف أمام المرآة لتسرح شعرها وتتزين ... ووالدها في غرفة المكتبة يطالع كتابا للمتنبي . وبعد مدة خمس دقائق سمع حركة على الدرج فرفع عينيه ونادى حنان .. حنان .

نعم :

تعالى .

وفي تلك اللحظة احست حنـــان بشيء غامض يرتقبها فسارت بخطوات ثقيلة . وجالت ببصرها نحو صـــورة

والدتها .. فنظرت الى ساعتها وكانت عقاربها قد توقفت٠٠وكان فى أعماقها طرقت الباب ودخلت .

ـ حنان ٠٠ تعالى لأكلمك ٠٠ الى أين انت ذاهبة ..؟؟

ـ الى صديقتى ٠٠٠ هل من عارض يمنع خروجى .. فاننى قد توقعت معارضتك .

ـ ولكن أخبرك ٠٠ بألا تذهبى ٠

ـ لماذا ؟

ـ ان خروجك بمفردك وبدون صادق جعلنى اشك فى تصرفاتك .

ـ وماذا فيها اذا خرجت بمفردى ٠

ـ أقول لك مرة ثانية لا تذهبى ولا تخرجى من الآن فصاعدا الى أن يأتى خطيبك ، واننى سأخبره بذلك ان لم تكفى عن أعمالك السيئة هذه ٠

ـ أخروج الفتاة بمفردها عمل سيىء؟

ـ اقصد بدون خطيبك ٠٠ وعليك أن تقللى من زياراتك لصديقاتك .

ـ هه ... خطيبى ...من قال لك توافق على خطبتى ؟.. اننى لاأحب صادق .

ـماذا تقولين ؟

ـ قلت لاأحب صادق .

ـ عال ... والله عال ... وماذا تحبين اذن ؟ الفتيات الماجنات العابثات بحق أوليائهن ؟

ـ أرجوك ٠٠ اذا كنت تتعدى على صاحباتى .. فاننى لست ..

ـ لست ماذا ٠٠؟!

ـ لست ابنتك ٠٠ لست ابنتك ٠٠

ـ بابا ٠٠٠ بابا ٠

ولكنه ليس بمجيب لانه وقع مغشيا عليه على الارض ٠ لانه اصبح لايطيق رؤية ابنته ٠٠٠ ثمرة حبه التى بقيت من زوجته ٠٠٠ تركتها لتعوض أبيهـا الحنان الذى افتقده والحب الذى ضـاع ودفن ٠٠ اصبحت ابنتهتتبرأ من أبوته٠

ومرت الايام وسامى لايستطيع حراكا فقد أصبح مشلولا حتى لسانه وبقيت حنان وحيدة تعبس مع عذاب الضمير وقساوة الحياة ٠

***

وفى احد الايام جاء صـادق الى دار خطيبته حنان وعندما دخل الى الصالون لم تستقبله كعادته ثم قال :

ـ حنان ٠٠ ما بك ٠٠ ما هذا الجفاء والبرود ٠٠٠٠ اين والدك ؟!

ـ لا تسال عنى وعن والدى ٠٠ انى اكرهك ٠٠٠ أكرهك ٠

ـ ولكن ٠٠يستحيل ٠٠ انى لم أتعود سماع هذا من فمك ابدا

ـ ولكن حان الوقت الآن لتسمعه ٠

ـ مستحيل ٠٠ مستحيل ٠٠ هذا من وراء قلبك

ـ بل من كل قلبى ٠

ـ اذن قولى أين والدك ٠٠؟!

ـ مات ٠٠٠!

ـ مات ٠٠٠ كيف ومتى ولم لاترسلى لى برقية ؟٠٠



ووقف صادق صامتا ··· وساد صمت ثقيل ·· ثم جر قدماه نحو الباب وهو خائب ··· اماله التى بناها للحب تحطمت ·· سعادته ··· اهذه هى السعادة لعبة فى يد طفل متى يريد ان يحطمها · يحطمها ··· واحس بان يدا من صخر هوت على قلبه فحطمته ··· أين حنان التى ملكت مشاعره ··· أين حنان التى ساعدته فى بناء قصر احلامه وآماله ؟ ··· اكان حلم ليل هذا ···

وأملا أبكم ·· ثم أخذ يجرف فى عبراته المهراقة من أثر الخيبة التى كانت تترقبه هذا اليوم واقترب من رؤية سعادته وهى تنهار فى لحظة مدبرة ··· وهكذا تحطمت صخرة الحب لاصطدامها بحبه

وخابت أحلام صادق الذى لم يحب طول حياته الا فى تلك اللحظة ·· وساوره الشك بأنها كانت تخدعه · ولكن حبه لها ملأ قلبه خوفا لفقدانها ··

وكان قابعا بين زوايا الأيام وثنايا الساعات ينتظر ماذا سيحدث له ···

أما حنان فقد ظلت تتقلب فى موجة من الخواطر المديدة والهواجس المخيفة ، وأخذت تفكر ليل نهار بأبيها الذى جنت عليه وبحبيبها الذى قست عليه وكذبت لتعلو بكبريائها وسعادتها التى حطمتها وشبابها الذى ذوى فى غمضة عين كما يذوى الورد فى الخريف ··· وفى تلك اللحظة تنازلت عن كبريائها وعنادها الذى أعماها طول شبابها وسارت فى طريقها الى الكلية ··· وكان الربيع يودع أصحابه وأحبابه ·· مرت من أمام دار (الاستاذ الوقور) ولكن لم تنظر اليه كعادتها وانما دخلت داره ·· ورآته جالسا كعادته بين أوراقه واقلامه ··· فحيته وقالت :

ــ أستاذى ·· ان مجيئى اليك غريب، فعسى ألا تستاء منى أبدا ·

ـ أبدا يا ابنتى فانى أفتح بيتى لمن يدخله غريب أم قريب ٠

ـ بارك الله فيك ٠

ـ اننى جئت اليك لترشدنى الى الطريق السوى وتحل مشكلتى التى اوقعتنى فى شرك من الظلام ٠

ـ اننى بجانبك يا ابنتى ٠٠٠ فاننى بجانب كل شخص يطلب معونة ٠

ـ بارك الله فيك ٠

وفى تلك اللحظة أخذ الأمل ينقضى لمستقبل حنان ٠٠٠ وأخذ الحب يتململ فى قلبها وساد وجه حنان شعاع طالما انتظرته وسرحت فى وادى حياتها ٠ وأخذت تفضى اليه بما حدث لها (والأستاذ كله آذان سامعة لها) وعندما انتهت من سرد قصتها (مشكلتها) صاح الأستاذ بأعلى صوته ٠

ـ انك فتاتى ياحنان (فأخذت الدهشة ترتسم على وجه حنان) ٠

ـ انك الفتاة التى قابلتها بالخيال ٠٠ وانا السبب فى عذابها وعليه أن أنقذها من عذابها هذا ٠٠ وها هى أنت أصبحت حقيقة ٠٠٠ انك رائعة يا حنان اننى قصصى وتعرفين مقدار حب الناس لمؤلفاتى فانك سوف تزيدين من شهرتى وسوف أسمى قصتى (القصة الواقعية) وأتمنى أن تضعى بنفسك حلا لهذه القصة ٠٠٠ انى عملت جاهدا بأن تكفر عن ذنبها وتسير الى خطيبها وتعتذر اليه فهل تقبلين يا حنان رأيى فى حل مشكلة هذه الفتاة ؟

اقرئى يا حنان وصفى أنت نهايتها ٠٠ وعليك الا تعطيها لأحد قبل أنهيها ٠٠ ان هذا سر يجب أن تحتفظى به بينى وبينك ٠

واخذت حنان القصة ولكنها شكرته ٠

وفى مساء اليوم الثانى انطلقت حنان بسرعة الى دار (الأستاذ الكبير) وهى تحمل معها نهاية مستقبل الفتاه الشقية ٠

وطرقت الباب وبدون أن تستأذن دخلت عليه وحيته ثم قالت :

ـ أستاذى يجب أن تعود ٠

ـ ولكن من هى ؟

ـ هى أنا ٠٠٠ يجب أن أعود وأكفر عن ذنبى تجاه والدى وأعتذر لخطيبى ٠

ـ ماذا تقولين ؟

ـ فتاة قصتك ٠٠٠

والله لقد نسيت أن أصداءها قد لازمنى منذ أمس نعم ياحنان عليها أن تعود وأنا بجانبك ٠٠٠ فهيا لأذهب معك لوالدك وخطيبك ولتكفرين عما بدر منك ٠

وفى تلك اللحظة شغلت هذه الفتاة العابرة فكر (الأستاذ الكبير) وأصبحت جل اهتمامه ٠٠٠

وعادت حنان الى صادق المخلص الذى ما فارق شبحها طوال مدة تغيبها عنه ورجعت ، ولكنها اعتذرت له على ما بدر منها بدون تفكير وبدون تغطية للحقائق ٠٠٠ ولكنها لم تستطع أن تعبر اليه بكلامها ٠٠٠

فظهر أنها هى التى عبرت عما تريد أن تقوله لهذا الشخص الوفى ٠

(وهكذا انتهى الربيع وحمل معه سعادة فتاة) ٠

الحالمون والكادحون

بقلم : رجاء الدرسيني

يوم التقيت به كنت أصيف مع أهلى فى بلدة الزبدانى . أقمنا ذلك الصيف فى بيت جاثم على سفح الجبل المطل على سهل الزبدانى الأخضر الجميل . كان لقائى بفؤاد صدفة لم تدبرها ارادات بشرية ، ولا أدرى ان كان يومها ارادة خارقة تدبر لقائى به .

وكان اللقاء عابرا . حين رأيته . تم ذلك فجاة وانتهى بسرعة . رأيته شابا فارع الطول قذر الثياب رث المظهر بدا لى يومها كأنه أحد عمال تعبيد الطرق لكن قذارة ثيابه ورثاثة مظهره كانت غير منسجمة مع الكتاب السميك الذى كان بيده ، او مع الذكاء الذى شعته عيناه الحادتان ، أو مع الاعتداد والسيطرة التى بدت فى مظهره. كذلك لفت نظرى يومها غرته الأنيقة المنسدلة بدون تكلف على جبينه العريض .

كان الوقت صباحا ، حوالى التاسعة. وكنت أتمشى على الطريق المؤدى الى بلودان ، مع صديقتى لمياء ، ومع أمى وأخى الصغير مروان . أمى سارت أمامنا، وأمسكت بيدها معصم أخى مروان الذى كان يتملص منها فيفلت كالزئبق ، مرة تلو الأخرى فتلحق بـه وهى تنهر وتزمجر حتى تمسكه . كانت خائفة عليه من السيارات التى مرت بنا فى سرعة مجنونة .

كنت يومها أصغى لأحاديث لمياء عن معاكسات الشباب لها وعن مغامراتها معهم . وسحرنى ما أسمع . طبعا كانت تبالغ وتهول وتبهر حديثها بالوان ووقائع من صنع الخيال . فلو أحصيت الشباب الذين ورد ذكرهم على لسانها لتعدى عددهم العشرين ، وكلهم حسب وصفها من أجمل الشباب واغناهم واكرمهم حسبا وألمعهم مستقبلا . هذا فى حين ان لمياء لم تكن جميلة ولا انيقة، فهى قصيرة ، وشعرها كث ، وعيناها صغيرتان منحرفتان كعيون الصينيات ، وانفها عريض مفلطح ، وفمها كبير : وأمى وأبى كانا يشجعانى على مرافقتها لأننى الى جانبها ازداد جمالا عن جمالى الحقيقى حتى لأبدو قمرا برفقة نجمة . وكانت لمياء مراهقة لم تتخط السابعة عشرة بعد ، فى حين كنت فى التاسعة عشرة . رغم أنها أصغر منى.فقد تعرفت على هذا العدد الضخم من الشباب ، منهم من أخذها فى سيارته الفخمة فى « مشاوير » طويلة جميلة ، ومنهم من دخلت معه السينما مرة واختلفت معه

الموعد مرات ، ومنهم من انتظرها ساعات طوال في زاوية أحد الشوارع ، ومنهم من اشترى لها حلية أو هدية ما ، ومنهم من أرسل لها يشكو غرامه ويبكي عذابه، ومنهم من هـدد أن ينتحر اذا لم تحن عليه بنظرة رضا أو ابتسامة تشجيع أو قبلة حانية .

طبعا كانت تبالغ وتهول . فأنا أجمل منها ، وأكبرها بعامين ، ومع هذا لم يدخل حياتي العاطفية سوى شـاب واحد مسكين أعرج فقير . لا أدري كيف تعرف علي ، ولكني لاحظته ذات يوم يقف عند مدخل الزقاق المؤدي الى بيتنـا وينتظرني هناك كل صباح حين أذهب الى المدرسة ، ثم يتبعني حين أصل اليهـا ، وينتظرني كل مساء عند باب المدرسة ويتبعني حتى أصل الى بيتنا . كان يفعل هذا كل يوم، ستة أيام في الأسبوع ولكنه لم يفه قط بكلمة ، لكن عينيه كانتا تنطقان بحب موله حارق ، ووجهه كان يعبر عن نشوة عذبة وعذاب دفين.

وبعد حوالي ثلاثة أشهر قررت أن أجعله يتكلم ويلقي في مسامعي المتشـوقة الكلام الذي كنت أشـتهيه . لم أكن أبه لشخصه على الاطلاق ، ولكني كنت مسـتعدة أن أغمض عيني وأسـمع لصوته أن ينساب الى أذني فقلبي يحمل اليها قصة حب ، أو حديث غرام .

وحين قررت أن أفك عقدة لسانه، بقيت أياما وليالي أرسم الخطة . كانت خطة ساذجة . لدى عودتي من المدرسة الى البيت سأترك طريقي المألوف وأتخذ طريقا آخر أطول بين الأزقة الضـيقة المتعرجة ، ثم اذا تبعني ادخل عطفـة مسدودة أعرفها ، واقف تحت سدة باب منـعزل نوعـا بحيث لو لحقني هنـاك وكلمته او كلمني لا يـسمعنا أحـد . وكان هذا الباب يؤدي الى بيت خالتي.

وأخيرا نفذت الخطة وسار كل شيء كما رسمته حتى وصلت سـدة الباب المنعزل ووقفت تحتها . وحينذاك وقف عاشقي المسكين محتارا مذهولا . كان قد أدرك أن العطفة مسدودة ، وانه لا بد ان يرجع قبل أن يخرج احد الناس من بيته ويسأله عما يريد . كان عليه أن يقرر في سرعة ، فاما أن يتقدم نحوي ويكلمني واما أن يعـود . وخفت أن يجبن في آخر لحظة ، فقـررت أن أقطع عليه خط الرجعة ، واشرت اليه أن يأتي نحوي . فاحمر وجهه وجحظت عيناه وكاد يفقد توازنه ولكنه تقدم نحـوي مترنحا كالثمل .

وهمست له متصنعة الغضب .

« منذ مدة وانت تتبعني . ماذا تريد مني ؟ » .

وثأثأ ، وفأفـأ ، واحتقن الدم في وجهه ، ورأيت الدمع يجول في عينيه .

فاشفقت عليه أكثر مما غضبت منه، وصرفته بقولي :

« لا تتبعني بعد اليوم ، والا فضحتك»

وأدرت له ظهـري ، ودققت جرس الباب . فوقف لحظة ، ثم انصرف دون أن ينبس ببنت شفة . ولم أره منـذ ذلك اليوم .

وهكذا خيب الجبان آمالي . ولا أنكر

انني افتقــدته كثيرا حين اختفى من حياتى ، وافتقدت الكثير من بهجة الحياة التىكنت استمتعتبها حين كانيتبعنى كذلك كان شعورى بوجوده خلفى كل يوم ، وبأن عينيه يتفحصان بقــوامى وجمالى ومشيتى وحركاتى فى اعجاب ، هذا الشعور كان قد أصبح بالنسبة لى عادة استمرأتها • وحين اختفى خلت حياتى من هذه العادة التى حننت اليها أكثر من مــرة • كذلك كان وجــوده الصـــامت فى حياتى نوعا من المغامرة المريحة ، وباختفــائه زالت من حيـــاتى مغامرات الغرام التى كنت جد مشـــتاق اليها •

ولهذا كنت أطرب لاحاديث لمياء • ربما كانت تبالغ وتهــول وتمزج الواقــع بالخيال • ماذا يهــم ؟ لديهم ان كانت قصصها واقعا أم خيالا مــا دامت تملأ بعض الفراغ فى حياة قلبى • ولهــذا كنت دائما أستمع لها فى شوق وسعادة

ويوم التقيت بفؤاد كان لطف الجو وسحر المناظر حولى من جبال شامخة وبساتين مخضرة وأزهار عطرة وأشجار مثقلة بالثمــار الحمراء والصـــفراء والسوداء ـ كل هذا كان يهيئنى نفسيا الى أن أفتح قلبى للحب ، ولأحــاديث الهوى وقصص الغرام • ولهذا كانت قصص لمياء يومها جميلة ساحرة مؤثرة.

وفجأة أفلت أخى مروان من أمى ، وراح يعــدو فى عرض الطريق وكأنه يتحدى أمى ويتمرد عليها • وصــاحت أمى فى هستيرية مذعورة ، ولحقت به ثم عثرت بحجر ووقعت • وكان هـــذا سر مروان فراح يمعن فى العدو وكأنه مســجين أفلت من سجنه ، وهتفت بى أمى :

« امسكيه حالا • امسكيه والا داسته السيارات » •

وبهمة متثــاقلة ســـلت نفسى من الأجواء العاطفية العذبة التى غمرتنىبها لمياء ، وبدأت أطارد مروان • وما كدت أعدو عشرين مترا حتى انشقت الأرض عن فؤاد • وفى طرفة عين كان مروان بين ذراعيه القويتين « يتلعبط » كالسمكة فى شبكة • وســار فؤاد بحمله المزعج نحــوى وفى نظراته بريق غريب وفى وجهه ابتسامة تركزت حول شــفتيه المكتنزتين وفمه المستدير • وحالما وصلنى وضع مروان على قدميه وناولنى ذراعه الصغيرة وقال لى مداعبا :

« هــذا الجرو يحتاج الى طوق ، والا فان الأرض لا تنشق دائمــا عن عفريت مثلى ليمسكه » •

وفى الحال استدار على عقبيه وســار بضع خطوات ، ثم انحنى ليلتقط كتابا ضخما كان قد سقط منه على الأرض، ثم عاود سيره واختفى بين الصـــخور والدغل المتناثر هنا وهناك على سفح الجبل •

حدث كل هذا وأنا واقفة متسمرة مشدوهة • وحين انتهى كل شىء باختفاء فؤاد عن نظرى ثبت الى رشدى ووجدت يدى قابضة على ذراع أخى مروان فى نفس الموضع الذى وضعتهــا عليه يد الرجل العفريت فؤاد • كانت أصابعى تضغط لا شعوريا ذراع مروان فى عنف مما جعله يصــيح فى ألم مذعــور ، فاستيقظت على صياحه وعلى ضحكات

لمياء التى كانت الآن تقف بجانبى وتهمس فى أذنى :

« ما أجمله ! فى حياتى لم أر أجمل منه ! » .

واحمر وجهى خجلا . طبعا لم أره يحمر ولكنى شعرت بالدم يصعد الى وجهى . ولكى أستر موقفى ومشاعرى عن لمياء صحت بأخى مروان وأنا أجره نحو أمى التى كانت قد نهضت من عثرتها وراحت تصلح حالها وتنفض الغبار عن ملابسها الانيقة الغالية ، وناولتها ذراعه وأنا أنهره :

« امسك يد أمك يا كلب . يعنى لازم تفضحنا وتنكد عيشنا ؟ » وزاد صياحه مما جعل أمى تنهرنى معنفة :

« اتركيه يا مجنونة ! قلت اتركيه . تعال يا حبيبى تعال . »

واغضبنى تدليلها له بدل التعنيف ، فدفعته نحوها فى عنف مما جعله يزداد صياحا وجعل أمى تنهال على بلعنة .

وهكذا تم وانتهى اللقاء الأول بينى وبين الرجل الذى ملأ حياتى طيلة عام ونيف بعد ذلك اليوم . وبعد أيام من هذا اللقاء قررت أمى أننا نلنا كفايتنا من الاستجمام الذى أحاله مروان بمشاكله الصبيانية الى جحيم ، وعادت بنا الى بيتنا فى دمشق .

كانت صورة فؤاد العفريت هى كل ما عدت به من التصييف فى الزبدانى: صورة غامضة غير واضحة المعالم لشاب فارع القامة قذر الثياب رث المظهر وكأنه أحد عمال تعبيد الطرق . ولكن بيده كتاب ضخم وله عينان نفاذتان ، وفم ممتلىء مدور باسم ، وغرة جميلة منسدلة بدون تكلف على جبينه العريض، وفى مظهره اعتداد وقدرة على السيطرة. الصورة كانت شريطا متحركا لهذا الشاب تنشق عنه الأرض فيخرج منها ماردا ينقض على مروان فيمسكه ويحمله الى بين ذراعيه ، ثم يناولنى ذراعه وفى عينيه نظرات غريبة وحول شفتيه ابتسامة ساحرة ، ويقول لى بعض كلمات ، ثم يستدير على عقبيه ويسير نحو كتاب سقط منه ، فيلتقطه ويستأنف السير ثم يختفى بين الصخور والزعل . ثم يأتينى صوت لمياء الخبيرة بالشباب يهمس لى فى مكر : « ما أجمله ! » ويظل الصوت يتحول الى أصداء تعوق فى أعماق روحى الجائعة الى الحب والى الرجال : « ما أجمله ... ما أجمله.. ما أجمله ! »

وفى دمشق رحت أقضى ساعات وحدتى وكثيرا من ليالى مع هذه المجموعة من الصور . وراح خيالى يضفى عليها ألوانا من الجمال غريبة ساحرة جذابة لا تقاوم . ورحت أعيش مع هذه الصور أحداثا جميلة ـ فلقد صنعت منها عريس الأحلام ، رفيق الحياة ، وأبا أولادى . وأحببته فى عنف ، وغرت عليه فى عنق ، وخاصمته فى قسوة ، وصالحته فى حنان ، ورجعت اليه تائبة، وبكيت بين يديه نادمة . ألف صورة وصورة نسجتها حولنا ، أنا وعريس أحلامى الذى عدت بصورته من الزبدانى. ومن أجله رفضت ثلاثة رجال طلبوا يدى ـ لأن نظراتهم لم تكن نفاذة ، ولأن

عيونهم خالية من البريق الساحر ، ولأن جباههم لم تتوجها غرة أنيقة منسدلة ، ولأن طولهم لم يكن فارعا ، ولأنهم لم يخرجوا فجأة كالعفاريت من بطن الأرض ولأن أوقات مجيئهم لم تمهد لها لمياء بقصص الحب ومغامرات العشق والغرام .

وانقضى الصيف وتلاه عام دراسى ثم صيف ثان ، والصورة التى عدت بها من الزبدانى ما تزال حية فى خيالى نشيطة فى فؤادى . ولكن حيويتها ونشاطها كانا قد فقدا الكثير من عنفهما ، وتركانى أكثر استعدادا للتهاون مع الواقع ولقبول عريس أحلام آخر . ومن يدرى ، فربما لا أعرف الشاب الذى رأيته صرخة فى الزبدانى لمدة قصيرة ، بعد هذه المدة الطويلة .

وكنت فى هذا الوقت على وشك أن أبدا آخر عام دراسى لى فى الدراسة الثانوية .

كان أول يومين فى المدرسة عاديين جدا . وجوه المدرسين مألوفة ، وكذلك وجوه زميلاتنا التلميذات ، وبينهن لمياء ، وكذلك جو المدرسة كله ، بفصولها ومقاعدها وجدرانها وحجابها كان كله مالوفا . وروتين الحياة المدرسية كان كعهدنا به - جرس ، طابور ، دخول الفصل ، شىء من الضجيج ، أستاذ يدخل ، هدوء ، كتب تفتح وأيد تمتد الى الأقلام ثم تسجل على الدفاتر ملاحظة هنا وجملة هناك ... ثم جرس ، ويخرج الاستاذ ، ويبدأ الضجيج من جديد .

الساعة الرابعة من اليوم الدراسى الثالث كانت ساعة التاريخ ، قرع الجرس ، وهدأت التلميذات ، وملأ الجو شعور ترقب وانتظار لمجىء المدرس الجديد . فقد علمنا يومها أن ادارة المدرسة تعاقدت مع أستاذ للتاريخ شاب وجديد على المدرسة .

وفجاة وقف عند الباب شاب وسيم جدا ، فارع الطول ، ذو عينين نفاذتين وفم مستدير ووجه باش مبتسم ، وغرة أنيقة منسدلة على جبينه العريض . ثم تقدم الى طاولة المدرس بخطوات سريعة ومشية معتدة وأخرج من حقيبته كتابا وبعض الدفاتر وقدم نفسه باسم «فؤاد الغول » وضجت التلميذات بالضحك ، وشاركتهن فى ضحكهن بعد ان أكد لهن أنه فى الحقيقة « غول » وديع لا يؤذى أحدا ، ولا سيما البنات . ثم بدأ بشرح الدرس . لم أفهم يومها شيئا . كنت أعانى من شعور ملح بأننى أعرف هذا « الغول » ، ولكننى لم أستطع أن اتذكر أين ومتى رأيته . وظل التساؤل العفوى يلح على فى عناد - « أين ؟ » ، « متى ؟ » « أين » ، « متى ؟ » ، وانتهى الدرس دون أن أعرف ما قيل فيه ، ودون أن يسعفنى الجواب على تساؤلاتى الصامتة الملحة .

بعد يومين كان الدرس-الثانى درس تاريخ ، ودق الجرس ، ومرت ثوان ودقيقة وثلاث وخمس دقائق ولم يأت المدرس . ثم نسيت التلميذات أن مدرسا سيحضر أو أنهن فى مدرسة فرحن يهرجن ، أو يتحدثن عن آخر فيلم أو تروى احداهن للأخرى قصة مغامرة غرامية لها أو ... وفجاة انشق الباب عن رجل كان فؤاد الغول .



وأذهلت المفاجأة بعضهن فندت عنهن صيحات مخنوقة مكتومة • وقال الرجل وهـو يحدجهـن بنظرات مؤنبة حادة ووجهه مكتس بابتسـامة تركزت حول فمه المستدير وشفتيه المتلثلثين :

« يبدو أنكن لم تعتدن أن تنشق لكن الارض عن عفاريت .. »

لم أسمع ما قال بعد ذلك ، اذ قفز قلبى فجأة ، وعرفته • لقد وجـدته أخيرا ، وجدت حبيبى ، عريس أحلامى الذى قابلته فجأة منذ عام وصيفين •

لكم أحببت ذلك الغول : لكم أحببته

وكم سعدت بالدراسة على يديه ذلك العـام • عبـدته عبادة ، وعبدت مادة التاريخ ، وعبدت المدرسة • لم يكن فى الدنيا كلها سوى كتاب التاريخ ، والمدرسـة ، وأيام الاثنين والاربعاء ، وانا ••• وهو ، غولى الحبيب ، فؤادى

وقـد عرفنى غولى • عرفنى منذ ثانى درس • كان الدرس يومهـا قد انتهى ، فراح يضع كتبه ودفاتره فى حقيبته • وخرجت الفتيـات الا اثنتين أو ثلاثا ــ لا أدرى كم بالضبط ــ كن يسائلنه تفسـيرا لبعض الأحداث التى ذكرهـا فى الدرس • ووقفت وراءهن ألتهمه وألتهم حركاته وكلماته لأتخـذ من هذا كله زادا أتزود به حتى يكون درس تاريخ ثان • وحانت منه التفاتة الى • وخفق قلبى بعنف • وتوقف عن الكلام فجأة • ثم سألنى وهو يبتسم :

« هل رأيتك من قبل ؟ »

وتلعثمت ، وفأفـأت ، وتأتـأت ، وهززت رأسى بالايجاب •

وضحكت التلميذات • ولكنه انقذنى حين وضع كفه على جبينه وهتف فى انتصار :

« نعم • طبعـا رأيتك • أنت أخت الولد العفريت الذى أمسـكته لكم على طريق الزبدانى ــ بلودانى » •

وسـكت قليلا ، ثم أرانى يده وقال وهو يبتسم :

« أتعرضـين لماذا أذكر ذلك اليوم ؟ لقد عضنى أخوك فى هذه اليد عضـة أدمتها . اما زال مسعورا ؟ »

وكركرت التلميـذات ضـحكا • وضحك هـو الآخر وهو يحمل حقيبته وينصرف •

وضحكت أنا أيضا ضـحكة غبيانة مفتعلة • وكاد يغمى على • ولكنه أنقذ الموقف بخروجه السريع •

نعم • لقد عرفنى • صحيح أنه لم يبد اهتماما خاصا بى • ولكنه لم يكن يستطيع • موقفه منى كأستاذ لتلميذة يمنعه من ذلك • انه شريف ، وجميل ، وأنا لذلك أحببته •

ولا شـك أنه أدرك من تصرفاتى أنى أحبه ، أعبده • ولكنه اختار أن يتجاهل ذلك • لقـد كان نبيـلا ، ولم يستغل علاقتهالرسمية بى • ولهذا أحببته أكثر ، ان ممكنـا أن افعـل اكثـر احببتـه بكل جـوارحى ، فى كل وقتى • ومضى العام قصيدة ، لم يكن فيها سواه وأنا والمدرسة ، وسوى التـاريخ فى يومين فى درسين •

ونجحت ذلكالعام فى امتحانالشهادة الثانوية بتفوق • واستغرب الجميع هذا التفوق • فقد كنت خلال سنى الدراسة كلها ممن لا يرجى لهن السبق فى ميدان العلم • ولـكن هـذا الميدان اقترن هذا العام بحلم حيـاتى ، بعريس أحلامى ، بالغول الحبيب •

أهلى أدهشهم أن أجتهد اجتهـادا لم يعهـدوه منى فيما سـبق • وادهشهم أكثر أن أنجح ذلك النجاح الباهر الذى لم يتوقعوه . ولكن أهلى ليسوا من النوع الذى يلحفى تقصى الأسباب• انهميألفون الجديد بسرعة •

وادارة المدرسة أيضا دهشت • ولكن المدرسين والمدرسات مشغولون بالـكثير من الواجبات ، ولا يجدون الوقت الكافى

للثرثرة والتساؤل • فرحوا جميعا بنجاحى ، فهو يساهم فى اعلاء سمعة المدرسة ، وهذا هو أعظم ما يهمهم •

ودهشت زميلاتى التلميذات،وتساءلن كثيرا، وتبرع بعضهن بافتراض الأجوبة، ولم تدرك احداهن الحقيقة • وما تبرعت قط بالقاء الأضواء على هذا التحول الذى أصابنى • احتفظت بقصتى لنفسى ، وكتمت النفس على ما فيها ـ سعدت به وحدى ، وعشت له وحده • واكتفيت به حقيقة وحلما وهوما وخيالا ، ما دام فى الدنيا فؤاد الغول ، فأنا مع الدنيا كلها فى سلام ووئام •

واحتفلت المدرسة بالناجحات • وذهبت الى الاحتفال وقد تزينت كما لم أتزين من قبل • فقد كنت ذاهبة الى حفل سيحضره • ولا شك انه سيعرف اننى لم أتزين الا له ، لتلمع بجمالى عيناه ، لترتسم صورتى فى قلبه، لاشك انه سيعرف • فهو يعرف منذ أمد اننى احبه ، ولكنه اختار أن يتجاهلنى ، لأنه استاذ وأنا تلميذته ، ومن الاخلاق والنبل ألا يستغل الاستاذ تلميذته ، ولكن الليلة تختلف • لم أعد تلميذته ولم يعد استاذى وانما نحن الآن رجل وامرأة كلانا حر • وانا جميلة، واحبه، وأعبده ، وهو لا شك ادرك ذلك منذ أمد طويل ،وهو شاب ، وأعزب، وانا جميلة ومستعدة للارتماء بين ذراعيه لدى أول اشارة منه •

وفى قاعة الاحتفال وقفت مع بعض زميلاتى الناجحات، كنا نتبادل الطرائف المضحكة عن أيام التلمذة وكأننا عجائز يستعدن ذكريات ماض بعيد •• بعيد •• سعيدات • أما أنا فكنت أرقب الباب وكانت زميلاتى يضحكن ويقهقهن باستمرار فى انتظار حبيبى الذى سياخذ بذراعى بعيدا بعيدا عن هذا الحفل ، وعن الناس، الى دنيا تكون لى وله وحدنا ••• وحدنا فقط •

وأطل حبيبى •

ولكنه ••• لكنه لم يطل وحده ، كانت تتعلق بذراعه فتاة أخرى وكان فى اصبع كل منهما خاتم خطبة •

لكن يا الهى انها لمياء !

كيف وقع فى حبائلها: كيف روضته ذات الشعر الكث والانف العريض المفلطح والقامة القصيرة • كيف ، من دون الجميلات ، حظيت هذه القبيحة بفؤادى ، بغولى •

وانسحبت من الحفل والدموع تنهمر من عينى• لم أعرف كيف وصلت البيت، ولكن حين وصلت الى غرفتى أغلقتها على نفسى وأذبت عينى الى دموع

بعد أسبوع ، كنت طريحة الفراش ، وكانت أخبار مرضى قد تسربت الى زميلاتى •• فجاءتنى لمياء تقص على كيف اقتنصت عريسها الجميل •• وأدركت يومها كيف ينتصر الكادحون ويفشل الحالمون أمثالى •



بريد القصة والقراء

يقدمه: ثروت أباظة

سعد نور الدين الرفاعي ـ العراق :

ليس فى حديثك قصة أيها الأخ . فانك لم تزد عن أن تروى لنا عن رجل ضرب زوجته ثم اعتذر لها بين ألم أبنائه وألم زوجته . لماذا ضربها ولماذا قبلت هى هذا . ولماذا لم تتعمق أنت أشخاص قصتك ولماذا لم تقدم لنا ماتريد قوله فى شكل قصة   أنا أعرف الجواب على هذه الأسئلة   انك لم تقرأ كثيرا فى القصة ولابد لك أن تقرأ . وأنت أيضا تخطىء فى النحو . وكثيرا ما تخطىء . وخطك لا سبيل الى تبين مراميه الا بالاستنتاج لا بالقراءة . أرجو أن تكون قصتك القادمة مكتوبة بالآلة الكاتبة أو على الأقل بخط أكثر وضوحا من هذا . وأرجو ألا ترسلها قبل أن تقرأ كثيرا فى القصة

سلمان على التكريتى ـ العراق :

قصتك يا أخى لا باس بها من الناحية الفنية . ولكن لى عليها مآخذ . فهى من ناحية الهدف قاتمة وليس فيها جديد فكثيرا ماورويت أمثال هذه القصة منذ طلع سوفوكليس على العالم بقصته أوديب. وأنا لا أدرى المعنى الذى يهدف اليه القصاصون من رسم علاقة آثمة تقوم بين ابن وأمه ترى أضاقت عليه مسالك القصة فلم يبق الا هذه الناحية المقدسة من عالمنا ومجتمعنا . وماذا تمثل هذه العلاقة . أهى آفة متفشية بين الناس حتى يبادر القصاصون الى علاجها . كم واحدا فيمن عرفت أعجب بأمه اعجابا آثما . أما أنا فلا أعرف أحدا ولم أسمع عن أحد انحدر الى هذه الهاوية القذرة من الحيوانية . أما من ناحية العرض فى القصة فهو ساذج بعض الشىء يذكرنا بحواديت الطفولة . فقصة الخاتم هذه واضح فيها أنها مركبة تركيبا حتى تصل بقصتك الى النهاية التى تريد وحتى تقف بالابن والأم أن يصلا الى ماكانا قد

انتويا الوصول اليه • وما اخالك الا تدرك هذا الافتعال كما تدرك مقدار أثره على القارىء وأنت أيضا أسهبت ياسيدى فى وصف جسم الأم حين كان يراها الابن من خلال الحائط المشترك • لعلنى لا أسرف عليك فى اللوم فى هذه النقطة فلعلك أردت أن تحلل نفسية المراهق وهو يستقبل بواكير شبابه • ولكن قل أيها الأخ ما دخل المدرسة فى هذه القصة • لماذا ذكرتها ماذا تفيد فى أحداث قصتك • وقل لى أيضا • لماذا تكثر من استعمال حرف « أو » دون أن يدعو الى ذلك داع من أسلوب أو من فن قصصى بل انه يجعل القارىء يتشكك فى كاتبه • فان لم يكن الكاتب واثقا من الأنباء التى يزجيها الى قارئه فمن يثق اذن • كل هذا لا يمنعنى من أن ترسل الينا قصة أخرى ، فموهبتك القصصية طيبة وثق أننا أكثر شوقا منك أن يطالع العالم العربى الآثار العراقية •

محمد نديم ــ القامشلى :

صورة عنيفة سوداء تلك التى صورتها فى قصتك ولكن كثيرا من عناصر القصة لم يتوافر لها • أنت صورت عائلة يأكلها الفقر والجوع والمرض والهزال وصورت راوى القصة طفلا أو صبيا يتحرق بالرغبات ويزلزل الخوف كيانه • وذكرت فى براعة موت أبيه وكيف تشقى أمه بتربيته هو وأخوته كل هذا صورته فى براعة • أنت رسمت الشخصيات ولم ترسم القصة • مثلك مثل المخرج المسرحى الذى وضع المنظر والممثلين على خشبة المسرح ثم هم لم يقدموا للجمهور شيئا ، أنا لا أشك أنك قرأت كثيرا ولكنك تحتاج الى مزيد من القراءة • ولا تحتج على بأن موت الطفل الصغير بدلا من موت الام الذى كان منتظرا يشكل القصة فهذه حادثة لم تخدمها ولم تمهد لها التمهيد الذى يجعل منها القصة التى تريد • أنا فى انتظار قصتك القادمة •

اميل سليمان داود :

قصتك لا باس بها وان كانت تعالج مشكلة ما أظن أحدا من الكتاب أو غير الكتاب أعفاها من المعالجة • وطريقة العرض التى اخترتها قريبه من الحواديت فهى ساذجة بعض الشىء وان كانت لا تخلو من التشويق • والحقيقة أنا لم أفهم النهاية • لماذا أرادت الحماة لزوج بنتها أن يبقى فى الاسكندرية بعد أن كانت تبدى له أشد البغض • ما هذا التغير المفاجىء • أى جديد حل بهم • ولماذا ترى زوج البنت قد انتصر آخر الامر • أنا لم أفهم هذا الوضع من قصتك ولكنك عفيف فى سردك سهل قريب المأخذ وأنت أيضا تخطىء أحيانا فى النحو • أخطاء تستطيع ــ لاشك ــ أن تتداركها لو أردت وأرجو أن تريد • اعتقد أننى سأنشر قصتك القادمة ان شاء الله •

محمد احمد رشيد :

أنا واثق أنك تعرف تماما أن موضوعك هذا قد تناوله الكثيرون • وأنا واثق أيضا أنك تعرف أنك لم تدخل اليه جديدا من حيث العرض حتى يصبح قابلا للنشر • اننى أذكر على الاقل عشرة أفلام سينمائية وعشر مسرحيات عالجت موضوعك هذا • أما العرض فلا وحدة فيه على الاطلاق فهو مزيج من الافكار والاحاديث اختلطت معا ولم تكون القصة التى تريد •

اخطاؤك النحوية قليلة • ويبدو أنك قرأت ولكنك فى أول عهدك من الكتابة على ما أظن ولا حرج عليك أن تزيد قراءتك ثم تكتب • وانتظر حتى تجد الفكرة المناسبة وحاول أن تقدمها فى عرض جديد • على أن يكون واضحا وحاول أن تجعل القصة تسير فى خط واحد ولا تتعرج حتى لا تهوش على القارىء •

وانني أشكرك غاية الشكر على جميل ظنك بى •

نتولا حنا ابراهيم :

قصتك لا بأس بها • ولكن فيها كثيرا من الافتعال • الاحداث معتسفة مرغمة على أن تكون بالصورة التى اردتها بها • ليس هناك طبيعية فى السياق وكل حدث منفصل عن الآخر فلا تأخذ رقاب الأحداث بعضها ببعض • أنت فى مقهى وفجاة ترى راقصة قديمة من الاسكندرية وتروى عليك أحداثا عجيبة وتنتهى بأنها تركت زوجها الذى أنقذها من الموت ومن حياة العار ليجعلها سيدة داره • وهى حين تزوجته لم تكن تحبه ثم أحبته ثم لما قامت الثورة تركته واقبلت الى الاسكندرية تستجدى • لا أظنك تريد القول أن الاستجداء خير لها من الحياة مع زوج أنقذها وستر ما كان من أمرها وقبلها زوجا • لا ما أخالك تريد أن تقول هذا • والا كان الأولى بك أن تنهى قصتك بأن هذه الراقصة هاربة من مستشفى الامراض العقلية • الواقع أن النتائج عندك غير مبنية على المقدمات • كل الأحداث تتفجر من تلقاء نفسها دون أن تمهد لها أنت أن تتفجر • أسلوبك لا بأس به • وأنت لا تكاد تخطىء فى النحو • واعتقد أنك تستطيع أن تكتب قصة خيرا من هذه •

عبد الستار محمد خليف :

أنا يا سيدى فى غاية الحرج والأسف وأنا أكتب هذه السطور • وقد كان الأولى بى والأجمل بك ألا أكتبها ولكن أمرين يحتمان على أن أكتب • أما الأمر الاول فهو أن القضية معك قضية عامة وليست خاصة • وأما الامر الثانى فهو أنك تعتب على أننى لم أرد على قصتك الرمزية السابقة التى كانت بعنوان « دماء ••• دموع ••• وذكريات » •

أرجو ياسيدى أن تكون مدرسا لأى شىء الا اللغة العربية والا فاننى أشعر بقلق شديد • انك ياسيدى تخطىء فى النحو بشكل لايمكن أن يقبل من شخص يشغل المكان الرفيع الذى تشغله فى الانسانية • هل أسوق اليك بعض الأمثلة ••• اليك بعضها • أنت تقول كان الناظر **قديم** فى آرائه • وتقول ووجدت **تلميذ مصاب** • وتقول فوجدت الديك الشركسى **ذو الزجه القرمزى والعينان الخضراوان** • وتقول غير هذا مخطئا فيما تقول دائما • وأنت ياسيدى تخطىء فى الاملاء أيضا وتقول فعلمت أن والده متزوج بعد وفاة أمه •

الشىء الوحيد الذى أرجو أن تكون مخطئا فيه هو أنك مدرس • فحتى لو كنت مدرسا للغة أجنبية فاننى لا أرضى لك هذا •

أما عن القصة ياسيدى فهى ساذجة غاية السذاجة فى عرضها • وقد أقحمت فيها المواضيع الوطنية اقحاما لا يقبله الفن القصصى • اننى أعود فاقول اننى

فى غاية حرج • ويزيد من حرجى أننى مضطر أن أقول لك اقــرأ وما أكبرها كلمة تقال لاستاذ يعلم أبناء الأجيـال القادمة أن يقرأوا •

ابراهيم احمد الزينى :

أولا أشكرك على حسن ظنك بى • وبعد ذلك دعنى أحدثك فى صراحة • انك من معهد جليل الاثر فى حياة اللغة العربية • كيف ارتضيت لنفسك هـذا الاسلوب الذى نكتب به أتراك تحاول أن تثور على معهدك فتكتب بالعامية • اننا نقبل العامية فى الحوار مع الكثير والكثير جدا من التهاون • أما العامية فى السرد فلا نقبله بحال من الأحوال •

وأنت تخطىء فى الهجاء • لا يقبل هذا من طالب فى كلية دار العــلوم • وأنت تخطىء فى النحـــو حــين تكتب بالعربية ومرة أخرى لا يقبل هذا من طالب فى كلية دار العلوم • ان هذه الكلية التى تخرج فيهما كبار الشعراء والأساتذة لابد أن تكون أكرم عليــك وعلينا من أن تكون من أبنائها وتكتب بالعامية أو تخطىء فى الاملاء أو تخطىء فى النحو • فلمن يكون اللسان العربى الفصــيح النقى • ومن سيعلم أبنـــاء الأجيال القادمة لسان اللغة الأم ان لم يكن أنت •

لن أحدثك عن القصة أو أقرأ لك قصة أخرى عربية البناء والاسلوب نقية اللفظ والعبارة • وانى لمنتظر •